

العذراء والشعر الأبيض

مكتبة المكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

حسان عبد القدوس

العذراء والشعر الأبيض



دار المعارف

❦ أصحاب السوابق ❦

دخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف مكتب الوزير وانتفض السكرتير يستقبله
في احترام مبالغ فيه ، وقال الأستاذ أحمد في هدوء :
- هل أستطيع أن أرى سيادة الوزير ؟
وقال السكرتير في رعشة :
- طبعاً يا أفندم .. طبعاً .. ثانية واحدة ..
وما كاد السكرتير يدير ظهره حتى لوى شفتيه في قرف وأطلق زفرة من صدره
كأنه يستغيث بالله ، وفتح الباب ودخل إلى الوزير وقال كأنه يبلغه بأنباء نكبة :
- الأستاذ أحمد عبد اللطيف هنا ..
ورفع الوزير حاجبيه في دهشة وقال :
- ماذا يريد ؟
- يريد أن يدخل ..
- ألم يسبق أن طلب تحديد موعد ؟
- لا ..
وأطلق الوزير أنفاس الضيق ، وعاد السكرتير يقول :
- هل أقول إن سيادتكم في اجتماع وأحدد له موعداً في الساعة الثانية ..

- أى شيء يا أحمد .. أى شيء .. اطلب ..

وقال أحمد كأنه يسخر من فرحة الوزير :

- إنك تعلم أنى لم أطلب أبداً شيئاً منكم ..

وقاطعه الوزير :

- ولكنها ليست غلطة أحد فأنت الذى كنت ترفض كل ما يعرض عليك ..

كان يمكن أن تكون الآن وزيراً ..

وضحك أحمد قائلاً :

- ربما لأنى أنه منك .. فإن كل وزير يصبح بعد قليل وزيراً سابقاً ..

وأنا أكره أن أحمل لقب « سابق » إنه أقرب إلى لقب « المرحوم » .. هل تذكر

أخانا مختار رفعت .. إنه وزير سابق ورئيس وزراء سابق ، وهو أيضاً رئيس

مجلس إدارة سابق ، وسكرتير هيئة سابق ، إنه الآن يعتبر من أصحاب السوابق ..

وهو يعيش فعلاً كأصحاب السوابق ، حائر فى تحقيق مكانه وصفته فى المجتمع ..

إنى أعرف أن الذى يصاب بلقب « سابق » يصاب بجرح خطر يؤثر فى كل تفكيره

وفى كل أحاسيسه .. إنه بعدها يصبح إما من أكبر المغالين فى النفاق وفى التلذذ

وفى الاستسلام ، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين فى المعارضة وفى النقد .. ولا علاج

له إلا أن يعود إلى الوزارة .. وكثيرون عادوا إما لجهودهم فى النفاق والاستسلام .

وإما لإسكاتهم عن الكلام والنقد ، والذى يعود لا يعود أبداً كما كان ، إنه يعود

وهو مجروح ويزاول عمله وهو يحسب فى كل يوم أن يتلقى السهم المسموم من

جديد ويصبح « سابقاً » مرة أخرى ، ولذلك فهو يعمل لما بعد خروجه من الوزارة

أكثر مما يعمل لمسئوليته كوزير . . . ولست فى حاجة لأن أضرب لك الأمثلة ،

فهى معروفة ..

وقال الوزير فى حارة وقرب :

- ولكن يا أحمد كل وزراء العالم يدخلون ويخرجون .. ومنذ وجد الإنسان

لم يوجد وزير بقى العمر كله وزيراً إلا فى القصص الخرافية ..

وقال أحمد وهو لا يزال يضحك :

- هناك فرق .. فهناك وزارة بأكملها تترك الحكم ، أو وزير يخرج من

الوزارة نتيجة معركة .. سواء معركة سياسية أو معركة فنية خاصة باختلاف الرأى

الفنى .. وفى هذه الحالة لا يتأثر الوزير بلقب سابق لأنه يعيش وضعاً مستمراً

وهو المعركة السياسية أو الفنية .. فهو مقاتل دائم وكل ما هناك أنه غير موقعه

داخل هذه المعركة .. ولكن الذى يصاب ويجرح هو الذى يصبح « سابقاً »

بمجرد شلوت .. شلوت قد يرفعه إلى أعلى كأن يخرج من الوزارة ليصبح مستشاراً

أو بعد أن يمنح وصافاً جليلاً ، وقد يكون شلوتاً إلى أسفل ويمجد نفسه فى الشارع ..

المهم أنه لم يدخل معركة يعرفها ويستطيع أن يستمر بها سواء داخل الوزارة

أو خارجها ، ولكنه ألقى فجأة من الشباك وقراً خبر وفاته فى الصحف وبدأ يستقبل

المعزين دون أن يستعد لاستقبالهم ، أو يقيم صيوافاً لاستقبالهم .. إن آثار الشلايت

على بنطلونات كثير من الوزراء السابقين لا يمكن أن تمحى أبداً حتى لو أخذ

بنطلونه وذهب به إلى أكبر الإخصائين فى إزالة البقع والفتوق ..

وقال الوزير فهمى عباس فى حدة :

- اسمع يا أستاذ أحمد .. إن هذا الكلام يمسنى ولا بد أنك تقدر ذلك ..

وأحب أن أقول لك أنه لا يهينى أن أخرج من الوزارة اليوم أو غداً .. لا يهينى

فى أى لحظة أن أكون سابقاً .. كل ما يهينى هو إحساسى بأنى أجلس على هذا

المكتب لأؤدى خدمة لبلدى .. إلى أخدم بلدى سواء وأنا جالس إلى مكتب وزير

أو إلى مكتب موظف درجة سادسة . .

وقال الأستاذ أحمد دون أن يبدو عليه أى تأثير بحدّة سيادة الوزير :

- هذا ما فكرت فيه عندما عرضت على الوزارة منذ سنوات كما تعلم . .

فكرت في خدمة بلدى . . وأنا كما تعلم محام وخريج كلية الحقوق وكل دراستى خاصة بالقانون والعلوم السياسية والاجتماعية ، ولكن الوزارة التى كانوا يعرضونها علىّ هى وزارة المواصلات . . وقد ردت أنى في حاجة على الأقل إلى ثلاث سنوات لدراسة علوم المواصلات حتى أستطيع أن أقرر بعدها إذا كنت أستطيع أن أكون وزيراً أو لا أستطيع . أى أنى لم أتعال على الوزارة ولكنى فقط درست قدرى وإمكاناتى على حمل المسؤولية و . . .

وقاطعه سيادة الوزير :

- يا أستاذ أحمد . . إن الوزارة ليست مركزاً فنياً . . كل الاختصاصات

الفنية يتولاها وكلاء الوزارة . . أما الوزير فهو مركز سياسى . .

وقال أحمد في هدوء :

- هذا هو الخطأ الأكبر الذى تقع فيه وتقع فيه كل الدول العربية وأيضاً معظم دول العالم الثالث وهو أن يعتبر مركز الوزير داخل نظم الحكم التى يعيشونها مركزاً سياسياً . . أبداً . . إن مركز الوزير لا يكون مركزاً سياسياً إلا داخل نظم تعدد الأحزاب لأن الوزارة تنفذ مبادئ وخطط وبرامج الحزب في مواجهة حزب آخر . . ونحن ما زلنا متأثرين بالماضى عندما كانت الوزارات سياسية حزبية . . كان الوزير سياسياً لأنه وفدى أو لأنه دستورى أو لأنه مستقل ، ولكن الآن أى صفة سياسية يمكن أن يحتاج إليها الوزير . . لقد أخطأنا يوماً ووضعنا للوزراء صفة التمثيل السياسى الخارجى . . كنا في مرحلة التفاهم مع

أمريكا نختار وزيراً له موقف سياسى راسخاً ، وفي مرحلة التفاهم مع الاتحاد السوفيتى نختار وزيراً له موقف سياسى شيوعى . . وكل هذا لم يؤد إلى نتيجة سياسية ، لأن الواقع هو أن الوزارة كلها ليس لها اختصاص سياسى ولا تستطيع ، ويس من حقها أن تقبل أو ترفض أى قرار سياسى . . إن السياسة مركزة في تنظيم آخر خارج الوزارة . . وكان الحل الأمثل هو الاعتراف بكيان هذا التنظيم وأن تتفرغ الوزارة ككيان في تنفيذ . . ولكن هذه اللخطة بين السياسة والتخصص العلمى أدت إلى ضياع صفة الوزير لا هو سياسى ولا هو فنى . . أنت مثلاً . . . إنك خريج كلية الآداب قسم اللغة العربية و . . .

وقاطعه الوزير وقد اشتدت حدته قائلاً :

- يا أحمد . . أنت أستاذنا جميعاً ونحن نقدر لك استمرارك في التفرد

للمحاماة و . . .

ورد أحمد مقاطعاً :

- حتى مكنتى كمحام تعرض لكل لهذا الخلط وكل هذه الأوضاع الغريبة . .

فأنت تعلم أن عدد الموكلين أو الزبائن الذين يعتمدون على مكنتى محدود ، فرغم أنى متفرغ للمحاماة كمعلم فعلاً إلا أنى أكثر تفرغاً للفكر السياسى منذ تخرجت وقبل أن أتفرغ . . وكانت صورتي وسمعتى السياسية والكتب السياسية التى كتبها ونشرتها ، ثم ما هو معروف عنى من عمليات ثورية كنت أقوم بها في شبابه ، كل ذلك أثر في إقبال الناس على مكنتى كمحام . . وكنت أعطى الناس العذر ، فمع اقتراس أنهم يقدروننى كسياسى عاشوا معه جيلاً كاملاً ، إلا أنهم لا يحتاجون في قضاياهم إلى سياسى بل يحتاجون إلى محام . . ثم قد يكون القاضى مختلفاً معى في آرائى السياسية فيتأثر بهذا الخلاف في حكمه ، فما ذنب صاحب القضية . .

إن من صالحه دائماً أن يختار محامياً متفرغاً تفرغاً كاملاً للمحاماة .. هذا ما كنت أعتقد .. إلى أن قابلت مرة الرئيس في لقاء خاص ، وأنت تعرف أتي تعودت أن ألقاه كثيراً كصديق ، ولكن في هذه المرة نشرت المقابلة في الصحف ضمن المقابلات الرسمية ، وكانت الصدمة التي تعرضت لها هي أتي فوجئت في اليوم التالي مباشرة بعدد كبير من الزبائن بدأوا يترددون على مكنتي .. زبائن جدد .. وأنواع جديدة من القضايا .. وفرح عبد العاطي وكيل المكنت الذي عاش معي العمر كله وهو يعانى تقثير القدر عليه في الزبائن ، واستحملت أنا أسبوعاً وأسبوعين وأنا أقابل كل من يأتى إلى المكنت وأقرأ وأبحث كل قضية .. ثم توقفت .. إنها ليست قضايا ، إنها عمليات تحتاج إلى وساطات ، وكل هؤلاء الزبائن الجدد لم يلجأوا إلى كمحام ، إنما لجأوا إلى كأحد المقربين بعد أن قرأوا الخبر في الصحف .. إن الذى يقابل الرئيس يستطيع بلا شك أن يقابل رئيس الوزراء ، ويستطيع أن يقابل الوزير ، ويستطيع أن يقابل رئيس هيئة أو أى وكيل وزارة .. ويستطيع أن يحقق المطالب ويكسب القضايا .. و.. وكانت النتيجة هو أتي اعتذرت عن جميع القضايا التي جاءتني بهذا الفهم الجديد للقيمتي ، بل إنى أغلقت مكنتي وذهبت إلى القرية وبقيت هناك ثلاثة أشهر ..

قال الوزير فهمى عباس ساخراً :

— لأن لك قرية تغنيك عن المكنت .. ولكن لو لم يكن لك شيء في القرية أين كنت تذهب .. اعذرني يا أستاذى عن هذا السؤال ..

وقال أحمد دوين تأثر :

— تقصد أكل العيش .. إنى أستطيع أن أعيش بلا عمل لأنى أملك أرضاً في القرية ، ولذلك أستسلم لكل أرائى السياسية لأنى لست محتاجاً .. هذا

ما تقصده .. وهذا ما جئت لأطلب وساطتك فيه ..

ودق جرس التليفون بجانب الوزير ، وكان السكرتير يذكره بأنه على موعد وقال الوزير في عجل :

— لا .. لا .. لا مواعيد ..

ثم التفت إلى أحمد قائلاً :

— فى خدمتك يا أستاذ أحمد ..

وقال أحمد :

— أخشى أن تفاجأ إلى حد أن تحبب أسمى ..

وقال الوزير مبتسماً :

— لقد عودتنا على المفاجآت ..

وقال أحمد :

— لقد اخترتك ولجأت إليك لأنى مقتنع بأنك خير من يستطيع أن يحلل

كل موقف وأن يقدر وأن يفهم الصعب ..

وقال الوزير كأنه يتعجله :

— شكراً .. كلنا من تربيتك ..

وقال أحمد فى هدوء وبين شفثية ابتسامة حزينة :

— جئت لأوسطك حتى تسعى لإقناعهم بوضعى فى السجن ..

وقال الوزير كأنه يتنفض :

— ماذا تقول .. السجن ؟ !

وقال أحمد فى هدوء :

— نعم .. السجن .. إن الشيء الوحيد الذى أطلبه من الثورة بعد هذا

العمر الطويل وبعد أن أصبحت الثورة دولة ، هو إصدار قرار بوضعي في السجن ..
ونظر إليه الوزير كأنه ينظر إلى مجنون ، وقال :

- ماذا فعلت وجئت تعترف به حتى تدخل السجن ..

- لم أفعل شيئاً بعد ..

- ولكن بأى سبب تريد أن تدخلوك السجن ..

- تحت التحقيق ..

التحقيق في ماذا وأنت لم تفعل شيئاً ..

- التحقيق في احتمال أن أفعل شيئاً ..

- أنت رجل قانون وتعرف أن الاحتمالات لا تكفى لتوجيه أى اتهام ..

- ليس القانون .. ولكن أحد المقررين إليكم .. كل الناس تعرف أنى من

المقررين .. والمقررون لهم امتيازات كثيرة ، والامتياز الوحيد الذى أطلب به هو

إدخالى السجن ..

- ولكن لماذا ؟

لأن القرية لم تعد تكفى ..

- تكفى لماذا ؟

- لهرى من نفسى .. إن السجن وجدت لتحمى الناس وتحمى الدولة ..

وأنا أريدها لتحمى نفسى من نفسى ..

- لا أفهمك ..

- حتى تفهمنى يجب أن تقدر أولاً أنى تعبت .. إلى الآن فى الستين من

عمرى .. الواحد والستين .. ورغم ذلك ففكرى لا يزال فى شبابه لا يريد أن

يشيخ معى ولا يريد أن يستسلم لواقعى .. وأصبحت أخشاه وليس هناك من

وسيلة إلا أن أحبس نفسى فى زنزانة حتى لا يستطيع فكرى أن يتحكم فى تصرفاتى
ولا حتى فى لسانى ..

وزفر الوزير زفرة زهق وقرف وأسد رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع
أن يسمع مزيداً من هذا الكلام ، ثم قال :

- صدقتى يا أحمد .. لقد جعلت من نفسك مشكلة لا يمكن حلها ..

وقال أحمد وهو ينظر إلى الوزير بكل عينيه كأنه يرجوه أن يحتمله :

- يكفى أنك اعترفت أنى أصبحت مشكلة .. وحتى تصل إلى تحديد خطوط

مشكلتى يجب أن تعرف أنى لا أقبل أبداً أن أحمل لقب « سابق » .. أفضل أن

أموت قبل أن يعلن أنى أصبحت من أصحاب السوابق .. وأنا ليس لى صفة أعتر بها

وأحرص عليها إلا صفتى ككاثر .. فكر ثورى .. وإيمان ثورى .. ولا أريد أن

أعيش حتى أصبح فى نظر وتقدير الناس ثائراً سابقاً .. واحد من ثوار زمان ..

واحد لا يستطيع أن يلاحق بثورته الأجيال الجديدة والتطورات السياسية والحضارية ..

وبما أنى فى الوقت نفسه أريد أن أستريح من نفسى ومن ثورنى فإن أفضل مكان

وأشرف مكان يمكن أن يستريح فيه الناصر هو السجن .. إن وجودى فى السجن

هو تأكيد لصفتى ككاثر وفى الوقت نفسه إعغافى من أداء مهنتى ككاثر ..

وقال الوزير ساخراً :

- كنا نعرف أيام زمان نوعاً من الشبان يفتعل الحركات الثورية ويفتعل

الاحتكاك بالبوليس حتى يقبض عليه وينشر اسمه فى الصحف ويشتهر كأنه

أحد الثوار .. وهو ليس بثائر ، إنما مجرد نصاب باسم الثورة ، وأخشى بعد هذا

العمر الثورى الطويل الذى عشته أن تحسب من بين هؤلاء .. تريد السجن

ليبدو بطلاً ..

وقال أحمد في هدوء :

- لا أؤمنك على تصور هذا الاحتمال .. لقد تصوره أنا أيضاً .. خشيت أن تعتبروا سعيي إلى السجن نوعاً من البحث عن الشهرة والبطولة .. ولكن يجب أن تقدروا أنني لم أقم بأى عمل يمكن أن يرر دخول السجن .. إلى أدخل السجن بناء على طلب شخصي .. أى يمكن أن يصدر القرار في صيغة « تقرر حبس الأستاذ أحمد عبد اللطيف حبساً مطلقاً بناء على طلبه الشخصي » ثم لا ينشر هذا القرار في الصحف ولا يدرى أحد أين اختفيت .. أرجوك .. افهمي .. يمكن أن تعتبرني مريضاً في حاجة إلى دخول مستشفى .. والمستشفى الذى يصلح لى هو السجن ..

- أنت لست مريضاً .. والسجن ليس مستشفى .. وأنت تطالب الدولة بقرار استثنائي لا يقره قانون .. فإنك تريد أن تستغل صداقتك واحترامنا لك لتحقيق مطلب شخصي ..

- هذا صحيح .. ولكنه مطلب لا يكلف الدولة شيئاً .. وأنت تعرف كم كلفت الدولة المطالب الشخصية الأخرى ..

وسكت الوزير برهة ثم رفع رأسه وملأ عينيه من وجه الأستاذ أحمد كأنه يريد أن يتأكد أنه هو نفسه الأستاذ أحمد الذى يعرفه ثم قال :

- أستاذ أحمد .. إن ما يحيرنى هو اعتقادك أنك يجب أن تهرب من فكرك الثورى .. لماذا .. إن الثورة لا تزال مستمرة ولا تزال قادرة على احتواء أى فكر ثورى .. ولا أعتقد أنك ضد الثورة أو معارض لها بحيث تتصور أنها لن تحتل أفكارك ..

وابتسم أحمد ابتسامة الأستاذ وقال :

- هناك فرق بين الثورية المضادة وبين اختلاف الموقف داخل الثورة الواحدة .. وأنا وأنت أصبحنا من زمن نختلف في الموقف .. أنا أقف في الشارع وأنت تقفون في الداخل .. والذين يقفون في الشارع هم الذين اختاروا الحرية المطلقة .. حرية بلا مسئولية تنفيذية .. إنها حرية الفكر .. والذين يقفون في الداخل يقيدون حريتهم بعشرات السلاسل والأغلال .. السلاسل والأغلال التى تفرضها المسئولية التنفيذية .. وكل من الطرفين على حق في موقفه .. الذى يقف في الشارع يمكن أن يطالب بمشروع شعبي يتكلف ألف مليون جنيه ، والذى يقف في الداخل يعارض هذا المشروع لا لأنه ضد الشعب ولكن لأن الدولة لا تملك ألف مليون جنيه .. أى أن التأثير المطلق لا يتقيد بالواقع بل يرفضه ويثور عليه ويركز كل فكره الثورى على المستقبل ، أما الذى يحمل المسئولية التنفيذية فهو مقيد بالواقع وهو مضطر إلى الإبقاء على هذا الواقع وصيانته حتى لو اضطر إلى تسليط البوليس على رجل الشارع ، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر في المستقبل ولكن تفكيره قد يكون مجرد الإيمان بأن الواقع قادر على التطور لتغطية المستقبل ، أو قد يكون تفكيره هو مجرد الاتكال على الغيب ، ومواجهة كل المشاكل بهذا الاتكال .. ربنا يحلها .. و ...

وقاطعه سيادة الوزير فهمي عباس قائلاً :

- المهم أنك قلت إن كلاً من الطرفين على حق في موقفه .. أى يمكن

التفاهم بينهما .. و ..

وقال أحمد مقاطعاً :

- لا .. التفاهم هو انجاء الضعفاء المسلمين .. لا يمكن لأى ثورة أن

تتقدم في مواجهة المستقبل إلا تحت ضغط .. وهو إما أن يكون ضغطاً من خارجها

أو ضغطاً من داخلها . . ضغط قوة شعبية قائمة مستمرة تملك أن تجعل كل مسئول في حالة مستمرة من الدفاع عن نفسه . . وكى يدافع عن نفسه يجب أن يثبت قدرته على التقدم . . على التطور . . على مواجهة كل مطالب المستقبل . . على تحقيق المبادئ الثورية . . فإذا احتنى هذا الضغط أو ضعف ، أصيب المسؤولون عن الحكم بالغرور لأنهم تخلصوا من الإحساس بالدفاع عن النفس . . والغرور هو أخطر ما يتعرض له الحكم ، وهو ما يمكن أن يجعل من الدولة مجرد شركة مقاولات لا تتصرف إلا في حدود ما يطلبه صاحب الملك المغرور . . ثورات كثيرة عجزت عن تحقيق مبادئها لأنها لا تواجه قوة ضغط . . الثورة الشيوعية مثلاً . . إن مبادئ ماركس لم يطبق واحد على مائة منها حتى اليوم . . والمجتمع السوفيتي لا يزال يعاني من الانفصال الطبقي ، ولو أن الطبقات تحولت إلى طبقات بيروقراطية . . لماذا . . لأن الثورة قضت على قوة الضغط الخارجى عليها ، ثم قضت على قوة الضغط الداخلى أيضاً . . أى قضت على الفكر الشيوعى الذى يقف فى الشارع . . وفى أيام ستالين أعدم ثلاثة ملايين شيوعى كانوا يمثلون قوة ضغط على الحكومة ، ثم بدأ المجتمع الشيوعى بعد ستالين يتقدم فى بطء لأن الحكومة سمحت بظهور بارقة من الضغط الداخلى . . لهذا لا يمكن استمرار الثورة على أساس التفاهم بين الفكر المطلق والفكر التنفيذى المسئول أى التفاهم بين المقيدين بالواقع والمطلعين إلى المستقبل . . لا يمكن أن تستمر إلا تحت قوى ضاغطة . . كل منها يضغط على الأخرى . .

وقال الوزير وهو يتسم كأنه توصل إلى الحل الذى يرضى أحمد :
- إذن فإنى أتعهد لك باسم جميع الأصدقاء أن تترك لك حرية التعبير عن القوة الضاغطة . . إننا نثق فيك حتى لو اختلفنا معك . .

وصاح أحمد وقد احتد لأول مرة :

- لا . . لا . . لا أستطيع . . قلت لك إني تعبت . . تعبت من نفسى ومنكم . . أريد أن أستريح . . أن أحال على المعاش . . ولا أطلب سواماً ولا حتى خطاب شكر . . أريد أن أستريح فى السجن . . إني كمن يرسل كتابه الذى انتهى منه لوضعه فى غلاف محترم له . . والسجن هو الغلاف الذى أريد أن أغلف به حياتى . . هل فى هذا شئ يصعب على الدولة . .

وقال الوزير وقد علا صوته هو الآخر :

- إني لا أستطيع أن أتوسط لك فى مثل هذا الطلب الغريب . . إنهم سيتهمونى بالجنون لمجرد أنى أنقل إليهم فكرة مجنونة كفكرتك . . وهذا الأستاذ أحمد وقال وهو يتسم ابتسامة مسكية ضعيفة :

- لقد فكرت فى الجنون أيضاً . . فكرت أن أدعى أنى أصبت بمرض فى عقل وفى أعصابى . . وأطلب من الطبيب أن يضعنى فى مستشفى المجاذيب . . واخترت مستشفى بهمان بالذات لأن نزلاءه أقل خطراً . . والانتهاه بالجنون هو نهاية مشرفة أيضاً لصاحب أى فكر ثورى . . لأن معناها أنه أجهد عقله فى سبيل وطنه إلى أن جن ، وقد يعتبر الناس أن الدولة هى التى وضعتنى مع المجاذيب كما يحدث لكثير من المتهمين السياسيين تخلصاً من محاكمتى . .

وقال الوزير فى تأثر :

- أستاذى إني أشفق عليك من كل ما تفكر فيه . . من كان يصدق أن هذه يمكن أن تكون أفكار الأستاذ أحمد عبد اللطيف . .

وقال أحمد :

- هل تعرف ما فكرت فيه أيضاً . . فكرت فى الانتحار . . إن الكاتب

الأمريكي هيمنجواي انتحر لأنه اكتشف أنه أصبح أعجز من أن يقدم شيئاً جديداً لقراءه .. وأنا .. ربما كانت هذه هي سر أزمي .. لم أعد أستطيع أن أقدم فكرياً جديداً لوطني .. لم أعد أستطيع أن أستمّر باتجاهي الثوري وأصبح من حق أن انتحر .. على الأقل فاني أفضل لقب «مرحوم» على لقب «سابق» ..
الثائر المرحوم أشرف من الثائر السابق ..

وقال الوزير وهو يتطلع إلى أحمد بنظرة إشفاق :

- تستطيع أن تفكر في شيء آخر .. تستطيع أن تفكر في اعتزال العمل السياسي والتفرغ لمشروع زراعي أو اقتصادي .. كثير من زملائنا كما تعلم أنهم وضعهم الثوري وتركوا كل مسئولية سياسية ونجحوا نجاحاً كبيراً في مشروعات تصدير واستيراد أو غيرها من المشروعات ..

ونظر أحمد إلى الوزير كأنه يلومه وقال :

- تريدني أن أكون واحداً من هؤلاء .. إنهم جميعاً استغلوا الثورة في الانحجار .. لقد وجدت كتاباً أصدره واحد منهم في إحدى دول الخليج .. دول البترول .. وكتب عليه اسمه وكتب تحت اسمه صفة «عضو مجلس قيادة الثورة» رغم أنه لم يكن عضواً في مجلس القيادة ، ورغم أن الكتاب كله لا علاقة له بالثورة إنما هو كتاب عن مشروع تجاري ربح منه الثائر السابق أكثر من مليون جنيه استرليني .. هل هذا ما تريده مني ؟ .. هل يهون عليك أستاذك إلى هذا الحد .. هل يهون عليك الثورة لتنتهي إلى يد أمثال هؤلاء ؟ !

وقال الوزير وهو يحاول أن ينهي الحديث :

- لا .. لا أقصد هذا النوع من الناس .. هناك مشروعات أخرى مشرفة .. تستطيع مثلاً أن تقيم في القرية مزرعة دجاج .. الدجاج الآن يمثل حاجة شعبية

بجعل أزمة حادة من أزمائنا ، وهي أزمة المطالب الغذائية .. كل صاحب أرض هم الآن مزرعة فراخ .. وشخصيات معروفة من الشخصيات الثورية السابقة تعيش الآن على مشروعات الفراخ ..
وقال أحمد ساخراً :

- إن كل ما أجيده هو التعامل مع عقول الناس .. عقلي وعقلهم .. تبادل الفكر .. ولا أستطيع أن أتعامل بعقلي مع عقل فرخة .. وإن كانت الفراخ كما تقول أصبح لها قيمة شعبية ودور وطني ..

وقال الوزير وهو يضغط بيده على حافة المكتب كأنه يهيم بالقيام حتى يلفت نظر أحمد إلى ضرورة إنهاء المقابلة :

- على كل حال يا أستاذي .. أنا أسف .. لن أستطيع أن أعرض مشروعك على أحد .. لا أستطيع .. أكرر أسنى .. وقام أحمد من على مقعده ومد يده بصافح الوزير مودعاً قائلاً :

- كنت أنتظر هذا .. وقد قلت لك في أول الحديث إنك ستفاجأ .. وعلى كل حال من حق أن أختار .. إما السجن أو مستشفى المجاذيب أو الانتحار ..
والوزير يودعه حتى الباب قائلاً :

- لا تنس مشروع الفراخ ..

وقال أحمد ضاحكاً ..

- هذا إذا قامت الفراخ بثورة ..

❖ الساعات الأخيرة قبل الغروب ❖

كنت أقضي أياماً في جزيرة رودس . . سائحة تبحث عن الهدوء والجمال . .
وكنت جالسة في حديقة فندق «جراند أو تيل» على حافة حمام السباحة أقرأ كتاباً
بهم مجموعة قصص قصيرة لكتاب إيطاليا عبر الأجيال المتعاقبة من أول بوكاسيو
وميكافيلي إلى الكاتب المعاصر مورافيا . . ووقف أمامي شاب وسيم رشيق
كانه رسم خطوط وعضلات جسده بنفسه وبذوق فنان ، وفيه سمرة أوربا
التي تختلف قليلاً عن سمرةنا . . سمرة مصر . . وهي سمرة يتميز بها شباب
جنوب اليونان وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط . . وقد حاولت أولاً أن
أجاهل هذا الشاب ولكنه ظل واقفاً أمامي حتى اضطرت أن أرفع عيني إليه
والتفت بابتسامة حلوة بين شفتيه شدة ابتسامتي إليه . . وقال وكأنه يعرفني
من زمان :

- سيدتي . . منذ أيام وأنا أدرك لا تفعلين شيئاً إلا القراءة في الكتب . .
إنك تستطيعين القراءة في أي بلد ولكن جزيرة رودس ليست مخصصة للقراءة ، إنها
جزيرة تستطيع أن تعطى أكثر مما يعطى أي كتاب . .
وكان يتكلم بالإنجليزية وبلهجة إيطالية .
وقلت وابتسامتي تنسج بلا افتعال كأنني فرحة بهذا الجمال الذي يعرض نفسه عليّ :

- إني لا أستطيع أن آخذ شيئاً من رودس قبل أن أنتهي مما يعطيه لي هذا الكتاب ..

قال وهو ينظر إلى الكتاب بين يدي في زهق كأنه ينظر إلى منافس خطير :

- هل يأخذ منك وقتاً طويلاً ؟

قلت :

- إني أقرأ في قصة قصيرة .

قال :

قد تأخذ منك ساعة ..

قلت :

- ربما أقل ..

قال وعينه مركزتان على وجهي كأنه يحاول أن يكتشف مصيره معي :

- هل أعود إليك بعد ساعة .. أقصد نصف ساعة ؟

قلت وقلبي يضحك :

- حاول ..

قال في إصرار وكأنه انتهى من تحديد مصيره :

- سأحاول ..

وابتعد عني وعيناي تجريان وراء قوامه المشوق المرسوم بخطوط فنان وتتعلقان بشعر رأسه .. إنه لا يطلق شعر رأسه بلا حساب كما هو موضحة الشبان هذه الأيام ولكنه يضعه في قالب معتدل يتفق مع ملامح وجهه ، وهو ليس شعراً ناعماً لأمعاً ولا شعراً خشناً غامقاً ، ولكنه شعر متموج في لون الساعات الأولى من الغروب ، وأحسست إحساساً قوياً بأنني أريد أن أمد يدي وأغرز أصابعي بين خصلات شعره .. وطبعاً قاومت هذا الإحساس ورفعت كتابي أمام عيني أحاول أن أهرب منه وأعود

إلى القراءة ..

ومنذ بدأت أتعتمد على القراءة ملء الفراغ الواسع الذي أتعرض له في كثير من

أيامي ، وأنا لا أقرأ إلا القصص .. القصص الطويلة والقصص القصيرة ..

ولا أحس وأنا أقرأ القصص بمجرد التسلية وتضييع الوقت ، كما لا أحس بأنني

مقط أتنقل لأعيش في الخيال ، بل أحس وأنا أقرأ قصة كأنني أقرأ دراسة اجتماعية ..

إن القارئ يستطيع أن يتعرف على كل طبائع الشعوب وكل مميزات الشخصية

الإنسانية من خلال القصص التي يكتبها كتاب كل شعب .. ولذلك أصبحت

هوايتي أن أجمع القصص التي تكتب في كل بلاد العالم .. قصص روسية

وقصص يابانية وقصص هندية و .. و .. بل أني قرأت أيضاً قصصاً كتبها

كتاب من غانا ومالي وكوبا .. وأصبحت أحس كأنه من السهل على أن

أكتشف شخصية أي إنسان من أي بلد في العالم ، حتى هذا الشاب الذي وقف

أمامي .. ألبرتو .. إني أعرفه من خلال قصة قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات

كتبها كاتب ألماني بعنوان « قيمة الحب عشرة » وبطلها شاب احترف اصطلياد

السائحات العجائز الإنجليزيات والأمريكيات ويعطين كل ما يطلبن من متع نظير

أجر غال ، واتسعت أعماله إلى حد أنه افتتح بيتاً كاملاً مخصصاً لاستقبال عجائز

النساء ، واتسعت شهرة هذا البيت في مجال السياحة في ألمانيا حتى أصبح يتردد

عليه النساء الصغيرات أيضاً ، وهو لا يخل أبداً بقواه كرجل يبيع الجنس ، ولكنه

بدأ يحس أنه في حاجة إلى بعض المقويات ، ثم لم تعد المقويات تكفي لتغطية

مطالب الزبائن فاستعان باثنتين من الشبان ليعمل معه داخل البيت ، ولكنه كان

دائماً هو المطلوب وهو صاحب الشهرة بين العجائز والشابات .. إلى أن أحب ..

أحب فتاة لا تعرف شيئاً عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة ،

وأحبها فعلاً بكل عقله وقلبه وقرر أن ينهى أعماله الخاصة بالساحات ويتفرغ للحب ، ولكنه عندما بدأ يعطى للحب .. عندما بدأ يمارس الحب .. فشل .. لم يستطع .. وكان يعود لممارسة مهنته مع سائحة عجوز قبيحة ، ثم يجئ إلى حبيبته معتقداً أنه استرد ثقته في قواه ولكنه يفشل .. واعتقد أن الحب يرفض أن يستجيب مع آله ، وهو قد حول نفسه وحجده إلى آلة لا تستطيع أن تعيش الإحساس الإنساني .. الإحساس بالحب .. فانتحر .. هذه هي القصة التي ذكرني بها ألبرتو وحكمت بها عليه .. إنه هو أيضاً بصطاد الساحات العجائز .. إنه يحترف مهنة يطلق على صاحبها لقب « جيجولو » وهي مهنة منتشرة في كل فنادق العالم ، وفي فنادق مصر أيضاً .. وحتى أمس كان ألبرتو في خدمة امرأة أمريكية ربما كانت في السبعين من عمرها ، ولعلها سافرت هذا الصباح وتركت رودس فجاء يعرض نفسه عليّ .. وأنا ..

هل أنا عجوز .. إني - بلا كذب - في التاسعة والخمسين من عمري ، ولن أعترف بأنني وصلت الستين عندما أصل إليها ، ولكنني محتفظة بقوامي ونضرة جلدي المشدود فأبدو كأني في الأربعين من عمري ، وصدقوني أني لم أجر عملية شد جلد وهي العملية التي أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقي في مصر .. أبداً .. وربما كان احتفاظي بنضارتي يرجع إلى هدوئي الدائم ، ورضائي عن نفسي ، ونجاحي العائلي .. نجاح زوجي ونجاح أولادي وبناتي .. إن النجاح في حد ذاته عملية تجميل تشد الجلد وتحفظ بنضارة اللحامات واتساق القوام .. لا ، إن ألبرتو لم يأت إلى لأني عجوز .. لقد جاء إلى لأني وحيدة .. إنه يراني منذ أسبوع في هذا الفندق وأنا وحيدة .. ووحدة المرأة هي إغراء طبيعي

للقدم إليها أي رجل .. الوحدة .. الفراغ .. إنها أكثر ما يهدد تصرفات الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة .. وأنا أغلب على وحدتي وفراغي بقراءة القصص ..

وعدت وفتحت الكتاب وحاولت أن أعيش في داخله كأني أحمي به نفسي من ألبرتو .. ولكنني لم أستطع .. إن ألبرتو أثار في نفسي إحساساً بأنني مظلومة في وحدتي ، برغم أنها ليست المرة الأولى التي أعيش فيها وحيدة وفي فندق وفي بلد أجنبي ، فمئذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أسافر كثيراً مع زوجي إلى أوروبا ، وسافرت معه مرات إلى أمريكا ، ومرة إلى روسيا ، وفي كل مرة كان ينتهي من عمله في العاصمة التي نقصدها ، ثم يقنعني بأنه في حاجة إلى السفر وحيداً إلى عاصمة أخرى ، وغالباً ما تكون لندن أو باريس ، وتنفق على أن أنظره في مدينة من المدن السياحية المعروفة .. وكنيت أقبل هذه الفقرة بيني وبينه في بساطة وفرح لأنه في الغالب كانت ابنتي أمينة وابني طارق معنا ، أو كانا يلحقان في في البلد التي نختارها وأقضى معهما أسبوعاً أو أسبوعين في انطلاق عائلي حلو إلى أن يلحق بنا عبد اللطيف ونعود جميعاً إلى مصر .. ولكن أمينة وطارق كبرا .. أمينة الآن زوجة وأنجبت ولدين ، وطارق يقيم في أمريكا .. ورغم ذلك فزوجي لا يزال يتركني وحيدة في كل مرة يسافر فيها إلى أن يعود إلى .. إنه في حاجة إلى عندما يسافر حتى يستكمل صفته الرسمية وحتى أكون بجانبه في الدعوات التي توجه إليه ، ولأنه لا يطمئن إلى أحد في حفظ أوراقه إلا إلي ، وقد أصبحت أعرف وأحفظ من هذه الأوراق أكثر مما يعرف هو نفسه .. ثم بعد أن تنتهي العملية يصبح وليس في حاجة إلى فيينكر الأعداء ليتركني ، وكان زمان يجسد في الأولاد حجة فهو يريد أن يدخلهما مدرسة في جنيف

أو يريد أن يلتحقا بالدراسة الصيفية في أكسفورد أو كامبردج ، أو يريد هما أن يتمتا بمصايف أوروبا ، ولكن بعد أن كبر الأولاد لم تعد هناك حجة تقنعني إلا أنه يريد أن يكون بعيداً عني ، وكنت أستسلم لما يريد .. ماذا يمكن أن يكون غرضه من هذه الفرقة المتعمدة .. أن يتمتع نفسه كرجل .. يذهب إلى هذا الصنف من النساء الذي يعطيه بالثمن .. لا يمكن أن يكون محمود مرتبطاً بأى علاقة جادة مع أى امرأة .. إلى أعرفه .. إنه يلعب أو يعطى نفسه إجازة زوجية ، وهو في حاجة إلى هذه الإجازة خصوصاً بعد أن وصلنا إلى هذه السن .. إنه الآن في الثانية والستين ولا يزال محتفظاً بكل رجولته .. إنني أعرف رغم إنني فقدت القدرة منذ سنوات على إثارة هذه الرجولة .. إن كل ما يحتاج إليه مجرد امرأة يدفع لها .. نفس الصنف الذي ينتمى إليه ألبرتو .. امرأة تباع نفسها .. ورجل يبيع نفسه .. ولكني لم أشعر أبداً بحاجتي إلى رجل من هذا النوع ولا من أى نوع آخر .. إنني عشت وحيدة في مصايف أوروبا وفي جزر البحر الأبيض .. في كابري .. وسيلسيا .. وكريت .. وجزر كناري في المحيط الأطلنطي .. أصبحت أنا التي تختار الملجأ الذي أعيش فيه إلى أن ينتهي زوجي من لعبه .. وأنا التي اخترت جزيرة رودس لمجرد أنها قريبة من أثينا التي كنا فيها للعمل ..

وفجأة وجدت ألبرتو واقفاً أمامي يقول من خلال ابتسامته الرزينة :

— هل انتهت القصة ..

ورفعت عيني إليه وطارق جديد يلح على عقلي .. لماذا لا أجرب .. ماذا سأخسر .. إنها مجرد تسلية تريحني من وحدتي وفراغي ومن قراءة القصص .. وقلت وأنا ابتسم له ابتسامة كبيرة :

الواقع أنها لم تنته ..

وربما شجعته ابتسامتي فمد يده وأخذ الكتاب من بين يدي وقال :

سأروى لك قصة أمتع مما تقرئين .. ومن يدرى ربما استطعنا أنت وأنا أن

نكتب قصة .. هل نكتبها بالعربية أم بالإيطالية ..

وقلت في دهشة :

— كيف عرفت أني أكتب بالعربية ..

قال وهو يشد مقعداً ويجلس بجاني :

— سألت .. لقد أخذتلك أولاً على أنك إسبانية .. إن ملامحك فيها كثير

ملامح الإسبانيات ولكني عندما سألت عرفت أنك مصرية ..

وقلت ضاحكة :

— وماذا عرفت أيضاً ..

قال كأنه يطمئني :

— لن أعرف أكثر مما تريدني أن أعرف .. المهم ألا تنبي الآن هنا .. هل

ذهبت إلى ليندوس ..

قلت :

— سمعت عنها ولم أذهب لأنني لا أحب الذهاب في أفواج سياحية ..

قال :

— ستكونين أنت وحدك فوجاً كاملاً .. إنك تساوين عشرين .. تعال ..

وبساطة تركت له يدي يشدني منها ويبقى محتفظاً بها ونحن نسير إلى خارج

الفندق ويدعوني للركوب بجانيته في سيارته .. إنها سيارة فيات صغيرة قديمة

ورغم ذلك فرحت وأنا أركبها كأنني أصبحت طفلة وجدت لعبة تلعب بها ،

أو ربما كانت هذه السيارة الصغيرة القديمة قد حررتني من كيانى الاجتماعى الذى يفرض على أن أركب السيارة البويك والمرسيدس الكبيرة الفخمة . . أصبحت حرة . . والطريق إلى « ليندوس » يعلو إلى قمة الجبل ويهبط إلى الوادى وكله مكسو بأشجار الزيتون وأشجار البرتقال والجمال من حولى يكاد يطير بى . . لا . . ليس مجرد الجمال . . لقد عشت قبل ذلك فى القمم والجبال وبين أشجار الزيتون والبرتقال ، ولكن هذه هى المرة الأولى التى أحس فيها بأنى أعيش مغامرة مع رجل غريب . . إن الإحساس بالمغامرة يجعل الإنسان يركز انتباهه أكثر إلى كل ما يمر به فيكشف مزيداً من الجمال . . ولكن . . لماذا أصبحها مغامرة . . إنها مجرد رحلة سياحية أقوم بها على حسابى الخاص ، وألبرتو ليس إلا دليلًا سياحيًا ترجمانًا . . وأنا مطمئنة إليه . . مطمئنة لأنى سيدة كبيرة . . عجوز . . لا يمكن أن يطمع فيها أى شاب كألبرتو . .

وهو لا يكف عن الكلام طول الرحلة . . إنه يجعلنى أضحك عندما يريد أن يضحكنى . . ويزيد معلوماتى عندما يريد أن يزودنى بمعلومات . . ويروى لى قصصاً مسلية تصلح ليضمها كتاب من الكتب التى أقرأها . . وقد اتبهرت فرصة سكت فيها وسألته :

— ألبرتو . . ماذا تعمل . . ما هو عملك ؟

ونظر إلى كأنه استسحف السؤال وتلعثم قليلاً ثم قال :

— أنا رجل أعمال . .

قلت :

— أى نوع من الأعمال ؟ . .

وأطال نظره اللوم إلى ثم قال :

— كل الأعمال تؤدي إلى نتيجة واحدة . . كلها محاولات لتحقيق سعادة الإنسان . . إن مدرس الأطفال يبيع السعادة للطفل بتعليمه . . والجرسون فى بار يبيع السعادة بتقديم الخمر للزبائن . . ورئيس الوزراء فى أى بلد يدعى أنه يبيع السعادة للشعب بتحقيق الحرية والرخاء . . وأنا أزاوِل أى عمل يحقق السعادة . . لا يهم نوع العمل . . المهم أن أكون سعيداً به وأن أسعد به غيرى . .

قلت :

— إنك تسعدنى فعلاً ، ولكن هل أنت سعيد بى ؟

قال :

— إنى الآن سعيد بالأمل فىك ولا يمكن أن يتحقق الأمل بمجرد نظرة أو مجرد لقاء . . إن الأمل يولد كالحنين ثم يأخذ فى النمو إلى أن يتحقق ويستكمل نفسه . . وأملنا أنت وأنا لم يولد إلا منذ لحظات ألا تسمعين صراخه . . واء . . واء . . واء . . وضحكت وعدت أسأله :

— هل تحقق الأمل بينك وبين السيدة الأمريكية التى كنت أراها معك . .

ونظر إلى وبين شفتيه ابتسامة كأنه يشفق بها على وقال :

— أراهن أنك سيدة بلا تجارب . . إنك تجعلينى أحس كأنى أول رجل فى حياتك ، بعد زوجك طبعاً . .

قلت كأنى أتبهه :

— إنك لم تدخل حياتى بعد . .

قال :

— أقصد أنى أول رجل غريب تلبين دعوته . .

قلت :

- هذا صحيح ..

قال :

- وهذا ما يجعلك تحاولين أن تعرفي كل شيء عني رغم أنني معروف في كل أوروبا تقريباً .. وهذا أيضاً ما يجعلك تغارين من السيدة الأمريكية .. جاكين .. و. وقاطعتي :

- إني لا أغار ولكني فقط أحاول أن أعرفك ..

قال :

- حتى محاولة معرفتي تجعلك كأنك طفلة صغيرة تختار تجربة لأول مرة ، فإن معرفتي لا تهم في أي شيء ، المهم هو اللحظة التي نقضيها معاً ، هل أنت سعيدة بها وهل أنا سعيد بها أم لا . ولكن .. لا يهم .. سأروي لك قصة جاكين .. لقد عرفتها منذ عشر سنوات في فينيسيا وكنت لا أزال في اولى تجاربي ، وكان لها فضل كبير على .. علمتني كل شيء .. ورفعتني إلى الحياة التي كنت أحلم بها .. قدمتنى إلى أرقى المجتمعات .. وعشت معها في أكبر الفنادق التي أصبحت الآن زيوناً دائماً بها .. بل إن أصحاب الفنادق يتنافسون على دعوتي للإقامة عندهم كما يتنافسون على استئجار الفرق الموسيقية أو الفنانين المشهورين .. وقد أخذتني جاكين معها إلى أمريكا .. إنها تملك أسهم إحدى شركات البترول في ولاية أوكلاهوما وعشت هناك أكثر من عام ثم لم أعد أطيع ، رغم كل ما كانت تحيطني به جاكين .. لقد اشتريت طائفة خاصة لأنتقل بها داخل أمريكا ، وكنت أطيّر بها إلى لاس فيجاس لألعب القمار وأخسر وجاكين تتحمل ، ورغم ذلك لم أعد أطيع .. وكانت كريمة فاتفقت معي على أن أعود إلى أوروبا وتأتي هي إلى كلما أرادتني .. لقد سافرت صباح اليوم .. ومنذ ثلاثة أيام ..

منذ رأيتك في الجرانند أوتيل وأنا مصمم أن أتقدم إليك بعد أن تسافر جاكين .. وأقول لك بصراحة .. لو عادت جاكين فسأضطر أن أعود إليها :

قلت وأنا مبهورة بالصراحة التي يتكلم بها :

- إنها كبيرة .. أكبر مني بكثير .. لعلك تحس بها كأم ..

قال في بساطة :

- لا .. أحس بها وأحبها كعمل .. إن الطبيب لا يهتم سن المريض ..

وأعتبريني طبيباً نفسانياً

ويزداد انبهارى بصراحة ألبرتو .. إنه لا يخفى شيئاً عن طبيعة عمله بل يتحدث كأخصائي فخور بتخصصه .. إنه لا يخدعني .. ولا يحاول أن يصل إلى شيء لا أعرفه .. إنه يقدم لي نفسه ويتركني أختار .. والسيارة القديمة الصغيرة تعلو وتهبط بنا بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وفجأة بدأت السيارة تهتز ثم عجزت عن السير وتوقفت ، وصرخ ألبرتو :

- هذا ما كنت أخشاه ..

ونزل من السيارة وفتح غطاء الموتور وبدأ يبعث فيه إلى أن عاد إلى التحرك .. وعدنا نقفز في طريق الزيتون والبرتقال ثم عادت السيارة وتوقفت ، ونزل منها ألبرتو قائلاً :

- إنها غلطى .. كنت أريد أن أشتري سيارة جديدة من روما وليس من هنا ..

ثم دار وفتح لي الباب قائلاً :

- سنضطر أن نسير كيلومتراً واحداً ونصل إلى قرية « مالونا » .. إن هناك أحسن نبيذ .. هل تستطيعين السير كيلومتراً واحداً .. أستطيع أن أحملك بين ذراعي لو أردت ..

وقفزت من السيارة في خفة كأني أحاول أن أثبت له شباهي ، وتركنا السيارة وراءنا دون أن يهتم ألبرتو حتى بإغلاق أبوابها ، وبدأنا نسير على أقدامنا بين أشجار الزيتون والبرتقال وقلت :

- ألا يستحسن أن تغلق أبواب السيارة ؟

قال وهو يأخذ يدي في يده :

- لم نعد في حاجة إليها .. ليأخذها من يريد ..

وسرنا حوالى نصف ساعة .. وكل ما حولي جميل .. والجمال في داخلي .. أحس كأني أعيش قصة بطلتها فتاة صغيرة خطفتها فارس أحلامها .. ولم أكن أحس بألبرتو بالذات .. ليس هو .. وهو إلى الآن مجرد شاب من الشباب الذين تعودت أن أقيسهم بعيني وأنا جالسة في مقاهي أوروبا .. ولكن ما أحس به هو ما يحيطني به ألبرتو .. هو الإحساس بالمغامرة .. بالشئ الجديد .. بالجمال الجديد .. جمال التحرر من كل ما عشت فيه من تقاليد .. وتوقف ألبرتو تحت شجرة زيتون قائلاً :

- استراحة لمدة عشر دقائق ..

ثم سقط على الأرض في ظل الشجرة وأسقطني معه .. ثم سكت عن الكلام .. وأخذ ينقل عينيه في أنحاء وجهي ، ثم مد ذراعه ووضعها فوق كتفي ، ثم قال في همس :

- أريد أن أحاول ..

وعيناي متعلقتان بوجهه والشمس وشعره المتموج في لون الساعات الأولى من الغروب ولكني حائرة .. لا أدري ماذا يريد أن يحاول .. ولا أدري ماذا أريد أنا .. ومال بشفتيه فوق عني ، ثم تسلل بهما فوق وجتي ، ثم أحسست بهما بين

شفتي .. وتجمعت شفثاي .. منذ أكثر من عشر سنوات لم أنلق قبلة بين شفثي .. زوجي عبد اللطيف كان قد استغنى عنهما كما يستغنى عن الحذاء القديم ، وأنا أيضاً .. شفثاي .. كانتا قد فقدتا الحاجة بالإحساس بالقبل .. ولذلك تجمعت شفثاي بين شفثي ألبرتو .. وهمس مبتسماً :

- إنك مازلت ساذجة .. أحس كأني يجب أن أعلمك كل شيء حتى

القبل ..

وشفثاي لا تزالان متطعتين إلى شفثيه كأنهما تستجديانه ألا يتركهما .. وعاد إليهما .. وتركهما له .. أطلقتهما من سجنهما الطويل .. ولكني وأنا قبله أحاول أن أتذكر كيف كنت أقبل قبل أن أجتاز سن القبل .. وكنت أخشى أن أفعل شيئاً منفرأ أو شيئاً لا يعجبه .. ولكن ألبرتو كان يتصرف بين شفثي وتصرف الأستاذ .. إنه يعلثنى القبل .. يلتق على الدرس الأول .. وتغلبت على نزعة كبرياء المرأة فأبعدت شفثي عنه قائلة :

- كفى يا ألبرتو .. دعنا نعد إلى السير ..

وقفزت واقفة ، وقفز معي وهو يبتسم كأنه يعلم كل أحاسيسي ، وبدأنا من جديد ، وبدأ يعود إلى أحاديثه كأنه يعزف لى الألحان بين أشجار الزيتون والبرتقال ..

إلى أن وصلنا إلى قرية « مالونا » ودخلنا هناك دكان بقال واستقبلوه بالتهليل كأنهم يعرفونه من زمان طويل ، وجلسنا لتناول طعام الغداء والنيذ ، وهو يقوم بين الحين والآخر ليبدل الأسطوانات فوق « الديستونك » .. وبعد أن انتهينا وقررنا أن نعود لنستأجر سيارة ونعود إلى « رودس » فتحت حقيبتي وأخرجت منها كل ما فيها من آلاف الدرخمات ومددت بها يدي من تحت المائدة إلى ألبرتو قائلة :

- ألبرتو .. أرجوك ادفع عني الحساب ..

وكنيت أعتقد أن هذا ما يجب أن أفعله بعد أن اعترف لى ألبرتو بعمله ..

ونظر إلى ألبرتو فى دهشة ثم ضحك ضحكة كبيرة وقال :

- ليس هكذا أيتها الطفلة الساذجة ..

ثم دفع الحساب من جيبه ، وأعتقد أنه كان سخيًا فى دفع البقشيش

فقد أثار فى الدكان كثيراً من التهليل وصيحات المرح .. وأكثر من ذلك ..

أخذنى إلى دكان فى القرية يبيع تحف السيراميك التى تشتهر بها رودس ،

واشتريت لى قطعاً غالية دفع ثمنها من جيبه ..

وركبنا السيارة التاكسى وأنا حائرة .. لا أدري كيف أحدد أسلوب التعامل

معه .. ترى كيف يتعامل زوجى عبد اللطيف مع النساء اللاتى يعطينه اللحظات

الحلوة ..

وقال ألبرتو :

- ضاعت منا « لاندوس » اليوم .. فالليل هناك بارد وهم ينامون بمجرد أن

تنام الشمس .. ولكننا سنذهب غداً أو بعد غد وبعد أن نجد سيارة جديدة ..

والتاكسى ينطلق بنا عائداً بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وألبرتو يضع ذراعه

فوق كتفى وأملت رأسى واسترحت بها فوق كتفه .. ثم رفعت يدى ودست

أصابعى بين خصلات شعره .. حققت ما كنت أحلم به منذ رأيت .. شعره

المتنوج فى لون الساعات الأولى من الغروب .. لم لا .. إني أعيش فى حالة

نسيان .. نسيان عمرى ، ونسيان زوجى وأولادى ، ونسيان مركزى .. إني

أعيش قصة ، ويبدو أن إدمانى قراءة القصص جعل منى امرأة مخمورة بقصة

تؤلفها وتعيشها ..

وكانت الساعة الرابعة عندما وصل بنا التاكسى إلى الفندق وتركنى ألبرتو

على أن ألتقى فى التاسعة .. إنه هو أيضاً الذى دفع أجر التاكسى وقد حاولت

أن أدفع أنا ولكنه عاد وقال مبتسماً :

- لا تكونى ساذجة ..

ومن الرابعة حتى التاسعة كنت أشبه بالمجنونة .. كنت كأنى أحاول أن

أخلق نفسى من جديد .. لقد دخلت الحمام ولأول مرة أهتم بأشياء مضت سنوات

طويلة لم أهتم بها .. إني أستعرض كل تفاصيل جسدى فى المرآة ، وأتحسس صدرى

لأطمئن إلى أنه لا يزال يحتفظ بشيء من تماسكه .. وساقى .. وذراعى .. وبطنى ..

لا شك أنى لا أزال محتفظة باتساق قوامى .. وبذلك فى الإستحمام مجهوداً

لم أتعود أن أبذله ، ولم أكن فى كل ذلك أفكر فى ألبرتو أو يخطر ببالى .. لم أكن

أعد نفسى له .. ولكنى كنت أعد نفسى لنفسى .. كنت أعيش شخصية جديدة

أريدها هكذا .. ثم قررت أن أذهب إلى الكوافير رغم أن شعرى ناعم وكنيت

قادرة دائماً على أن أعقسه كما أريد بلا كوافير .. وعندما بدأت أخترار الثوب

الذى سأبدو به بدأت أبحث عن مظاهر أخرى غير التى تعودتها .. لقد تعودت

أن أخترار ثوب المساء لأظهر به فى الدعوات الرسمية بصحبة زوجى ، أو فى

السهرات الاجتماعية بصحبته أيضاً وكنيت أنجه دائماً إلى الأزياء الحشمة العاقلة ،

وكنيت معروفة فى كل المجتمعات باتساق ذوقى فى اختيار ثوبى مع الاحتفاظ

بهذه الحشمة العاقلة .. ولكنى الليلة لست حشمة ولا عاقلة ، إني أفكر فيما

يكشف عنه الثوب أكثر مما أفكر فى الثوب نفسه .. ذراعى .. عنقى ..

وإبراز صدرى وخطوط ظهرى .. كل ما أنخيل أنه جميل منى أحاول أن أبرزه ..

ووقفت أمام المرآة معجبة ببطلة القصة التى أولفها .. ولكن .. ماذا

أحمل معي لألبرتو .. يجب أن أحمل له هدية تشجعه على أداء مهمته في
إسعادي .. هكذا تتطلب القصة .. وألبرتو ليس «جيجولو» رخيصاً يقبل
أن تدفع له المرأة حساب السهرة .. إنه محترف غالى الثمن .. وكنت قد اشتريت
من باريس علبة سجاثر ذهبية وللاعبة سجاثر كازيته هدية لأخى إسماعيل ..
سأعطيهما لألبرتو وأشتري لإسماعيل هدية أخرى ..

واستقبلني ألبرتو في هو الفندق كأنه بهر برشاقتي ولا أريد أن أقول جمالي ..
على الأقل بهر بجمال ثوبى وجمال إعدادى لنفسى .. وجلسنا نتناول العشاء
في صالة الفندق .. وأخرجت علبة السجاثر واللواحة وقدمتهما له قائلة :

- حتى لا تنساني ..

ولم يبد عليه أنه بهر بالهدية .. قلبها بين يديه وقال بلا حماس :

- ألف شكر .. كنت في حاجة فعلاً إلى علبة سجاثر وأفضل دائماً
ولاعات كازيته :

قالها ببساطة كأنه تعود على أن يتلقى مثل هذه الهدايا .. ثم بدأ يشير إهتمامي
بحكاياته ونكاته ويقضى وقتاً طويلاً في اختيار أنواع النبيذ ، ويروى لى تاريخ
كل نوع .. وأنا لم أتعود أن أشرب من النبيذ ولكنه استطاع أن يجعلنى أشرب ..
لم أسكر ولكنى شربت .. وبين كؤوس النبيذ قال لى ألبرتو :

- غداً نذهب في رحلة بحرية بين الجزر .. وبعد غد نكون قد اشترينا
السيارة ونذهب إلى ليندوس .. خبرينى .. هل تفضلين المرسيدس أم الألفا روميو ..
وتوقفت عقلى لحظة عند هذه الكلمة .. ماذا يقصد .. ولكنى بسرعة
تجاهلت كل ما يخطر على بالى مما يقصده ، وقلت :

- ألفا روميو تليق بك .. والمرسيدس تليق بى .. إن فرق السن يتحكم

أيضاً في أنواع السيارات ..

وقال كأنه غضب :

- لا تتكلمى عن السن مرة أخرى .. تعالى .. سأثبت لك أن لا فرق

بينى وبينك ..

وقام من حول مائدة العشاء وقمت معه ، وفي هذه المرة لم يدفع الحساب ، قيد
الملغى في حسابى بالفندق ، ويبدو أن الجرسونات في هذا الفندق وهو أكبر فندق
في المدينة تعودوا كلما رأوه مع امرأة من النزلاء أن يضيفوا الثمن على حسابها ..
وقلت وأنا ألحق بخطواته السريعة :

- إلى أين ؟

قال :

- صبرين ..

قالها وكله ثقة في نفسه وكأنه تملكنى وكأنى استسلمت له .. ثم توقف برهة
عند مكتب البواب وطلب مفتاحاً ، ونظر البواب إلى وابتسم ابتسامة لم أرتع لها
ثم أعطاه المفتاح ، ثم أدخلنى معه في المصعد وضغط على رقم الطابق الرابع
إنه نفس الطابق الذى أقيم فيه .. ثم سار بى في نفس الممر الذى يؤدي إلى
حجرتى .. ووقف أمام حجرتى فعلاً .. الحجرة ٤٤٤ .. وفتح بابها بالمفتاح ..

وقلت كأنى أصرخ :

- كيف أعطوك مفتاحى ؟

قال :

- لقد كنت معى ..

قلت :

- لم أحملك تطلب مفتاحي ، ولو سمعت لاعترضت ..

قال في ثقة :

- لا أظن ..

ودخل الغرفة كأنها غرفته ، كأنه يعرف كل تفاصيلها وكل ما فيها ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب زجاجة « ليكير » من عصير التنعاع ، ثم جلس على الأريكة العريضة وشدني ليجلسني إلى جانبه ، وقال وهو يحتويني بعينيه الغامضتين وابتسامته الحلوة تكاد تلتقط شفتي :

- يا عزيزي .. إن العمر إحساس .. وأنا أحس بك الآن كأنك فتاة في الرابعة عشرة ، وأحس بنفسى كأني وحش في الأربعين قرر أن يفترسك .. وأنت .. أنت في حاجة إلى هذا الإحساس .. الإحساس بأنك امرأة .. إن القدرة على الإحساس لا تضعف أبداً ولا تدبيل .. وقد بدأت أحس فعلاً ..

وبين كئوس العصير المسكر يشند إحساسى .. إحساسى بأنى امرأة وأن ألبرتو رجل .. وأنا قريبان جداً من الفراش .. وألبرتو يتحكم في بمهارة صناعى .. يجيد الصنعة .. لا شئ يبتنا سوى الصنعة .. المهارة في الإخراج وفي الوصول .. واكتشفت أنه لا شئ هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأى امرأة .. قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عن القدرة على الإنجاب ، ولكن ليست هناك أبداً سن تصل فيها المرأة إلى العجز عن الإحساس .. وقد كنت أعتقد أنى وصلت إلى سن اليأس منذ سنوات ، ولكنى الآن مع ألبرتو أحس بالمتعة كاملة .. أحس كأني أعيش في جسد تنبض كل خلجة منه بالحياة .. ليس في داخلي قطعة ماتت أو فقدت الإحساس .. وربما كان هذا هو سر ما كنت أعانيه

مع زوجى عبد اللطيف .. إنه يؤمن بما يسمى سن اليأس بالنسبة لى فتاهل إحساسى كل هذه السنين .. إنه ما تعانيه كل نساء الشرق عندما يصلن إلى هذه السن .. وقد حررتى ألبرتو من المعاناة ..

وتركنى ألبرتو عارية فوق الفراش .. قائلاً :

- سأراك غداً ..

وفى لحظة خلعت من أصبعى خاتمى السوليتير الذى يحمل فصاً ماسياً زنته ثمانية قراربط . وكنت قد اشتريته منذ أكثر من عشر سنوات بثلاثة آلاف جنيه وربما يساوى الآن ثلاثين ألفاً ، وأعطيته لألبرتو قائلة :

- بهه .. واشتر لنا سيارة ألفا روميو ..

وأخذته ألبرتو بعد أن قبل أصبعى الذى خلعته منه ..

إنه بمن غال دفعته للمفاجأة التى فوجئت بها .. مفاجأة أنى ما زلت أعيش إحساسى كامراً ..

ومهما كان الثمن الذى دفعته فلا يمكن أن يقاس بما دفعه زوجى عبد اللطيف خلال كل هذه السنوات وخصوصاً بعد أن تعدى الستين حتى يمارس إحساسه برحولته مع نساء أوروبا اللاتي يقدمن نفس ما يقدمه ألبرتو .. يقدمن متعة الإحساس .

ونمت ليلتها .. لعلى لم أنم بل أغمى على فقد كان ألبرتو قد استنزف كل قواى من ساعة أن قابلته فى الصباح حتى تركنى على فراشى بعد منتصف الليل .. واستيقظت فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر .. لا .. لم أستيقظ ولكنى فزعت ناغرة من فوق الفراش كأن ناراً مستهى ، وكل ما حدث أمس ينطلق فى رأسى .. كيف استسلمت لكل هذا .. إن هذا الصنف من المحترفين أمثال

ألبرتو أعرفه وأسمع عنه منذ زمان ولكنى لم أستسلم أبداً .. بل لم يكن يحظر على بالى التعرض لمثل هذه التجربة .. وزوجى إنه يعيش حياته الخاصة منذ سنوات وقد احتملتها دون أن أحاول أبداً أن أعطى لنفسى الحق فى حياة خاصة بى انتقاماً منه أو رداً عليه .. ثم مركزى وقيمتى فى المجتمع المصرى والعربى والأوروبى إن المركز والقيمة لا يصنعهما ما يعرفه الناس عنك ولكن ما تعرفه عن نفسك .. وما أعرفه عن نفسى الآن يهدم مركزى وقيمتى .. وأولادى .. يا خبر .. كيف أواجه أولادى وأحفادى وفى صدرى خطيئة كبيرة أخفيها عنهم .. إن الإحساس بأنى أخفى عنهم شيئاً يضعفنى أمامهم .. يجعلنى أستسلم لأخطائهم .. لو وقعت ابنتى أمانة فى خطيئة ماذا أقول لها وأما وقعت فى نفس الخطيئة .. والله .. ماذا يفعل بى الله .. إنه قد يغفر للرجل ، بل منحه الحق فى الزواج من أربع حتى يحميه من الخطيئة .. أما المرأة فهو لا يغفر لها بسهولة ولم يمنحها شيئاً تحمى به نفسها إلا إيمانها به واستسلامها لحكمته .. قد يصب غضبه على فى صحتى ، أو فى أولادى ، أو فى زوجى .. يارب كن غفوراً .. احمى من غضبك .. وقررت أن أقوم وأطهر وأصل .. ولكن هذه الحجرة كلها لم تعد تصلح لأداء صلاة .. إنها موقع الخطيئة ..

وتعذبت ساعات طويلة حاولت خلالها أن أقنع نفسى بأن ما حدث ليس شيئاً كبيراً ولا غريباً ، وأنى يجب أن أتححر من التقاليد القديمة وأعيش المجتمع الحديث .. إن فى الجزيرة عشرات من الرجال من أمثال ألبرتو وكل منهم يبيع بضاعته لسيدات كلهن فى سنى وأكبر منى وكلهن من عائلات كبيرة ثرية .. بل حتى المجتمع العربى .. كثير من السيدات المحترمات يتعاملن مع أمثال ألبرتو كلما خرجن من بلادهن .. بل إن سوق النساء العربيات أصبحت هى

السوق الرائجة لصناعة ألبرتو .. بل ربما كان ألبرتو لم يخترنى ليلقى على شباكه إلا لأنه أعرف أى عربية ، وأقيم فى هذا الفندق فأنا ثرية .. ثراء بترولى .. وقد وقعت فعلاً ربما أكثر مما تدفع سيدات البترول ..

وبقيت فى غرفى حتى المساء لم أطلب شيئاً أكله ولا حتى كوب ماء .. ثم برزت إلى بهو الفندق فى المساء وقد قررت أن أنسى أى علاقة بألبرتو ، ولا مجرد سلام ..

ووجدته أمامى كأنه كان فى انتظارى .. وقلت له فوراً :

— أسفة مسيو ألبرتو .. إنى متعبة وفى حاجة لأن أبقى وحيدة ..

وقال فى هدوء وابتسامته الحلوة تنطلق إلى شفتى :

— هذا ما كنت أنتظره .. فإنى أعرف أنك مازلت مبتدئة ..

وابتعد عنى ..

وعينائى تجريان وراءه وإحساسى يأخذ فى التحرك .. إحساسى بأنى امرأة

إنى أريده .. إن ما تركه فى ليلة أمس لا يمكن أن أتخلص منه بمجرد قرار ..

إنى أحس بكل قطعة من جسدى فى لهفة إليه .. شفتائى .. صدرى .. ساقى ..

لقد أصبحت .. أصبحت مريضة .. ولئن أقاوم مرضى وأنا وهو فى مكان واحد ..

وبسرعة انجذبت إلى مكتب الفندق وحجزت مقعداً فى الطائرة التى تنجس إلى

أثينا صباح الغد .. وما كدت أبتعد عن المكتب حتى وجدت ألبرتو أمامى يقول

فى صوته المنغم الهادئ :

— هل تسمحين أن أصحبك إلى المطار .. هناك شئ يبق دائماً ولا يكلف

شيئاً .. وهو الصداقة ..

وأجبت وأنا أهرب من إغرائه ومن ضعفى :

- نعم . . نعم . . أراك في المطار . .

وعدت أجزى إلى غرفتي دون أن أتناول طعام العشاء ، وخفت أن أموت لو نمت دون أن أكل فطلبت قطعة من الساندوتش وكوب ماء . .

ولم أنم ليلتها . . أتعذب في صراع بين ما يريده هذا الإحساس الذي أثاره في ألبرتو ، وبين تصميمي على أن أعالج نفسي من هذا الإحساس . .

وفي الصباح لم ينتظري ألبرتو في المطار ولكنه انتظري في بهو الفندق ، وقام بكل الإجراءات الخاصة بنقل حقائتي ونصفية حسائي ثم وضعني في سيارة يقودها . ليست السيارة القديمة وليست جديدة ، وقال :

- إذا التقينا مرة ثانية سركبين ألفا روميو . .

وكل ذلك دون أن يحاول إقناعي بالعدول عن السفر . . لم يطلب شيئاً أبداً . . كأنه فعلاً طبيب يحد أن العلاج الوحيد للحالتي هو أن يتركني أتخذ القرار بنفسى . .

وقبل أن أتركه في المطار أعطاني بطاقة تحمل اسمه وعنوانه . قائلا :

- إنه عنواني في روما ولكنهم من هناك يستطيعون أن يتصلوا بي في أى مكان أنا فيه . . إذا احتجت إلى . .

ورفعت عيني إليه ولم أتكلم . . ولا حتى كلمة وداع . .

وجريت إلى الطائرة . .

وفي أثينا اتصلت بزوجي عبد اللطيف في لندن وطلبت منه أن يأتي إلى في اليوم نفسه . . ولكنه لا يستطيع أن يترك لندن قبل يومين ، فقلت له إنى مريضة وسأعود غداً وحدى إلى القاهرة . .

وعدت . .

لعل أنسى وأشئ من إحساسى بأنى امرأة . .

* * *

بعد ستة شهور قرر زوجي عبد اللطيف أن يسافر إلى برلين في عملية جديدة ، وأبلغني الخبر كان المفروض أن أسافر معه ولكنى صرحت دون أن أتعهد الصراخ وكأنه فاجأني بشيطان مخيف :

- لا . . لن أسافر . .

وقال في دهشة :

- لماذا ؟

قلت :

- لأنى زهقت من السفر ولم أعد أحتمل

قال :

- ولكنه عمل . . والعمل في حاجة إليك وأنت تعرفين أنك عندما تكونين معى فإن ما يمكن أن أصل إليه في شهر أصل إليه في يوم . . إن الزوجة تفتح دائماً أبواب المجتمع الجاد أمام زوجها . . عندما تكونين معى ندعى إلى جلسات عائلية وتتعرفين على زوجات الآخرين وهذا هو أقصر طريق لنجاح العملية . . وعندما أكون وحدى أدعى في النوادي الليلية وفي المكاتب . . وكل واحد من الآخرين يتمنى أن أكون وحدى حتى يستغل ضيافتي في السهر بعيداً عن زوجته ولكن هذا الأسلوب يعطل العملية ويفتح مجالات كثيرة غير محترمة . . وأنت تعرفين كل ذلك وأنا أعرف أنك تمنين لى النجاح . . ولن أنجح بغيرك . .

وكتت فعلاً أعرف كل ذلك . . ورغم أنى حاولت كثيراً أن أقنعه بإعفائى من صحبته إلا أنه أصر واضطرت أن أقبل ولكنى قلت :

- فى شرط واحد .. ألا تركنى وحدى .. غير مسموح لك بأجازة زوجية ..

وقال مستريحاً :

- موافق .. ولا دقيقة وحدك ..

وسافرنا ..

وتمت العملية ..

وفى نفس اليوم بدأ عبد اللطيف يقتنعى بأنه مضطر أن يسافر إلى لندن وحده ، وصرخت :

- خذنى معك ..

قال :

- ليس هذا فى صالح العملية .. إني سألتقى هناك بشخصيات عربية والعرب لا يصحبون زوجاتهم .. العمليات معهم تتم فى النوادى الليلية والكباريات كما تعلمين ..

وكنت أعلم ، ولكنى أعلم أيضاً أن ما يسعى إليه عبد اللطيف ليس لقاء الشخصيات العربية ولكن الارتواء فى حياته الخاصة ، وقد أصر على السفر وحده ، وقلت له إني سأعود إلى القاهرة غداً أو بعد غد ..

وسافر زوجى ..

وكنت وحيدة فى غرفتى بالفندق ، ووجدت نفسى أبحث عن البطاقة التى تحمل اسم ألبرتو ، وكنت أحفظ بها كنوع من التحدى لنفسى .. نوع من إقناع نفسى بأنى لا أخرب ولكنى أقاوم .. وقلبت البطاقة فى يدى وابستمت ابتسامة ساخرة .. أسخر من نفسى ..

وطلبت روما بالتليفون ، وردَّ على صوت نسائى ناعم ، وسألت عن ألبرتو ، وقالت :

- إنه فى اسبانيا .. مايوركا .. احتفظى بالخط سآحول لك المكالمة .. وسمعت صوت ألبرتو ..

وقلت فى هدوء :

- ألبرتو قابلنى فى سان موريتز .. غداً ..

❖ یا أنت .. دعنی لغروری ❖

أنت ..

لعلك تسألني لماذا انقطعت عنك طوال هذه الشهور .. والواقع أني لم أنقطع عنك وحدك ولكني انقطعت عن كل أصدقائي خارج لبنان ، ربما لأنني فقدت ثقتي بنفسى إلى حد أني لم أعد أستطيع أن أواجه أحداً حتى ولو بمجرد تبادل الخطابات أو التحدث في التليفون ..

وأنت تعلم كم كنت مغرورة بنفسى خصوصاً عندما أكون خارج لبنان .. كنت أقف من نفسى أستاذة على كل مجتمع أجد نفسى فيه ، وأعطى لنفسى الحق فى توزيع الدرجات على طلبة علم التقدم الحضارى .. وأنا - أستاذة علم التقدم الحضارى - لم أكن أقدر مستوى أى طالب فى أى بلد عربى بأكثر من صفر .. وأنت وحدك كنت أمنحك درجتين من عشر درجات ربما لأننى التقيت بك وأنا مازلت طفلة لم أتكمل بعد كل عناصر الغرور .. الجمال .. والذكاء ، والثراء المكتسب بالعمل لاثراء الصدقة الذى تحققه آبار البترول ، ثم قوة الجذب فى كل المجتمعات العالمية التى حققت لى نجاحاً لا تحلم به أى فتاة أخرى .. كل هذا خلق لى الشخصية التى كنت أعتر بها .. شخصية الأستاذة .. شخصية العبقريّة .. الشخصية التى كانت تمنحني

الحق في أن أوزع نصائحي على كل من أقابله ، وأتصور كل يد تمتد إلى
كأنها تستغيث بي لأنقذها أو لأسد حاجتها ..

وقد ضاع كل شيء ..

ضاع غرورى ..

أصبحت كلما التقيت بأحد يخيل إلى أنه ينظر إلى نظرة إشفاق لا نظرة
الإعجاب التى تعودتها .. وكلما مددت يدي لمجرد المصافحة أحس بأنه
يستقبلها كأنها يد تستغيث به وتستجديه .. فإذا تحدث كان حديثه كله دروسا
ونصائح كأنه هو الذى أصبح أستاذا وأنا التلميذة الفاشلة الغبية التى لا تساوى
أكثر من صفر ..

وقاومت ..

قاومت نفسى حتى أظل محتفظة بشخصيتى المغرورة ..

ولكن ..

لا أمل .. لم تعد هناك وسيلة للاحتفاظ بهذه الشخصية إلا أن أنزل بها ..
انعزلت عن كل الناس الغرباء وقد أصبح كل من ليس لبنانياً غريباً عني
لا يعيش إحساسى ولا يتكلم لغتى ولا يفهمنى .. حتى أنت .. وكانت خطاباتك
تصلنى فأقذف بها بعيداً وأنا أحاول أن أفتح نفسى بأنى أتعلى عليك . وعندما
تتحدث فى التليفون أنكر نفسى عنك كأنى أرفضك ، لعل بهذا التعالى والرفض
أستطيع أن أحس بأنى مازلت محتفظة بشخصيتى المغرورة ، وإن كان الواقع
هو أنى كنت أخاف هذه الخطابات وهذه المحادثات التليفونية لأنى أعلم أنها
لا تحمل إلا مجموعة من النصائح التافهة والاقتراحات الفارغة التى تشيع بها
إحساسك بأستاذيتك وترضى بها شهوة الشماعة ..

الشماعة ..

إنى أعيش فى إحساس بأن العالم كله شامت فىنا .. كل فرد من بنى البشر يتلذذ
بما يحدث لنا .. يتلذذ بدمائنا التى تغرق الشوارع ، وكياننا الذى يهدم ،
وصراخنا الذى يشق قلوبنا .. وقد يذرف العالم دموعاً شفقة علينا ، ويلف كراحت
أسود حداداً على قتلانا ولكن وراء هذه الدموع وهذا الكراحت فرحة فى القلب ..
فرحة الشماعة .. فرحة سوداء .. وربما كانت شماعة الإنتقام من سنوات الغرور
الذى عشنا نصبه على العالم .. شماعة التخلص من السيطرة اللبنانية التى لم تكن
تعتمد على شيء إلا على الذكاء الغرورى . شماعة إنتصار الشيء على اللاشيء ..
وقد كنا لا شيء ، ورغم ذلك كنا نسيطر على كل العالم العربى إلى أن انتصر
علينا شيء .. شيء مجهول .. وربما لأنه مجهول فقد انتصر .. فالمجهول
هو الله ..

ولعل الشماعة التى أحسست بها يوماً كأنها سكين تذبحنى هى شماعة هذه
المرأة التى تدعى ايفيت .. أنت تعرفها بل أنت الذى قدمتها إلى دون أن تدري ..
فايفيت مصرية مسيحية يسرى فى عروقتها دم أجنبى لا أدرى أهو دم أرمنى أم جريكى
أم فرنسى ، المهم أنها قدمت إلى نفسها عندما جاءت إلى بيروت على أنها مصرية ..
وأنت الذى عودتنى على أن أحس بمسؤوليتى عن كل فتاة مصرية تصادفتى ..
أحبها لمجرد أنها مصرية ، وأعطيتها لمجرد أنها مصرية .. ربما لأنك يوماً ما كنت
مسئولاً عني .. مسئولاً عن تكوين عقليتى وفكرى .. كان عقلك المصرى هو
الذى هذب عقلى اللبناني .. ولهذا تعودت أن أرد لك الجميل فى كل ما هو مصرى ..
وكانت « ايفيت » تبدو مسكينة ، غلبانة ، رغم أنها جميلة .. وعرفت أنها من عائلة
كانت غنية فى مصر وكان أبوها يمتلك مصنعاً للرخام ، ثم فرضت عليه الحراسة ،

وضاعت كل أمواله ، ورغم ذلك بقي في مصر وبقيت «إيفيت» معه ، تحاول أن تغطي حرمانها بأن تكتسب صداقة بنات وأولاد الطبقة المصرية الجديدة كما حاولت أن تكتسب صداقتي عندما جاءت إلى بيروت بصحبة بعض صديقاتي المصريات . . . ولا تدري ماذا فعلت لإيفيت . . . إني منذ اليوم الأول أقمت من نفسي أستاذة عليها بحكم غروري بنفسى ، وبدأت أقدمها لمجتمعات بيروت الراقية . . . وحتى تشرقني في هذه المجتمعات كنت أشتري لها الفساتين ، وأعطيتها من عندي الجوارب وأدوات المكياج . وأرسلها إلى حلاقى الخاص ليساوى شعرها ويرسل لى بفاتورة الحساب . . . وكانت هى تقدر كل ذلك وكانت حريصة على أن تحتفظ لى بغرورى . . . وضعت نفسها كسكرتيرة لى . . . دائماً تتأخر عني بخطوة إلى الوراء ونحن ندخل أى مجتمع . . . وقد تدهش لإحساسى بقيمة هذه المظاهر رغم أنى فتاة مازلت في الثانية والعشرين من عمري ولا يهمنى أن أظهار بسكرتيرة أو بدلدولة تسير خلفي . . . ولكن هكذا أنا . . . أو ربما هكذا لبنان . . . الغرور الحضارى . . . أو ربما كانت هذه هى عقدة اللاشيء . . . فإن اللاشيء يظهر بأنه شيء . . . ونحن لا شيء . . .

ولا شك أن إيفيت حققت نجاحاً في مجتمع بيروت . . . ولأنها مسيحية فقد تخاطفها الشبان المسلمون . . . فهذه هى أيضاً عقدةنا في لبنان . . . الشاب المسلم يهيم أن يستولى على فتاة مسيحية ، والشاب المسيحي يهيم أن يستولى على فتاة مسلمة . . . مجرد شهوة طائفية . . .

وكانت إيفيت حريصة على أن تقدم لى كل يوم تقريراً عن كل علاقاتها مع المجتمع أو مع أى شاب . . . كأنها تستأذنى ، أو كأنها تقنعنى بأنها لا يمكنها أبداً أن تستغنى عني . . . وكانت دائماً تأخذ بنصائحي . . . كنت أطلب منها أن تعتذر

من دعوة ، فتعتذر ، أو أنصحها بأن تقاطع شاباً من الشبان فتقاطعه . . . وكان كل ذلك يجري في إطار من الصداقة الحلوة وإن كان فيه ما يرضى غرورى وفيه أيضاً ما يدفعنى إلى الاستمرار في تحمل مسئوليتها . . .

إلى أن تعرفت إيفيت بشاب من أثرياء الصدقة - أقصد أثرياء البترول - واستمرت في هذه الصداقة مع موافقتي إلى أن عرض عليها أن يأخذها معه إلى شواطئ الريفييرا ونصحها أن تقبل بعد أن قضيت ليالى أشرح لها كيف يمكن أن تحتفظ به . . . إنها لن تحتفظ به إلا إذا احتفظت بشيء لم يأخذها منها . . . أنا أعرف هذا . . . أنا أستاذة التقدم الحضارى . . . أنا المغرورة . . .

وسافرت إيفيت وبقيت حريصة على أن تكتب لى . . . إلى أن بدأت الأحداث في لبنان . . . حدث كل هذا الذى حدث . . . وبدأت نوبة الضياع وفقدان الثقة في نفسى تزحف على صدرى ، وفكرت أن أسافر إلى أثينا في اليونان لأرتاح . . . وكنت أعلم أن إيفيت هناك . . . لم أقرر السفر إلى أثينا لأنها هناك بل لأنى تعودت أن أرتاح هناك . . . أى أنى لم أكن في حاجة إلى إيفيت . . . لا يمكن أن أحتاج إليها أبداً . . . ولكن لأنها هناك فقد شرقتها بأن أرسلت لها بريقة بموعد وصولي . . . ووصلت أثينا ، ولم أجد إيفيت في الانتظارى ، ولكنى وجدت سائق سيارة يحمل لافتة مكتوباً عليها اسمى ويطوف بها بين الناس . . . إن إيفيت لم تأت لاستقبالى ولكنها أرسلت لى سيارتها . . . ما شاء الله . . . والله عال يا ست إيفيت . . . ورغم ذلك كنت السيارة وأنا أقول للسائق في لهجة أحاول أن أعبر بها عن كل غرورى :

- أوتيل هيلتون . . .

وقال السائق في برود :

- السيدة تنتظرك في البيت . . .

يا سلام سلم .. جناب السيدة إيفيت تنتظري في بيتها .. ولا أدري لماذا
سكت وقبلت .. ربما تغلبت على عقلية الدبلوماسية اللبنانية .. عقلية إدارة
الأعمال .. أن تأخذ كل زبون وفقاً لشخصيته ..
واستقبلتني إيفيت وفي عينيها نظرة كأنها تستقبل بها فتاة مسكينة فقيرة مشردة ..
خيل لي أنها نفس النظرة التي استقبلتها بها أنا عندما جاءت من مصر وهي
مسكينة فقيرة مشردة ..
وقبلتني إيفيت كأنها تقبل صديقة مريضة راقدة على سرير في المستشفى ..
أو ربما كانت قبله أشبه بالقيش تحسن به على فتاة شاذة .. وقالت وهي
تبسم لي ابتسامة ضعيفة خيل لي أنها محاولة فاشلة للمدانة شامتاً في :
- كنت أنتظرك من مدة .. وقد خصصت لك غرفة في البيت .. قد لا
تكون على قدر غرفتك في بيروت ولكنها على الأقل غرفة في بيت ..
قلت وأنا أنظر إليها في دهشة :
- لقد حجزت في الهيلتون ..
قالت كأنها أصبحت مشوشة عني :
- لماذا الهيلتون .. كوني واقعية .. وأقیمی معي هنا .. وقد دبرت لك
كل شيء ..
قلت وقد بدأت أواجهها في سخط وتحد :
- أفضل الهيلتون ..
قالت وهي تنظر إلي في تعجب :
- لا تكوني عنيدة ..
وابتسمت كأنني أخفف عن نفسي ألم الجرح وقلت محاولة أن أحلها بنفس

الأسلوب الذي تعودت أن أحادثها به في بيروت :
- المهم .. كيف حالك مع صديقك .. احكي لي بالتفصيل ..
وقالت وهي لا تزال واقفة أمامي كأنها أستاذتي :
- ليس هذا مهماً .. المهم هو أنت .. إننا سقيم في أثينا مدة طويلة .. و ..
واقطعنا في حدة :
- لن أقيم هنا إلا بضعة أيام ..
قالت في دهشة :
- ثم إلى أين ؟
قلت :
- العودة إلى بيروت طبعاً ..
قالت كأنها تصرخ :
- هل أنت مجنونة .. بيروت انتهت .. صديقي .. دبري أمرك من
اليوم واتركي لبنان ..
فقلت وأنا أنتفض أمامها :
- أنت المجنونة .. لم ينته شيء .. وأنا لست هنا كمهاجرة .. ماذا
تصورين .. هل أصبحنا كالفلسطينيين كبت علينا الهجرة من بلادنا ..
إن فلسطين أخذها اليهود أما لبنان فلا تزال لنا حتى لو عشنا فيها يقتل بعضنا
بعضاً .. واسمعي .. كوني معي كما تعودت أن تكوني .. لا شيء تغير ..
ونظرت إلي وبين شفيتها ابتسامة ساخرة تفصح شامتاً :
- أعتقد أن كل شيء تغير ..
وخطوت نحو الباب كأنني أجرى منها قائلة :

- سأذهب إلى الفندق .. اتصل بي هناك ..

قالت وهي تجرى ورائي :

- انتظري ..

ومدت إلي يدها بكمية من النقود اليونانية ، وهي تقول :

- كنت قد دبرت كل شيء على أن تقيمي معي .. بل إنني اشتريت لك

ثوبين وحذاءين وأنا أعرف مقاسك .. ولكن ما دمت عتيقة وتريدين الإقامة

في فندق فقد تكونين محتاجة ..

وأمسكت النقود بين أصابعي كأنني أتحنس مجموعة من الديدان السامة ،

ثم ألقيت بها في وجهها بعنف وأنا أصرخ :

- قلت لك أن لا شيء تغير ..

ونزلت أجري على السلم وأنا أغل بالثورة في داخلي ..

إن الناس تظن أننا وصلنا إلى حد الإفلاس .. إنهم لا يعلمون أن سر ثراء

بيروت أنها لا تحتفظ بأموالها في داخلها .. إن ما في بيروت هي أموال العرب

وأموال الأجانب وكل أموال اللبنانيين خارج بيروت .. لا يحتفظ لبناني في

بيروت إلا ما يكفي حياته اليومية .. ولكن ثروته .. كثره .. دائماً خارج

بيروت .. ولذلك ، رغم كل هذا الدمار ، فنحن أقوىاء .. أغنياء ..

أقوى من شناعة الناس فينا ..

واعترضت لإيفيت عندما حاولت أن تلقاني في المساء .. قلت إنني متعبة ..

وفي اليوم التالي سافرت إلى جزيرة كورفو .. قضيت أياماً .. وحيدة .. أمتص

حبرتي وعذابي .. ثم عدت إلى بيروت ..

العودة دائماً إليها .. إلى بيروت ..

يا أنت ..

إنني لا أكتب لك لأنني في انتظار رأيك ولا استجداء لمواساتك ، ولكن

لأنني فقط تعودت أن أرتاح وأنا أكتب لك ، وأحس وأنا أطلعك على أسراري

كأنني ألقى بها في بحر لا قرار لها .. ولكن .. هل يمكن أن يكون في لبنان كله

ما يسمى سرراً .. لا أظن .. إن المجتمع اللبناني عندما قرر التعامل مع الواقع مهما

كان مضمون هذا الواقع ، أراح نفسه من نقل الأسرار .. ولكن الأسرار لها

طعمها ولذتها وكنت أتمنى دائماً أن يكون لي سر .. ولأنني لا أجد لي سرّاً في لبنان

فقد كنت أكتب إليك لمجرد إقناع نفسي بأنني أبوح بسر لرجل غريب يعيش

بعيداً عني ..

وحكايتي مع طوني منذ بدأت لم تكن سرّاً في لبنان حتى لو تظاهرت أمامك

بأنها سر خطير .. أطلعك عليه ..

أنا مسلمة .. وهو مسيحي .. ماروني ..

وعائلتي تقيم كما تعلم - أو كانت تقيم - في حي الأشرافية .. حي الأغلبية

المسيحية .. ثلاث عائلات إسلامية فقط تقيم في شارعنا والباقي عائلات مسيحية

معظمها ماروني .. ولم يكن لذلك أي أثر في مجتمع حي الأشرافية .. أو على الأقل

بين العائلات الكثيرة الغنية في الأشرافية .. كانت أعز صديقاتي هي عابدة

وهي مسيحية من الروم الأرثوذكس ونسرين وهي مارونية وفاتيما وهي بروتستانت .. و

.. كنا دائماً معاً وسهرات البيوت تجمعنا كلنا .. نرقص معاً .. ونضحك

معاً .. وقد تتنافس مسلمة ومسيحية على رجل واحد ..

ولم أعرف طوني وأنا صغيرة ، ولم يكن من أبناء الجبران ، ولكنني إلتقيت به

منذ عامين فقط خلال حفل ساهر أقامته إحدى عائلات الحي .. وفي خلال

أسابيع أحس كل منا كأنه مرتبط بالآخر إلى الأبد .. ولم تمض شهور إلا وكنت قد قررت أني لن أتزوج إلا طوئى .. كان المجتمع قد بدأ يستسلم لحبنا ولم يبق إلا الزواج .. وليس هذا جرماً فى المجتمع اللبناني .. مسلمة تتزوج مسيحياً .. حتى لو تزوجت السنة بالمارون .. وابنة زعيم لبنانى مسلم متزوجة من مسيحى سويسرى .. وابنة زعيم إسلامى آخر متزوجة من مسيحى فرنسى .. وكبير قضاة لبنان المسلم متزوج من مسيحية لبنانية .. وأحد أصدقائك مسلم متزوج من عائلة مسيحية معروفة ، وصديق آخر مسيحى مارونى تزوج من مسلمة .. وابنة مؤسس دولة لبنان المسلم اعترف المجتمع اللبناني بحبها الميحي وأصبح يستقبلهما على أنهما خطيبان رغم أنهما لم يعلننا خطبتهما ولا قررا الزواج .. ليس غريباً فى المجتمع اللبناني أن يتزوج المسلمون والمسيحيون .. ولم يكن غريباً أن أقرر الزواج من طوئى .. ولكن التقاليد فى لبنان ترفض أن توافق العائلتان على هذا الزواج .. ثم يتركان للثنتين حرية التصرف .. فإذا أعلن المسيحي إسلامه ليتزوج من مسلمة فرحت العائلة المسلمة وأقامت حفلاً صاحباً كأنها تعلن انتصارها بالاستيلاء على مسيحي وضمه إلى حظيرة الإسلام .. أما إذا راعى الاثنان عدم جرح عائلتهما فأنهما يسافران إلى قبرص وبيروجان هناك زواجاً مدنياً ، ويعودان زوجين لابلث المجتمع كله بما فيه عائلتهما أن يعترف بزواجهما ..

وكان فكرى يتجه إلى أن أتزوج طوئى زواجاً مدنياً لا لأنه رفض اعتنا الإسلام حتى يتزوجنى ، ولا لأنى رفضت اعتناق المسيحية لأتزوجها .. لا كان تفكيرى قائماً على اقتناع .. قائم على الارتفاع فوق الطائفية الدينية والإسلام - فى اقتناعى - حرم على المسلمة الزواج من غير المسلم كـ

لنشر الدعوة .. نشر الإسلام .. من يريد مسلمة فليسلم .. والإسلام فى لبنان لم يعد فى حاجة إلى دعوة ، فقد أصبحت أغلبية الشعب اللبناني مسلمة ، والمسيحيون يدخلون فى الإسلام أفواجاً على الأقل حتى يحصلوا على حق الطلاق من زوجاتهم المسيحيات .. ثم إنى أستطيع تقرباً إلى الله وتكفيراً عن أنانيتى أن أجعل من أولادى وأولاد طوئى مسلمين .. أفراداً فى طائفة الإسلام .. إنى واثقة أنى أستطيع ..

ولم يكن كل ذلك يعنى أننا ستزوج اليوم أو غدا .. فطوئى لا يزال فى الخامسة والعشرين من عمره ورغم أنه من عائلة مارونية ثرية إلا أنه لا يزال فى حاجة إلى وقت حتى يقيم لنفسه شخصية مستقلة ويستطيع أن يتزوج حتى لو تحدى أهله .. ليس قبل أن يصل إلى الثلاثين .. ورغم ذلك لم يكن التخطيط للزواج يتوقف بينى وبين طوئى .. إلى أن بدأت الأحداث ..

وقد بدأت وكأن لا شئ يمكن أن يحدث .. مجرد تعبير عن الرأى بطلقات الرصاص .. وفى كل يوم كنا نؤكد عن إيمان بأن كل هذا سينتهى غداً .. إن من طبيعة الشعب اللبناني التفاؤل ، وكان تفاؤل كل طائفة يجعلها تتصور أنها ستنتصر غداً .. ولكن لا شئ ينتهى .. وشوارع الأشرفية تزدحم بالشبان المسلمين ، وكنت أعرف أنهم من أفراد الكتائب أو من أفراد حزب شمعون، ولكنى عندما كنت ألهمهم فى الطريق كان يخجل إلى أنهم غرباء .. رجال آخرون غير رجال لبنان .. هذه النظرة التى يتطلعون بها إلى لم أصادفها أبداً من قبل .. وهذه الشفاه المقلوقة التى تكاد تطلق بصفة على وجهى لا يمكن أن تكون شفاهاً لبنانية .. وبدأ إحساس جديد يسيطر على كلما خرجت إلى

الشارع .. إحساس الخوف .. إننا لم نتعود الخوف في بيروت ..
والأحداث تزداد بشاعة .. القتل يسقطون في حيننا .. حتى الأشرفية ..
ورغم ذلك لم أكن أريد أن أعترف أو حتى أنصوّر أنها معركة بين المسيحيين
والمسلمين .. إلى ما زلت أتزاور وأتحدث في التلفون طول النهار والليل مع
صديقاتي المسيحيات .. وعندما يسقط أحد المسلمين قتيلاً نبكى عليه كلنا
وعندما يسقط مسيحي فربما يشتد البكاء أكثر لمجرد أنه يمثل أغلبية الحي ..
ثم طوفى .. إنه لا يزال حبيبي وسيبقى حبيبي .. بل إن أمي بدأت تتعلق به
وتكف عن رفضها له ، ربما لأنها أرادت أن تتخذ منه حماية لنا داخل الحي ..
مسيحي في بيتنا فلا يمكن أن يعتدى علينا المسيحيون .. ولكننا لم نكن نستطيع
أن نستمر في خداع أنفسنا أو التعلق بارتباط السنين الطويلة مع جيراننا المسيحيين ..
والمارون بالذات .. وصمم والدى على أن تترك الأشرفية .. أن نهاجر إلى حي
آخر نحمى فيه ونعيش فيه كمسلمين مع مسلمين .. وربما كان ما يدفع والدى
أكثر إلى الهجرة من الأشرفية هو خوفه على أخى ياسر .. إن أبى نفسه هادئ عاقل
يستطيع أن يتصرف بحكمة مع الأحداث .. وأنا وأختى وأمى لا خوف علينا ..
لا يمكن أن يصل الاعتداء إلى النساء .. ولكن أخى ياسر ، رغم عدم اتماه إلى
أى تنظيم من التنظيمات المتقاتلة إلا أنه شاب .. وهو جريء .. يهوى أن يعرف ويعرب
كل شيء بنفسه .. ومن يدرى .. لعله في خطوة يضيع ..
واستسلمت للهجرة بعيداً عن الأشرفية وبعيداً عن حبيبي طوفى من أجل
أخى ياسر ..
وكانت هذه هي الأيام التي سافرت فيها إلى اليونان لأستريح كما رويت لك ..
وقد عدت بعد أسبوعين .. ولم أصدق أذنى بما سمعته .. لا يمكن أن يحدث

كل هذا .. ويحدث في لبنان .. إنهم لا يكتفون بالقتل .. إنهم يشوهون
قتلاهم .. يمزقونهم قطعاً .. وهم يعتدون على البيوت .. يسرقون ويدمررون ..
كلهم .. كلهم .. ليسوا مسيحيين ولا مسلمين .. كلهم .. كلهم
وصدقتي أن الإحساس الذي كنت أعيش فيه هو أن كلهم ليسوا لبنانيين ..
ولا حتى سنة ولا شيعية ولا دروزاً ، ولا مارون ، ولا روم أرثوذكس ، ولا كاثوليك ،
ولا بروتستانت .. ولا .. ولا .. إنهم ناس غرباء لا نعرفهم .. جيوش جاءت
من الخارج واحتلوا مناطق محددة يتحاربون فيها ، بدليل أن خارج هذه المناطق
كل شيء هادئ .. إن أبى يمارس عمله .. وأخى يطير من بيروت إلى الكويت
ليباشر عملياته هناك ثم يعود في اليوم التالي .. وأمى لا تزال مهتمة بالمشخط
في أم نعيمه حتى يجيد تقديم اللبن والكبة .. وأختى تنتق ثوبها الذي سترور به
صديقتها .. أنا وحدى التي ستجن .. لقد اعتدى الغرباء على بيتنا في الأشرفية
وكنا قد تركنا فيه أئمن ما يملكه بيت .. تركنا الكثير لأننا كنا نتصور أننا لن
نغيب إلا أياماً .. السجاجيد العجمي ، وقطع الأوبالين ، وقطع من مجوهراتنا ،
وكل قطع ذكريات صباي وشبابي بما فيها السلسلة المرصعة بالفيروز التي كانت
أول ما أهداه لي طوفى .. وكل العائلة استسلمت لهذا الاعتداء .. استسلموا
لفقدان بيتنا .. أبى يحمد الله على أنه لا يزال يحتفظ بحياته .. وأخى يبصق
على الأرض ويؤكد أنه سيشتري لنا أكثر مما ضاع منا ، وأمى بكّت أياماً ثم
استطاعت أن تتناسى .. أنا وحدى المجنونة .. أعيش كأنه لن يكون
لنا أبداً بيت يعد بيت الأشرفية .. إن طوفى يستطيع أن يعيد لي بيتي .. إنه
هناك في الأشرفية .. ويستطيع أن يعيد لي البيت ..
ومنذ وصلت وأنا أبحث عن طوفى ولا أستطيع أن أجده ..

لم يعد أمامي إلا أن أذهب بنفسى إلى الأشرقية . . إلى بيتنا . . إنهم يعرفوننى هناك ولن يعتدوا على . . ثم إنى فتاة . . من يعتدى على فتاة عزلاء حتى لو كان من هؤلاء الغرباء الذين يتقاتلون . .

ولم أقل إلا لأمى . .

وصرخت أمى . . يا مجنونة . . إنهم سيقتلونك . .

ولكنى مصممة . .

سأذهب إلى الأشرقية . . إلى بيتنا . . إن طوفى هناك وسأكون فى حمايته . . وخوفاً من أن تلجأ أمى إلى أبى ليحول بينى وبين الأشرقية ، جريت من أمامها إلى الشارع ، وإذا بها تجرى ورائى وتلتحق بى ، ثم تمسك ييى وتسير بجانبى وتقول وهى تقاوم دموعها :

- سأذهب معك . . ربنا يستر . .

وركبنا سيارة أجرة . . وأمى لا تسكت عن ترديد آيات القرآن التى تحفظها . . ووقفت السيارة عند منطقة رفض السائق أن يتعدها . . ونزلنا إلى الشارع . . وأمى قد توقفت عن ترديد القرآن ، ولعلت عيناها لمعاناً غريباً كأنها مقبلة على معركة تتحدى بها القدر . . وبدأت تخطو بجانبى كأنها أقوى منى . . متصوبة القامة تدق بقدميها على الأرض . .

إننا نتجاز عرض الشارع الذى يفصل بين المنطقتين المتقاتلتين . . اجتزنا أكثر من نصف الشارع . .

وفجأة . .

انطلقت رصاصة . .

ونظرت حولى فى دهشة كأنى أتعجب ثم صرخت . . إنها أمى . . تنزع . .

وتسقط . . وسقطت فوقها . . ماتت . . قتلوا أمى . . وفوق رأسى رجلان . . لا أستطيع أن أميز وجهيهما . . ربما كانا من أبناء الأشرقية ، ولكن فى هذه اللحظة كنت أراهما من خلال غمامة كثيفة تعميى . . وسمعت صوت أحدهما يسألنى ساخراً :

- هل هى أمك ؟

وتركت جسد أمى ووقفت أمامهما صامتة . . تائهة . . وكل خلجة منى قد تثلث . . وعاد الرجل يقول وكأنه يضحك :

- خساره . . كان المفروض أن تكونى أنت . .

وقال الرجل الثانى :

- اتركها . . سنأخذها معنا . .

وقال الأول :

- انتظر حتى نعطيا ذكرى أمها . .

وانحنى على جثمان أمى ، وأخرج سكيناً قطع به أذناً من أذنيها . ثم اعتدل ووضع أذن أمى فى يدي وهو يصيح متهقها :

- هدية من أمك . . حتى لا تنسى . .

وأطبقت يدي على ما وضعه فيها وقطرات من الدم تسرى بين أصابعى . دم أمى . . وفجأة ظهر رجل ثالث يجرى نحونا وهو يصيح . .

مستحيل . .

إن الغمامة تتراخ من أمام عيني وأستطيع أن أراه . .

إنه طوفى . . حبيى طوفى . .

وفوق كتفه سلاح . .

إنه واحد منهم ..

وصرخ :

- سميرة ..

ولف ذراعه حول كفتي وأخذ يصرخ في وجه الرجلين .. كلاماً لا يهني أن
أسمعه أو أفهمه ..

ثم صرخت .. وصرخت .. وصرخت .. وجذبت نفسها من تحت ذراع
طوني وجريت عائدة إلى الناحية التي جثت منها .. وطوني يجري ورائي وهو يصرخ :

- سميرة .. يا مجنونة .. انتظري .. سأقول لك .. و ..

ولحق بي .. أحسست بيده وقد أمسكت بكفتي ..

وفجأة أيضاً ..

انطلقت رصاصة ..

وسقط طوني .. وسقطت بجانبه .. توقفت أنفاسه .. لقد قتل .. كأني ..

ولكني لا أحس شيئاً .. لم يعد في ما أحس به .. راقدة بجانب جثة حبيبي الذي

قتل أُمِّي .. والطلقات تشتد بين ناحيتي الطريق وكلها تمر فوق رأسي .. كم

مضى .. ساعة .. ساعتان .. لا أدري .. وتوقف إطلاق النار .. ورأيت

رجلاً يزحف ناحيتنا ثم يعود وهو يشد وراءه جثة طوني .. وإنسان آخر اقرب وحملني

إلى نهاية الشارع .. ثم وضعني بين زملائه .. إنهم يسألونني ويطمنون إلى أُمِّي

منهم .. وعندما تعجبوا لأنني جازفت بعبور هذا الشارع بصحبة أُمِّي ، قلت :

- كنا عائدتين إلى بيتنا في الأشرفة ..

ونظروا إلى كأنهم يشفقون على مجنونة .. ولفح أحدهم أذن أُمِّي التي كنت

لا أزال مطبقة عليها بأصابعي وصرخ :

- الكلاب ..

ثم انحنى فوق جثة طوني وقطع إحدى أذنيه وألقاها بعيداً ثم أخذ يمزق في بقية

جسده ..

وانحنيت والتقطت أذن طوني ..

وضعتها مع أذن أُمِّي في يد واحدة ..

* * *

يا أنت ..

لا تحاول أن تكتب لي كأنك تعتقد أنني أسألك رأيك .. رأيك لا يساوي

شيئاً .. أنا لبنانية وكل لبناني ليس في حاجة إلى رأي أحد .. وقد كنت

لك لمجرد أن أستريح ثم ألتقي بما أكتبه في سلة المهملات .. آسفة .. لا أقصد

أنك سلة مهملاتي ..

وعلى كل حال فلن أعطيك عنواني لئلا تكتب لي فقد تركت بيروت ..

أبي صمم على أن يقذف بي بعيداً عن بيروت .. واني أعيش هنا كما تعودت

أن أعيش .. مغرورة .. أستاذة علم التقدم الحضاري .. وفوق صدرى

أعلق قللاً صغيراً من الذهب المرصع بالماس ، وفي داخله أحفظ بأذن أُمِّي

وأذن طوني .. إن القالب صنعه لي الجواهري الفرنسي المعروف كارتيه .. إنه

تحفة فنية تثير حسد كل البنات .. ولا تدري كم كلفني .. لا يهم .. إننا

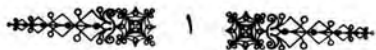
دائماً نستطيع أن ندفع .. لم يتغير شيء .. وعندما أعود إلى بيروت سأدعوك

لتلنس بنفسك أنه لم يتغير شيء ..

وسأعود ..

ولن أنسى

✧ العذراء والشعر الأبيض ✧



إن صرختها لا تزال تملأ أذنيه :

- أنت لست أبى .. كن صريحاً مع نفسك وخذنى كما أنا .. وأنا لست

بك ..

إنها صرخة تتردد كأنها صدى صوت القدر يرفه إلى مصيره كل ليلة قبل

أن ينام ..

قبل أن ينام معها ..

ويصحو كل صباح وينظر إلى عينيها المغمضتين فوق وجهها الصغير ويتسم

ابتسامة تحمل كل أحاسيسه المتناقضة .. تحمل السعادة بنفسه والخجل

من نفسه ، والسخط على نفسه ..

وتعود الصرخة تدوى في خياله :

- أنت لست أبى ..

وقد حاول كثيراً أن يقنع نفسه وأن يحس بأنه أبوها .. إنها تحمل اسمه ..

بشينة محمد عبد الله .. وهو الذى أعطاها هذا الاسم .. هو محمد عبد الله ..

إذن فهي ابنته .. وقد قضى من عمره أكثر من ثمانية عشر عاماً وهو يحاول أن

يقنع نفسه وأن يحصر إحساسه بأنها ابنته ..

ولكن . .

واتسعت ابتسامته وقد امتلأت بالسخرية من نفسه حتى كادت تنقلب إلى قهقهة مرة ، وعاد فيلم الذكريات يطوف بخياله . . الفيلم الذى يعود ويتردد كلما خلا إلى خياله ، دون أن يستطيع أن يقاوم الاستسلام له . .

كان لا يزال فى بداية شبابه . . فى السادسة والعشرين من عمره . . وكان قد انقضى على زواجه من (دولت) أربع سنوات . . إن دولت تكبره سناً بثلاث سنوات وقد أحبها وهى زوجة رجل آخر ، وربما كان أقوى ما فى هذا الحب هو نشوة الاستيلاء عليها . . النشوة التى ترضى غرور كل رجل يصل إلى زوجة رجل آخر . . ولكن دولت لم تتركه طويلاً يتمتع بهذه النشوة . فقد استطاعت بعد عام واحد من لقائهما أن تطلق من زوجها وأصبح من الطبيعى أن يتزوجها ، وقد دفعه إلى الاستسلام للزواج الجانب الآخر من جبه لدولت . . جانب الاعتماد عليها ، فمنذ أن التقى بها وهو يعتمد عليها ، وهى من الشخصيات التى تعبر عن الحب بالعطاء . . كانت تعطيه كثيراً . . وهو لم يكن قد بدأ فى بناء نفسه بعد ، كان قد تخرج فى نفس العام من كلية التجارة ، وكان يقيم وهو طالب فى غرفة من بنسبون فى أطراف الجزيرة ، وكان يعيش على ما ترسله له عائلته المقيمة فى طنطا . . ليس غنياً ولكنه أيضاً ليس محتاجاً فى حدود المستوى المتواضع الذى يعيش فيه . . ولكن دولت بدأت تعطيه ونقلته من غرفته فى الجزيرة إلى غرفة فى بنسبون بشارع متفرع من شارع قصر النيل . . وقد حاول أن يرفض . . إن إيجارها ثمانية جنيهات وهذه الغرفة الجديدة التى اختارتها دولت إيجارها خمسة عشر جنيهاً لا يستطيع أن يدفعها . . وحاولت دولت أن تقنعه بأنها ستتحمل عنه دفع الإيجار . . إنها غنية ورثت عن أبيها ، وزوجها يعطيها

كثيراً ولا يدقق فى الحساب . . ولكنه رفض . . إنه يرفض التنازل عن اعترازه بنفسه وإحساسه بأن الرجل هو المسئول عن المرأة التى يملكها . . ولكن دولت تلح وهى فى حاجة إلى هذه الغرفة الجديدة أكثر من حاجته هو إليها فإنها تستطيع أن تصل إليه فيها دون أن يكشف سرها أحد . فالعمارة كبيرة فى منطقة تجارية ومن يراها ذاهبة إليه يمكن بسهولة إقناعه بأنها فى طريقها لأن تشتري بعض المشتريات أو فى طريقها إلى الدكتور أو الخياطة اللذين تضمهما نفس العمارة ، أما الغرفة التى يقيم فيها فى الجزيرة فهى قضية ، لا أحد يراها ذاهبة إليه إلا ويصب عليها نظرات اللعنة ، وأصحاب الشقة أنفسهم رغم أنهم سكتوا نظير الهدايا التى تحملها إليهم كل مرة ، ورغم أنه قدمها إليهم على أنها ابنة عمه إلا أنهم يستقبلونها كل مرة كأنهم يسلحون عنها ثوبها ليروا من تحته ما يراه محمد . . وقد اقتنع محمد بهذا المنطق ورضى أن ينتقل إلى الغرفة الجديدة على أن يظل يدفع الثأنية الجنيات التى تعود أن يدفعها وتدفع هى الباقى . . وضحكت دولت قائلة . .

لا . . النصف بالنصف . . كل منا يدفع سبعة جنيهات ونصفاً . .

ولكنها كانت تدفع كثيراً واستسلمت بلذته وغرور إلى ما تدفعه . . نصف ثيابه أصبحت هدايا تقدمها له ، والساعة التى يتباهى بها أمام أصدقائه ، والقلم الذى يكتب به ، بل إنها تحملت مسئولية حياته الخاصة كأنها أصبحت زوجته ، رغم أن فكرة الزواج لم تكن تخطر له على بال ولم يكن يعتقد أنها هى نفسها يمكن أن تفكر فى أن تزوجه . . فهى زوجة رجل محترم ناجح يوفر لها اجتماعاً ومادياً كل ما تحلم به أى امرأة . وكان يعتقد أن كل ما بينهما هو ذلك النوع من الحب الذى لا يشمل كل شئ ولكنه يغطى جانباً من النقص

الذى يشعر به كل من الطرفين .. شئ ينقصها يعطيه لها ، وشئ ينقصه تعطيه له ..
إلى أن فوجئ بأنها طلقت .. ولم يسبق طلاقها أية مقدمات أو حديث عنه
بينهما .. مفاجأة صارخة بالنسبة له خصوصاً وأنه لم يكن قد مضى على
زواجها أكثر من أربعة أعوام ، ولم يكن قد مضى أكثر من عام واحد على لقائهما ،
وخصوصاً أنه تأكد من أنها هي التي طالبت بالطلاق .. وكل ما قاله له أن
أبلغته بطلاقها :

- إلى لا أستطيع أن أعيش لرجلين ..

وكان من الطبيعى أن يفكر فى مصيره معها .. هل يتزوجها ؟ وقبل أن
يقرر كانت هى قد بدأت تشير بأسلوبها الهادئ الناعم إلى الزواج .. هل
كانت تنتظر أن يتخرج فى الجامعة ويبدأ حياته العامة حتى تطلق وتطالبه بالزواج ..
لا يدرى .. بل لا يدرى ماذا نجد فيه مما يغريها بالزواج منه حتى لو كان فيه
ما يغريها بحبه ، فهو لا يستطيع أن يوفر لها الحياة التى كان يوفرها لها زوجها
الأول .. لا الحياة الاجتماعية ولا الحياة المادية .. إنها تتزوجه وهى تعلم أنها
ستعطيه أكثر مما تأخذ .. لا يهتم .. هذا ما تريده ..

واستسلم للزواج بلا حماس وبلا اقتناع تام ، وتركها هى لتحمل مهمة
اتخاذ كل الإجراءات .. هى التى قدمته لأهلها ، وهى التى اختارت بيتها ،
وهى التى قامت بتأنيته وهى التى اختارت المأذون وهى التى تولت دعوة أقاربها
واكتفى هو بأن يتولى دعوة أبيه وعائلته .. كل هذا لم يأخذ شيئاً من فكره ،
فقد كان قد بدأ يفكر فى بناء نفسه .. فى أن يعمل .. وكان يكره أن يكون
موظفاً فى الحكومة فبدأ يسعى بين شركات المقاولات ويحاول أن يكسب علاقات
وصداقات مع رجال الأعمال وأهمهم رجال وكالة البيع .. وحتى بعد أن أصبحها

زوجين فعلاً لم يحس أن هناك شيئاً جديداً يجمعها بها ، فهى ليست غريبة
عنه ، وليس فيها شئ جديد ، وما تقدمه له بعد الزواج هو نفسه ما كانت
تقدمه له قبل الزواج .. الاهتمام بكل شئ ومسئولية كل شئ ، كل ما أضافته
هو أنها بدأت تفتح أمامه أبواباً اجتماعية جديدة كان فى حاجة إليها وساعدته
كثيراً فى بناء نفسه ..

ومنذ الليل الأولى من الزواج أحس بأن هناك شيئاً تريده وتسعى إليه
دون أن يبدو ما هو ، إلى أن انقضى أكثر من شهر عندما قالت له يوماً :
- كل ما ينقصنا اليوم يا محمد هو أن نخلف .. أن أكون أمّاً وأن تكون أباً ..

نفسى فى بنت يا محمد ..

ولم يهتم بما تريد فهو نفسه لا يحس بأنه يريد أن يكون أباً ، بل يكره أن
يكون أباً لبنت أو ولد .. إنه لا يزال فى مقتبل شبابه .. كل ما يريده هو نفسه ..
ومرت الشهور .. وبدأ يلاحظ أن دولت تتردد كثيراً على الأطباء وتتبع
إجراءات غريبة عليه فى علاج نفسها إلى أن صارحته بأنها تذهب إلى الأطباء
لتحمل وتلد ، ثم فاجأته يوماً بأن طالبت بأن يذهب إلى طبيب ليتأكد هو الآخر
بأنه يستطيع أن ينجب ، وصرخ فى وجهها .

- لا يهينى إذا كنت أستطيع أولاً أستطيع إننى لم أتزوج لأكون أباً ..
تزوجت لأكون معك أنت تكفينى وتغنينى عن دوشة العيال .. دوشتك تكفينى ..
ولكنها تلح عليه أن يذهب إلى طبيب ، وإلحاحها يدفعه إلى التساؤل ..
هل تزوجه فقط لتنجب منه وهل طلقت زوجها الأول لأنها فقط لم تنجب منه
رغم أنها عاشت معه أربع سنوات .. ولكنها كانت تستطيع أن تترك نفسها
للإنجاب قبل الطلاق والزواج ، فقد كانت تعطيه كل شئ ، وكانت تستطيع

أن تنسب خلفتهما إلى زوجها الأول أو تنسب أى أسلوب آخر مما نسمع ونقرأ عنه من أساليب . . وتذكر أنها قبل أن يتزوجا كانت حريصة كلما جاءت إليه على اتباع كل إجراءات منع الحمل ، ربما لأنها لم تكن تريد أن يكون لها مولود حرام ، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعترف بأن النقص فيها هى . . هى امرأة ناقصة . . امرأة لا تنجب . . امرأة عاقرة . . ولم يكن هناك ما يمكن أن يغطى عقبتها إلا أن تتظاهر بتعاطي وسائل منع الحمل . . أو تهتم زوجها الأول بأنه هو الناقص . . ثم تلج على زوجها الثانى بأن يذهب إلى طبيب . . وذهب إلى الطبيب مرضاة لها وتحت ثقل إلحاحها . .

وكان يمتنى أن يثبت عليه الطبيب أنه عاقر لا ينجب ، فهو فعلا لا يمتنى ولا يحب أن يكون أباً . . قد تكون هذه أنانية منه ، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا العالم كله فى حاجة إلى مولود آخر . وقد أكد له الطبيب أن رجولته طبيعية وأنه لا شك قادر على الإنجاب ورغم ذلك فقد ألح عليه أن يكتب له أى نوع من الدواء حتى يعود إلى دولت وكأنه هو الذى فى حاجة إلى العلاج ، لعلها تهدأ . . وقد فرحت دولت فعلاً عندما عاد إليها وفى يده زجاجة دواء . وأصبح هذا الدواء أهم وأغلى ما فى البيت بالنسبة لها ، وتناولته له فى اهتمام مبالغ فيه كأنها تنقذ به حياته وحياتها . . ومع ذلك فلا شك أن دولت كانت تحس أنها تدارى عقدة فى داخلها . . عقدة المرأة العاقر . . فهى تعلم منذ سنوات زواجها الأول أنها لا تنجب ولكنها لا تريد أن تعترف بنقصها ولا تريد أن تبحث عن حياة تغنيها عن أن يكون لها أولاد وبنات ، وكانت تتعمد أن تذهب إلى الطبيب سرّاً دون أن تخبر حتى زوجها ، وقد عرض عليها أحد الأطباء أن يجرى لها عملية جراحية ولكنها رفضت حتى لا تفضح أمرها ، وكانت تغطى كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز

زوجها عن الإنجاب ثم كبرت الكذبة فى خيالها حتى بدأت تفكر فى أن تطلق زوجها فعلاً بحجة عجزه . . وقبل أن تبدأ فى الطلاق من زوجها الأول عرفت محمد . . إنه زميل لابن عمها فى كلية التجارة وأصبح صديقاً لأخيها ، وقد شعرت منذ رآته بأحاسيس كثيرة تشدها إليه . وقد كانت تستطيع أن تقام هذه الأحاسيس . . إنه لا يزال فى نضارة شبابه وهو يبدو كأنه ريفى لا يزال بخيره وبكل قوته لم تستنزفه بعد حياة المدينة . . من يدرى ربما كانت تستطيع أن تنجب منه . . هذه العقدة هى التى دفعها إليه وإلى محاولة الاستيلاء عليه . . ورغم ذلك فعندما استولت عليه كله . وأعطته كل شىء كانت حريصة على أن تفرض عليه وعلى نفسها إجراءات منع الحمل لأنها لم تكن تريد أن تعترف حتى أمام نفسها أنها لا تحمل ، أو لأنها لا تريد أن تشعره بعجزها عن الحمل ، أو ربما لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأمل . . وكانت حريصة ألا تجرب هذا الأمل إلا فى الحلال . .

هذه المشكلة التى تعيشها دولت بكل أفكارها وأعصابها وبكل وجودها ، لم يكن محمد يعيشها أبداً رغم أنها كانت تذكرها بها بحرصها على تقديم الدواء الخادع له . . كان كل فكره وإحساسه ونشاطه يتحصر فى بناء عمله . . وقد بدأ ينجح بسرعة وبدأت أرباحه ترتفع إلى أن قارب أن يكون فى مستوى ثراء زوجته ، وكان قد مر عامان على زواجه عندما قرر أن يسافر إلى لندن للدخول فى صفقة جديدة ، وفوجئ بأن دولت تصر على أن تسافر معه . . يا حبيبتى إني أسافر إلى لندن لأول مرة ، فدعيتى أتوه هناك وحدى إلى أن أكتشفها لك ثم أسافر معاً فى المرة القادمة . . ولكنها تصر . . لماذا . . هل تغار عليه . . هل تخشى أن يتزوج فتاة إنجليزية . . ولماذا تصر على تهريب كل هذه المبالغ

من الجنيهات الإسترلينية .. إنه لم يعرف إلا وهو جالس بجانبها في الطائرة التي حملتهما إلى لندن .. إن كل ما تريده هو أن تعرض نفسها على طبيب هناك لعلها تحمل ، وتلع عليه أن بعدها هو أيضاً بأن يعرض نفسه على طبيب .. لا بد أن هناك شيئاً جديداً .. علماً جديداً .. دواء جديداً .. شيئاً لم يصل إليه أطباء مصر .. فلنجرب .. وثار عليها .. لم يخطر على باله أنها لا تزال تحاول وأن تتكلف كل هذا المشوار وكل هذه المصاريف حتى تستمر في محاولتها ، وأقسم في ثورته أنه لن يعرض نفسه على طبيب وأعلن ندمه لأنه استسلم لها وصحبها معه .. ولم تتحد ثورته بل ظلت هادئة مبتسمة كأنها تعذره ..

وفي لندن اكتشف أنها كانت قد حددت موعداً مع الطبيب الإخصائي ، وذهبت إليه وحدها وتركته يتفرغ لعمله ..

ومرت أيام فاجأته بعدها بأنها قررت أن تقبل إجراء عملية جراحية ينصحها بها الطبيب - ووافقها دون أن يهتم حتى يتقصى تفاصيل العملية كل ما عرفة أنها عملية تتطلب أن تبقى في المستشفى أكثر من أسبوع ، وهو مضطر أن يعود إلى مصر بعد يومين .. وبقي معها إلى أن خرجت من غرفة العمليات ثم سافر في نفس اليوم عائداً إلى القاهرة .. ولم تعترض .. كانت تعرف أنه لا يهتم بأن يكون أباً فأعفته من أن يتحمل عبء محاولتها أن تكون أمّاً .. إلى هذا الحد كانت تعطيه .. وعادت إليه بعد شهر ووجهها يضحك بنضارة الأمل .. إن الأطباء أكدوا لها أنها حتماً ستكون أمّاً .. وعندما أخذها محمد بين ذراعيه وهما في الفراش بدأ يحس بإحساس لم يحسه من قبل .. إحساس ثقيل .. لم يكن إحساس المتعة التي تعودها معها ، ولكنه إحساس أقرب إلى الإحساس بالمسئولية .. إنه مسئول الآن على أن يجعل منها أمّاً .. أن يقوم بعملية حمل .. وأحس فعلاً كأنه على

وشك أن يقوم بإجراء عملية جراحية لها يكمل بها العملية التي أجرتها في لندن .. كأنه طبيب .. حتى أن شفتيه لم يعد لهما نفس طعم القبلات .. وضغط أصابعه على جسدها لم يعد يثيره كما كان .. إنه مكلف الآن بإجراء عملية جراحية .. يجب أن تكف عن هذه الابتسامة التي كان يحبها حتى تساعد على التحرك كأنه طبيب .. وأن تمنع عينيها حتى لا ترعجها رؤية المشرط ..

وقد أثر كل ذلك في إحساسه الطبيعي بالجنس ، وأحس أنه يضغط على كل رجولته حتى يستكمل هذا الإحساس .. وقد أفلح في أن يقوم بالعملية وأن يؤدي واجبه ، ولكنه من يومها وهو لا يستطيع أبداً أن يعود إلى متعته التي تعودها معها وهما في فراش .. في كل مرة يسيطر عليه الإحساس بإجراء عملية .. أداء الواجب .. فقط أداء الواجب ..

ومر عام كامل دون أن يتغير شيء في دولته .. لم تحمل .. وبدأت تفكر في أن تعود إلى الأطباء في لندن ولكنه صرخ رافضاً .. أحمدي الله على ما كتبه لك .. دعي حبك لي يغنيك عن حرامك .. كان يقول هذا الكلام وعقله يأخذه إلى مشروع الطلاق .. ربما طالبه بالطلاق كما طالب زوجته الأولى حتى تغطي عقدتها أمام نفسها وأمام الناس .. ولكن لماذا لا يطلقها هو .. ولكن لا .. لا يستطيع .. إنه لا يستطيع أن ينسى كل ما أعطته .. إنها سر نجاحه .. وسر كل هذه الحياة الفخمة التي يعيشها .. وقد تعود عليها وعلى الحياة معها وتعود أيضاً على نقصها وعجزها عن أن تكون أمّاً إلى حد أنه لا يستطيع أن يعيش كاملاً بغيرها ..

والذي حدث أنها عرفت أن زوجها الأول الذي كان قد تزوج غيرها قد أنجب وأحست أن عورتها قد انكشفت .. لم تعد تستطيع أن تضلل نفسها

وتفضل الناس ويقول إن الزوج هو السبب.. وبدأت تعاني من ثقل الإحساس بأن مالا تستطيع أن تعطيه لزوجها تستطيع غيرها أن تعطيه ، وزاد ثقل هذا الإحساس حتى وصل بها إلى حالة اليأس .. اليأس من أن تستمر في محاولة أن تحمل وتنجب ، وقررت أنه لم يعد أمامها إلا وسيلة واحدة حتى تعوضها وتعوض زوجها عن عجزها وهي أن تتبنى ..

وفكرت طويلاً في مشروع التبنى قبل أن تعرضه على محمد ، وقررت بينها وبين نفسها أن تتبنى بنتاً .. إن البنت يمكن أن تكون أقرب إليها من الولد .. وتستطيع بطبيعتها كأنثى أن تفهمها وتربها أسهل مما تستطيع أن تفهم وتربي الولد .. وبدأت فعلاً تبحث عن الملاجئ ودور رعاية الأحداث التي تعطى حق التبنى .. وفي القاهرة أكثر من دار لرعاية الأحداث ، تضم الأطفال الذين يجمعون من الشوارع وأغلبهم قبض عليهم في جرائم صغيرة ليس لهم ذنب فيها .. وليس في القاهرة إلا ملجأ واحد في المطرية يضم الأطفال اللقطاء بعضهم احتواه الملجأ وهو لا يزال في أيامه الأولى من الحياة .. ولم نجد في دور رعاية الأحداث طفلاً يشد إحساسها ، واقتناعها .. كانت تقف أمام كل طفلة وتردد طويلاً ثم تتعد دون أن تستطيع أن تتخذ قراراً .. ثم ذهبت إلى الملجأ في المطرية وما كادت عيناها تلتقي ببشينة حتى قررت أن تكون ابنتها .. إنها طفلة في الرابعة من عمرها كل ما في وجهها يبتسم .. عيناها تبسمان ، ووجنتاها تبسمان ، وشفتاها ، حتى أصابع يديها .. ابتسامة دائمة هادئة فيها حلاوة وفيها ذكاء .. ولون بشرتها أقرب إلى البياض كلونها ، وشعرها أقرب إلى اللون الفاتح يضع فيه الأسود مع القرمزي مع الأصفر كلون شعرها .. إن من السهل أن يعتقد الناس أنها ابنتها فعلاً ، وخاصة أن تصرفاتها وحركاتها حتى وهي طفلة وفي ملجأ لقطاء

فيها كثير من الرقة الأرستقراطية ، ومن يدري ربما أنجبتها في خطيئة امرأة من عائلة لها قيمتها ثم وضعتها أمام جامع أو أمام مركز بوليس هرباً من الفضيحة .. وسألت في الملجأ أسئلة كثيرة عن بشينة .. أين وجدوها ؟ .. وهل يذكرن اللقطة التي كانت تلتف بها .. ولم يكن وجدوها أمام جامع ولا أمام مركز بوليس ، لقد وجدوها قريباً من سور السفارة الأمريكية في جاردن سيتي ، وكانت ملتفة بأغطية غالية مطرزة ولم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من أسبوعين ، وكان من تحتها أن الذي عمر عليها رجل محترم استدعى عسكري البوليس وأرشدته إلى بشينة وهي لا تزال ملقاة على الرصيف بجانب السور ، وحملها العسكري إلى قسم البوليس ، وسلمها البوليس إلى الملجأ .. والحمد لله ، فقد كان يمكن أن يعثر عليها أحد المتشردين ويسلمها إلى عصابة إجرامية لينشوها بينهم وهو ما يحدث كثيراً .. ودولت تسمع القصة وتجري بعينها بحثاً عن بشينة وتضمها من بعيد في فرحة ..

وهرعت إلى محمد لتبلغه قرارها .. إنها ستبنى طفلة ، وقد وجدتها في الملجأ .. ونظر إليها محمد كأنه ينظر إلى مجنونة ، ثم قلب شفتيه قرعاً وامتعاضاً ، ووافق .. إنه لا يريد ابنة ولا ابناً ، وكل ما يريد هو أن تهدأ زوجته وتريحه من عقدتها .. وذهب محمد معها إلى الملجأ لينتخذ إجراءات التبنى ، ولم يتعمد هناك أن ينظر إلى بشينة وبدأ في توقيع الأوراق بلا أية عاطفة كأنه يوقع على شيك تبرع لإحدى الجمعيات الخيرية ، أو كأنه يوقع عقداً في صفقة لا يهمه أن يخسرها ، ولكنه عندما رأى بشينة ابتسم كأنها نقلت إليه ابتسامات تقاطيع وجهها الطفل .. ابتسم ابتسامة كاملة شملت أحاسيسه كلها .. وكان يمكن أن يكون التبنى جزئياً أي أن يتولى أمرها دون أن ينسبها إلى نفسه ،

ولكن دولت أصرت على أن يكون التبنى كاملاً . . أى أن تكون ابنته وتحمل اسمه . . ولم يهتم محمد أيامها . . لم يكن يهمه أن تكون ربيته أو ابنته . . إنها شيء سيوجد في البيت كعلاج لعقدة النقص التي تعاني منها زوجته هي التي اختارت لها اسم بثينة ، إنه الاسم الذي كان يمكن أن تسمى به ابنتها لو أنجبت لأنه اسم أمها . .
وانتهى توقيع الأوراق . .
وأصرع محمد خارجاً ، وترك زوجته تصحب بثينة إلى البيت دون أن يلتفت إليها . . ولم ير عيني بثينة وهما متعلقتان به تتعانه في تعلق عجيب . .



٢

إنه يذكر الأيام الأولى التي أصبحت فيها بثينة شيئاً في البيت . . لم يكن يحس بهذا الشيء ، ولم يكن يعتمد أن يعطيها شيئاً من الحنان ولا حتى من الاهتمام ، بل إنه لم يعود نفسه تقبيلها كطفلة صغيرة إنما كان يكتفى كلما دخل أو خرج من البيت أن يمسح بيده على شعر رأسها مسحة سريعة وهو يبتسم لها نصف ابتسامة . وكان أحياناً يلمح في لحظات أنها فعلاً طفلة جميلة . . عيناها ، شفاتها ، لون بشرتها ، شعرها . . وأحياناً كان يضحك ضحكة كبيرة عندما تلفت نظره بحركة من حركات الطفولة . . إنه لم يلحظ أبداً تتبعها له كلما كان في البيت . . إنها تسير وراءه في كل تحركاته ، ويجلس فيجدها جالسة أمامه ، وحتى عندما يخرج من حمام الصباح يجدها واقفة في انتظاره ، لم يكن شيء يبعدها عنه إلا دولت لتأخذها وتؤدي لها ما تتطلبه طفولتها . . ولم يلحظ أيضاً أنها كانت تكرر كثيراً كلمة « بابا » كأنها الكلمة الضائعة التي كانت تبحث عنها . . بابا . . بابا . . وكانت في البداية تنطقها في حياء وتردد ثم أصبحت تنطقها وترددها بكل إحساسها كأنها تزغرد بها . . كأنها الكلمة التي تثبت بها شخصيتها وتستكمل بها كل وجودها . . لم يكن يلحظ أو يحس بأى شيء تجاه بثينة أو « بوسى » وهو اسم التديل الذي اختارته لها دولت ، كل ما كان يحس به نحوها أنها تحفة جميلة اشتراها هدية لزوجته كباقى التحف التي تملأ البيت ، وإن كان يحس بهذه التحفة أكثر لأنها شغلت زوجته عنه وأراحته من عقدها . .

وقد كانت العلاقة بينه وبين زوجته دولت تأخذ مع السنين في التباعد ..
تباعد في إحساسه بها كامرأة .. بدأ يشعر بفارق السن بينهما .. إنها أكبر منه
بثلاث سنوات .. وبدأ يشعر كلما هم أن يحتضنها في الفراش أنه يؤدي واجباً
مفروضاً عليه .. واجباً أصبح ثقيلاً ليس فيه إغراء كأنه ينفذ أوامر الطبيب ..
وبدأ بينهما ما يمكن أن ينتهي إلى ما يسمى الانفصال الجسدي .. ولم تكن
دولت تحاول أن تصد هذا الانفصال بل كانت مستسلمة له كأن بثينة قد
أغتها عما كانت تريده من محمد .. أو ربما كان التحليل النفسي يصل إلى
حد تصور أن دولت لم تحب محمد منذ البداية إلا بغريزة وإحساس الأمومة
التي لم تستطع أن تصل إليها بالإيجاب .. وربما كان هذا هو سر عطائها
الكثير له .. كانت تعطيه كأم لا كعشيقة ولا كزوجة .. وقد وجدت في بثينة
ما أشبع فيها غريزة الأمومة فلم تعد في حاجة إلى محمد .. بل إن فرحتها ببثينة
دفعها بعد عام واحد إلى أن تفكر في تبنى طفل ثان .. ولد .. حتى يكون عندها
ولد وبنت ، وصرخ محمد في وجهها :

- لا يمكن .. إن بتنا غريبة تحمل اسمي أرحم من أن يحمله ولد ..
ولد لا أدري كيف جاء إلى الدنيا ولا ماذا ورث عن أبيه وأمه .. إن الوراثة
تشمل الشخصية والأخلاق .. فإذا كان أبوه لصاً أو نصاباً أو صعلوكاً فيمكن أن
يرث عن أبيه اللصوصية أو النصب أو الصعلكة ، ويفضحنى عندما يكبر ويغرب
يتنى .. لا .. لا يمكن ..

وردت عليه دولت بهدوئها الناعم :

- ليست الوراثة التي تحدد الشخصية والأخلاق .. إنها البيئة .. تقاليد
البيئة واحتياجات البيئة .. إنهم يقولون أن لا أحد يسرق إلا إذا كان في حاجة

إلى السرقة .. ونحن في بيتنا .. في بيتنا لا يمكن أن نبشأ لص أو صعلوك ..
وعاد يصرخ في وجهها :

- اسمي .. إني لن أعطى اسمي ولن يدخل بيتي طفل آخر .. فاهمة ..
ويكفيها بوسي ..

ولم تلح عليه كثيراً فقد كانت بثينة تكفيها فعلاً وتغنيها عن كل ما كانت
تشعر به من نقص ، بل إنها أيضاً تغنيها عن الإحساس بهذا الانفصال الجسدي
الذي بدأ يدب بينها وبين زوجها ..

وكان محمد قد بدأ يسافر كثيراً إلى الخارج .. ربما أكثر من نصف العام
يقضيه في الخارج وهو ما كان يفرضه عليه عمله ومشرعته الواسعة . وأيضاً لأنه كان
يجد في الخارج حرية ممارسة حياة خاصة تعوضه عن إحساسه بالانفصال الجسدي
بينه وبين زوجته .. مجرد نساء عابرات لم تستطع واحدة منهن أن يكون لها
تأثير له قيمة في تغيير استمرار حياته مع دولت .. وربما كانت هذه الغيبة
الطويلة في الخارج هي السبب في أنه لم يعود أو لم يكتسب إحساس الأب
نحو بثينة .. وهناك فرق بين الأمومة والأبوة ، فالأمومة غريزة أما الأبوة فاكسساب ..
أي أن الأم تحب وليدها قبل أن تنجبه ، أما الأب فإنه في حاجة إلى وقت يمر
بعد أن يولد ابنه حتى يكتسب ويستكمل الإحساس بالأبوة .. وهو في حاجة
إلى وقت أطول إذا كانت ابنة متبناة كبثينة .. وكان يسافر إلى الخارج وينساها ..
وكان لا شيء يذكرها إلا أن يراها بعينيها .. وكان يعود من الخارج حاملاً هدية
إلى دولت وينسى أن يحمل شيئاً لبثينة .. وتصرخ دولت في وجهه وتجري لتشتري
شيئاً أو تخرج من دولابها شيئاً لتقدمه إلى بثينة كأنها هدية من محمد اشتراها لها
من الخارج .. ولكن بثينة نفسها لم تكن تحس بأنه نسبا ، كانت فرحتها

بعودته تغطي كل شيء ، وتعود تبعه وتلتصق به في كل تحركاته وتفتعل الحجج لتردد : بابا .. بابا .. بابا ..

وبشينة تكبر ..

ومحمد يكبر ..

وبدا إحساس محمد بشينة يتطور تطوراً عجيبياً .. إنه كلما عاد من الخارج والتقى بها أحس كأنه يراها لأول مرة . جسدتها ينمو في روعة .. عنقها ، ثدياها ، قوامها ، ردفاها ، ساقاها .. جمال يتناسق ويستكمل كل عناصره كأن الفنان الأكبر قد تفرغ ليرسمه هدية له .. ونظرتها تبدأ في عينيها .. ويلتقي بهاتين العينين فيحس فيها نداء عجيبياً .. إنها تنظر إليه كأنها معجبة به .. كأنها تنتماه .. أو هكذا يحيل إليه .. ثم أنها لم تعد تردد كلمة بابا كثيراً .. وأصبحت ملاحظتها له داخل البيت ملاحظة عاقلة كأنها أكبر من سنها .. فقد توجد في البيت وهي واثقة أنه هو الذي سيبحث عنها ..

ولم يعد ينساها عندما يسافر إلى الخارج ، بل بدأ يحس أن يختصر في رحلته ليعود إلى البيت .. لم يكن يصارع نفسه بأنه يعود لأن بشينة أوحشته .. إن البيت هو الذي أوحشته .. البيت ودولت وبشينة .. ربما وصل إلى السن التي يستسلم فيها الرجل إلى وحشة البيت .. هكذا كان يقول لنفسه .. ولم يعد ينسى هديتها .. الواقع أن هديتها أصبحت تأخذ من اهتمامه أكثر مما تأخذ هدية دولت ..

وبشينة وصلت إلى الرابعة عشرة من عمرها ..

وهو في الأربعين ..

وبدا يستسلم لأحاسيس كثيرة تجذبه إليها .. لاشك أنها أحاسيس الأبوة ..

بدأ بعد وقت طويل يصبح أباً .. لا .. إنه يخدع نفسه .. إنه لا يزال يحس بأنها فتاة جميلة .. ويجد حرجاً كبيراً إذا سقطت عيناه على ساقها ، أو إذا ركز نظره على شفتيها . وحدث أن دخل الغرفة مرة فوجدها شبه عارية مع دولت تقفز بسرعة كأنه ارتكب فضيحة ، كأنه اعتدى عليها . لا يمكن أن يكون هذا هو إحساس أب .. لا يمكن أن يحس أب بسيقان ابنته أو بجسدها كله كما يحس بجسد فتاة غريبة .. لا .. قد تكون بشينة ابنة دولت ولكنها ليست ابنته .. وبشينة في السابعة عشرة ..

وهو في الثالثة والأربعين ..

إنه يجد فيها نواحي جديدة .. إنها تقرأ كثيراً وتستطيع أن تجلس إليه ساعات طويلة تحكي له عما قرأته .. صحيح أن معظم قراءاتها في القصص ، والتاريخ ، والفن ، وأكثر المجالات التي تجذبها هي المجالات التي تنشر أخبار الفنانين والفنانات ، وهو لم يكن يهتم يوماً بالأدب ولا بالفن ، ولكنه يحس وهي تروى له كأنه ينتقل إلى عالم جديد مثير ممل ، بل إنه كان أحياناً يروى لها بعض مشاكل عالمه .. عالم رجال الأعمال .. فتبدي له آراء تدعشه كأن لها ذكاء بنات الأعمال . ودون أن يتعمد بدأ نظام حياته يتغير .. بدأ يقضي ليالي كثيرة في البيت جالساً في غرفة مكتبه المخصصة له ومعها دولت وبشينة ، والرايو والتليفزيون ، وزجاجة الويسكي الذي تعود أن يشرب منه كل مساء دون إفراط ، وكانت السهرة تنحصر عادة في مناقشة تثيرها بشينة ، أو في قصة ترونها ، أو في رقصة تقوم وتعرضها عليهما لتظلهما على آخر تطورات الرقص .. وهو سعيد .. مرح .. يضحك ويناقش .. وأحياناً يحتد .. ودائماً يتعمد الحذر من أن يركز عينيه على ساق بشينة ، أو على صدرها . أو على عنقها .. لقد أصبح أصعب عليه أن يفتعل أحاسيس الأب

ويعانى صعوبة أكبر إذا تركته دولت وحده معها .. وفى مرات كثيرة كانت دولت تعلن أنها ستتركهما لننام فيلحق بها محمد فوراً .. (خديجى معاكى) .. لا لأنه يريد أن ينام ولكن لأنه يخاف نفسه .. يخاف هذه الأحاسيس التى تعصف به ..

وهى .. بشينة .. إنها تعتمد أن تبقى بجانبه كلما كان فى البيت .. وتعتمد أن تلتصق به كلما صحبها هى ودولت إلى دعوة أو إلى سهرة فى الخارج .. وتضع ذراعها فى ذراعه كأنها تتباهى به وتنسبه إلى نفسها .. وفى كل مناسبة تقول كلاماً كأنها تحرضه على نفسها :

- تعرف صاحبتى ميرفت .. ستجن عليك .. تقول إنك أجمل وأرشق رجل وإنها ستحاول أن تخطفك من ماما دولت ..

- إنها صغيرة مجنونة ..

- ليست صغيرة ولا مجنونة إنها فى سنّى وفى عقلى ..

وأحياناً تمد يدها وتلعب فى شعره الأبيض وتصبح ضاحكة :

- شعرك يا بابا .. يهوسنى ..

إنه شعر عجوز .. سأصبغه أسود حتى أسترده شبابى ..

- إياك .. أنتحر لو صبغته ..

وقد كانت تردد إعجابها بشعره الأبيض إلى حد أنه كان يهددها ضاحكاً :

« انتى حانسكى والا أقوم أصبغ شعرى إسود » ..

وقد كان دائماً واثقاً بنفسه كرجل يجذب ويشد النساء .. ولكن تجاربه كلها كانت مع نساء من نفس جيله لم يجرب البنات المراهقات .. ربما وصل إلى السن التى يقال إن الرجل فيها يصبح مراهقاً عجوزاً .. من الأربعين ..

وتشد إحساسه البنات المراهقات الصغيرات .. وربما كان صحيحاً أن البنات فى سن المراهقة يضعفن أكثر أمام الشعر الأبيض .. أمام سن الأربعين وما بعده .. إن أول حب فى حياة البنت هو حب الأب وعادة ينقلها هذا الحب إلى تجربتها الأولى مع رجل فى سن أبيا ..

وحدث أن دعى إلى حفلة ساهرة فى فندق هيلتون مع زوجته وابنته .. أى بشينة .. وليلتها شرب كثيراً من كؤوس الويسكى ، ثم قام فجأة وشد بشينة من يدها وجذبها إلى حلبة الرقص ليراقصها .. كانت رقصة هادئة .. سلوفوكس .. وقد بدأ يراقصها وهو يتكلم كثيراً ويضحك كثيراً .. ولكن بعد بضعة خطوات راقصة تركز إحساسه كله على صدرها الذى يلاصق صدره ، وأصابعه المحلقة على ظهرها ، ساقيه اللتصقتين بساقها .. ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكى التى شربها أن يقاوم .. وكف عن الكلام وعن الضحك .. وضغطها إليه بكل ذراعه .. ولصق شفتيه فوق عنقها .. وتحركت فيه كل عناصر رجولته .. وهى .. إنها مستسلمة .. إنها تضغط نفسها هى الأخرى إليه وتزداد التصاقاً به .. وتعتمد أن تضع ساقها بحيث تطلق بينهما ساقيه .. وكلاهما مخنئ فى زحام الراقصين .. وسكنت الموسيقى ..

وأفاق ..

أفاق من كل شيء ..

أفاق حتى من كؤوس الويسكى التى كانت تملأ رأسه ..

ونظر إليها فى دهشة كأنه لا يصدق ما حدث ثم أسرع مبتعداً عن حلبة الرقص وهى تجرى خلفه .. وجلس إلى المائدة وصب لنفسه كأساً ثقيلة وأخذ يشرب

فيها دون أن ينظر إلى بثينة . ثم قام مستأذناً وخرج بزوجه وابنته بثينة . . وركب
سيارته عائداً إلى بيته ، ودولت تسأله :

- هل أنت متعب ؟

- لا . .

- إنك لست طبيعياً . .

- ربما أنقلت من الويسكى . .

ولم يحاول أن ينظر إلى بثينة حتى عندما هم أن يدخل إلى غرفة نومه ،
ولكن بثينة جرت وراءه صائحة :

- تصبح على خير يا بابا . .

ثم انحنت وقبلته فوق خده . .

ولم يرفع عينيه إليها ولم يرد تحيتها . .

وذهب إلى مكتبه في الصباح وقد تعمد ألا يلتقي ببثينة أو يقبلها كما تعود قبل
خروجه واكتفى بأن قبل زوجته وفي المساء أعلن أنه سيخرج من البيت وحده ولكنه قبل أن
يخرج جلس في غرفة مكتبه وحده مدة طويلة ثم نادى ببثينة وجاءته ورفع عينيه إليها بعد
أن يجاهد لها طول هذه الفترة ، وراها كأنها ازدادت نضارة وابتسامتها أكثر حيوية وشباباً ،
وخيل إليه أنها هائمة في إحساس جديد ، وقال وهو يحاول جهده أن يبدو هادئاً :

- أنا آسف لما حدث ليلة أمس . .

وقالت في براءة :

- ماذا حدث ؟

- أقصد عندما نسيت نفسي وأنا أراقصك . .

- إنك لم تنس نفسك . .

لم أكن طبيعياً . . كنت قد شربت أكثر مما يجب . .

- كنت طبيعياً جداً . .

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق أنها لم تحس بكل ما جرى وهو يراقصها . .
واقتربت منه أكثر وقالت :

- صدقني . . لقد كنت طبيعياً وأنا أيضاً كنت طبيعياً . .

ثم انحنت تقبل خده وجرت من أمامه . .

وتركته حائراً . .

ماذا تقصد . . هل ما جرى يمكن أن يكون طبيعياً بين أب وابنته . .

أم تقصد أنه طبيعي بين رجل وامرأة . . أم لم تحس فعلاً بما جرى . .

وفي اليوم التالي قال إنه مسافر إلى الإسكندرية ، وقالت بثينة بسرعة وفرحة :

- خذني معك . .

وصرخ في حدة :

- لا . . إني ذاهب في عمل . .

ومالت بثينة على دولت ترجوها :

- والنبي ياماما . . دعيه يأخذني معه . . إني لم أر الإسكندرية منذ الصيف . .

أريد أن أطمئن على الكاينة وبيتنا هناك . وأقابل صديقتي تحية . . وغداً

أجازه . .

وقالت دولت في إلحاح :

- محمد .. دع بوسى تسافر معك .. إن من حقها أن تقضى يوماً بعيداً عن البيت ..

ثم ضحكت دولت قائلة :

- أتعهد لك بأنها ستترك لك حريتك .. بوسى .. احلفي أنك لن تضايقيه بطلبائك ..

وقالت بثينة في دلال :

- أنا باضايقتك يابابا ١٩

وكان الإلحاح عليه كأنه إغراء له ، وضعف أمام الإغراء . وأخذها معه .. وفي طريق الإسكندرية كان يقود السيارة وهو يحاول أن يبقى صامتاً وأن يكتفي بالنظر أمامه ، ولكن بثينة لا تكف عن الكلام .. تروى له قصصاً قرأتها وقصصاً سمعتها ، وأخبار الفنانين والفناتين ، وأخبار صديقاتها في الجامعة والنادي ، ثم تدير راديو السيارة وتهتز على الأنغام وتغنى .. وهو يحاول أن يقاوم .. ولكن مقاومته تخف .. وتخف أكثر إلى أن نسي ما جرى وبدأ يملأ عينيه منها وبضحك لضحكاتها ويغنى معها ..

ووصلوا الإسكندرية في المساء .. ووقف في فندق فلسطين يسجل اسمه واسمها .. محمد عبد الله وابنته بثينة محمد عبد الله .. وقال لموظف الفندق : نريد حجرتين من فضلك ..

وصرخت وهي ببجانبه :

- يا خير يابابا .. إني أخاف موت إذا نمت في حجرة وحدى .. من أجل خاطري يابابا لا تتركني وحدى ..

ولم يستطع أن يجادلها طويلاً أمام موظف الفندق .. وجمعهما غرفة واحدة ..

وعندما بدأت تخلع ثيابها وتلبس ثوب النوم احتار أين يهرب بعينه ، ثم قال بحدة :

- بللى ثيابك في الحمام ..

وقالت في دهشة :

- لماذا ؟

ولم يرد عليها ولكنه جمع ثياب نومه قائلاً :

- أنا سأدخل الحمام ..

وبدل ثيابه بعيداً عنها بينما فتحت بثينة الراديو الذى تحمله على ثغمت راقصة ، وعندما خرج من الحمام وجدها في قميص النوم .. وقد تعود أن يراها في ثياب النوم ولكنه أحس أنه لم يرها أبداً عارية كما يراها في هذا القميص .. وقالت وهي تهتز راقصة على ثغمت الراديو :

- طلبت لك الويسكى ..

وهو حائر أين يضع عينيه منها .. وجاء الويسكى ، وأخذ يشرب كأنه يهرب بنفسه داخل الكوب ، أو كأنه يلقي بنفسه في بحر الويسكى ليتنحر .. ثم شدته من يده قائلة :

- قم راقصنى ..

- لا تكونى مجنونة ..

- من أجل خاطرى .. لا تحرمنى قبل أن أنام ..

وقام يراقصها بجانب الفراش .. وحاول أن يحتفظ بها بعيدة عن جسده ..

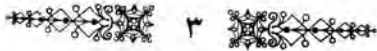
وقالت ضاحكة :

- لا .. كما راقصتني آخر مرة ..

وألقت بنفسها فوق صدره .. وأحس بشديدها .. وساقها .. وظهرها العاري ..
وضمها بكل ذراعه كأنه يريد أن يدخلها بين ضلوعه .. وتحركت كل حيوية
رجلته .. ثم دفعها عنه بقسوة حتى وقعت فوق السرير ، وقال وأنفاسه تهدج :
- إذا كنت مجنونة فلن أجن معك ..

وابتعد وجلس على المقعد المواجه للسرير .. يحاول أن يشعل سيجارة ..
وقامت من رقدتها واقتربت منه وفي عينيها نظرات جادة كأنها على وشك أن تصدر
حكماً نهائياً وقالت في صوت حاسم كأنها قررت أن تتحرر من كل خداع
ومن كل خجل :

- اسمع .. أنت لست أبى .. خذنى كما أنا .. وأنا لست ابنتك ..
ونظر إليها بعينين ثائرتين خطيرتين كأنه قرر أن ينتهى من كل شيء ..
ينتهى من هذه المقاومة التى أنهكته خلال سنوات .. وينتهى من هذا الضياع
بين ابنة وعشيقة فى جسد واحد ، وأب ورجل يتصارعان داخل جسد آخر ..
وشدها إليه وقبض على شفتيها بشفتيه ، وأصابعه تمزق عنها قميص النوم ، ثم قام
وحملها عارية وألقى بها وألقى بنفسه معها ..
وحدث كل شيء ..



٣

قالت له إنها هى أيضاً حاولت العمر كله أن تحس به كأب ولكن كان
هناك دائماً إحساس يغلب إحساسها بأبوتها .. ربما منذ اليوم الأول الذى وعته فيه وهى
لا تستطيع أن تعبه كأب .. كان إنساناً يملأ خيالها وأحلامها ولا يمثل واقعها ..
إنها تستطيع أن تتخيله بطلاً للقصاص التى تقرأها والأفلام التى تشاهدها وتحلم به
كمستقبل وهى .. كأن يحبها ويحفظها على حصان ، ولكنها لم تكن تحس به
كواقع .. والإحساس بالأب هو الإحساس بالواقع .. وهو لم يكن أبداً واقعاً ،
كان خيالاً وحلماً .. وكلما تقدم بها العمر اقترب بها خيالها وأحلامها من الحب ..
أصبحت تريده .. تشبهه .. وتتمنى أن تنبأه به أمام صديقاتها كرجل لا كإبيها ..
إنها تعلم أنه ليس أباًها ولم يكن يجدى الإخفاء عنها فقد خرجت من الملجأ
وهى فى الرابعة وهو عمر يستطيع أن يحفظ الذكريات ، ولأنها تعلم فقد كان
يخيل إليها أن الناس كلها تعلم ، وأنها تعيش فى كذبة مستمرة ، ويخيل إليها أن كل
من يقرأ اسمها منسوباً إليه يصيح .. كذابة .. وهى تمنى أن تحيل هذه الكذبة
إلى حقيقة .. والحقيقة الوحيدة التى تستطيع أن تصل إليها هى أن تكون حبيبته
لا ابنته .. وكانت تعلم أن لا أمل .. كانت تحاول أن تياس .. بل إنها حاولت
أن تحب حياً يشغلها عنه .. تحب شاباً من الجامعة أو من النادي يحملها إلى
المستوى الطبيعى للحياة .. ولكنها لا تستطيع أن تياس .. وعندما تقدم بها العمر
أكثر بدأت تكتشف أنه هو الآخر يقاوم .. هو الآخر لا يحس بها كإبنة
بل كفتاة يريددها .. وكانت تحس بكل ما يعانبه وتكتشف كل الكذبات التى

يضحك بها على نفسه .. فبدأت تشجعه .. إنها تعترف له بأنها كانت تشجعه ..
تحاول أن تسهل له الطريق إليها .. إلى أن التقيا كما تخنيا أن يلتقيا ..
ولم يكن كلامها يكتفى ليخلصه مما يعانيه من حيرة في الحكم على نفسه ..
هل هي من حقه أم أنه اعتدى عليها بعد أن إلتصمت المجتمع عليها ، وسجل في
أوراق رسمية أنها ابنته .. وكان يستريح مما يعانيه عندما يلتقي بها وحدهما ..
إنه ينتقل معها إلى الحب كله .. إنه يجها بـرغم فارق السن .. يجها حباً أوسع
بكثير من مجرد الاحتياج الجنسي .. أصبح يحب شخصيتها وعقليتها .. بل
أصبح يمثل المستقبل كله معها .. ولكنه ما يكاد يتركها حتى تعود إليه الحيرة
والتأنيب ، والخوف .. والإحساس بالجرمة وبالكذب .. إنها ابنته كيف أباح
لنفسه كل هذا مع ابنته ..
ولكن دولت ..

لا يدرى .. إنه أيضاً لا يستطيع أن يعيش بلا دولت .. كلتاها لا تغنيه
عن الأخرى .. كل منهما تكمل ما ينقصه من الأخرى .. كل منهما لها منه
أحاسيس حب تختلف عن أحاسيسه بالأخرى ..
وبعد ما حدث في الإسكندرية كف عن المقاومة ، واستسلم لجه لبشنة
مع كل المعاناة التي يعيش فيها وكانا يحرضان أمام دولت في البيت على تأكيد
أن لا شيء جد عليهما . وربما أصبحا يتابعان أحدهما عن الآخر أكثر وهما
في البيت ، ويقال هو من سهرات المساء التي كانت يجتمع مع الاثنتين في
غرفة مكينة ربما لأنه أصبح يتعذب وهو يرى بشنة أمامه وهو محروم من الانطلاق
معهما وإليها .. وكان يلتقي ببشنة لقاءهما الخاص في شقته التي استأجرها منذ
سنوات وخصصها لحياته الخاصة .. ثم تعود إلى البيت ويعود بعدها وهما

واقنان أن أحداً لا يلاحظ عليهما شيئاً أو بدأ يشك في أمرهما ..
ولكن محمداً بدأ يلتقط لمحات جديدة من على وجه دولت .. لقد عاش
معهما العمر كله ويستطيع أن يلتقط أى لحظة جديدة .. إنها لحظة في نظره عجيبة
تصبحها ابتسامة .. كأنها اكتشفت السر .. ورغم ذلك فهي لا تقول شيئاً
وتبالغ أكثر مما عودته في تدليله وفي تدليل بثينة ..
ربما لم تكتشف شيئاً ..

إلى أن كان يوم .. وكان في لقائه الخاص مع بثينة عندما قالت له ضاحكة
ضحكتها الحلوة ؟
- هل أقول أو لا أقول ؟
- تقولين ماذا ؟
- أخبرني أولاً .. هل أقول أو لا أقول ؟

- قولي ..
- إذاً أنت الذي تأمرني بأن أقول .. لست أنا التي قررت القول ..
- يا ستي قولي .. تكلمي ..
- عدنى أولاً أن تقبلني بعد أن تسمعي .. أو الأفضل أن تقبلني الآن
فلمست واثقة من وقع الخبر عليك .
وقبلها قبلة سريعة وأمسك بها من ذراعيها كأنه يتوى أن يهزها وينخلها
حتى يسقط منها السر .. وصاح
- تكلمي ..
- إني حامل ..
واتسعت عيناه من الدهشة ثم تحولت الدهشة إلى ألم كأنه طعنة وقال :

- ولكنك كنت حريصة دائماً ..
- لا لم أكن حريصة .. كنت أتعهد أن أحمل منك ..

- لماذا يا مجنونة ؟
- لأعطيك ما أخذته منك .. لقد أخذت منك ابنتك التي كانت أنا
فأردت أن أعطيك ابنة أخرى .. أو على الأصح أريد أن أعطيك شيئاً لم تعطك
إياه امرأة أخرى .. أن أجعل منك شيئاً لم تكنه وهو أن تكون أباً ..
وصرخ :

- من قال لك أنى أريد أن أكون أباً .. ستذهبين فوراً إلى طبيب لإسقاطك ..
- لا يمكن ..
- كيف .. ماذا تعنين ؟

- إلى الآن في الشهر السادس .. وطبعتي تساعدني على إخفاء حملي ..
ولا يمكن الآن إجراء أى عملية .. إني متأكدة سألت الطبيب ..
- ستة أشهر .. كاذبة .. لا يمكن أن تعيشي معنا ستة أشهر وأنت حامل
وأنا لا أدري .. ثم دولت ؟

- إنك لا تدري ماذا كنت أفعل حتى أخفي كل شيء عن ماما دولت ..
- وماذا تتصورين أن يكون مصير هذا الطفل ؟
- مصيره هو نفس المصير الذى عشته .. أتركه للملجأ .. ثم نذهب مع
ماما دولت ونبتناه ..

- كيف يكون ابني وأتركه للملجأ ..
- كل من في الملاجئ لهم آباء .. وهم غالباً أغنياء .. لأن حياة
الفقراء لا تتسع لأولاد الحرام .. أمي لاشك كانت من عائلة كبيرة واللا للا خشيت

الفضيحة وكذلك أبى .. لو كانا فقيرين لتزوجا حتى لو كان أبى متزوجاً
عشر زوجات أو لقتلوني بدلاً من أن يضعوني في ملجأ ..
وقال في سخط :

- إنك لا تسنين أصلك ..
- أصلى هو الذى أوصلنى إلى أجمل وأحلى ما في الدنيا .. إليك ..
ونظر إليها كأنه يعتذر عن إسفاهه وقال :

- بوسى .. أرجوك .. دعينا نفكر في هدوء .. لنبدأ أولاً باستشارة طبيب
أعرفه ..
- لا أمل ..

- سأخذك ونذهب إلى لندن ونحاول إجراء العملية هناك ..
- لا يمكن ..
- لماذا ؟

- لأنى أريده .. أريد ابناً منك وأريدك أباً لابنى .. أتمنى أن تكون بنتاً ..
ماذا نسماها يا محمد ..
وصرخ بأعلى صوته :

- لا تستزئى بى إلى هذا الحد .. قدرى أنى لم أخرج من ملجأ ولا أريد
لابنى أن يخرج من ملجأ .. إني منذ وجدتك وأنا أعيش في فضيحة مستمرة
لا أريد أن أجنى على طفل لا ذنب له بفضيحة أكبر ..
ونظرت إليه في هدوء وقالت :

- محمد .. هل تحبني .. قل لى بصراحة .. إذا لم تكن تحبني فسأخرج
من هنا أنا ويطقى ولن ترى أى مشكلة في حياتك ولن ترائي ..

ونظر إليها طويلاً ، ثم أسقط رأسه بين كفيه كأنه يهم بالبكاء ، وهمس :
 - أحبك .. لن تكون لك مشكلة وحلك أبداً .. فقط أتركيني أفكر ..
 وتركته وعادت إلى البيت .. وحاول هو أن يجد حلاً .. ليس هناك حل إلا أن
 يتزوجها .. ولكنه لا يستطيع ليس من حقه .. إن عقد التني يجعل لها كل أوضاع
 الابنة ولا يستطيع قانوناً أن يتزوجها .. بآليته اكتفى أن يكفلها كما عرضوا عليه
 في الملجأ .. ولكن دولت أصرت على أن تتناها .. دولت .. كيف يتزوجها
 والناس كلها تعلم أنها ابنته وابنة دولت حتى لو أجاز القانون زواجهما .. وماذا
 يكون رأى دولت ؟ أن رأى دولت هو الأهم .. وقام في عصبية مجنونة وذهب إلى
 البيت ودخل وهو يصرخ .. دولت .. دولت .. ودولت تهرع إليه في هلع ،
 وبثينة تخرج إليه من غرفتها فيصرخ فيها :
 - دعينا وحدنا ..

ويأخذ دولت إلى غرفتهما ويغلق وراءها الباب ويلقى بنفسه على مقعد ويتكلم
 بين أنفاسه المتهدجة :

- سأرؤى لك كل شيء .. وأرجوك أن تحتلمي .. إني أحبك ولولا حيك
 لما اضطرت أن أقول لك كل شيء .. ولا أستطيع أن أعيش بغيرك وإلا لما كانت
 هناك مشكلة .. اسمعي ..

وابتسمت دولت في هدوء وحنان وقالت :

- انتظري ثانية واحدة ..

ثم قامت في عجلة وخرجت من الغرفة وعادت بعد لحظة تحمل كوباً من
 شراب البرتقال :

- لا تتكلم قبل أن تشرب هذا الكوب .. واجلس مستريحاً .. أرح

ظهرك على مسند القعد ..

وشرب العصير وأراح ظهره وهذا فعلاً .. وبدأ يروي القصة كلها .. من
 يوم أن تبينا بثينة إلى أن حملت منه .. وكانت دولت هادئة طول القصة لم
 تنفعل ولم تقاطعه .. وكان هو الذي يقطع الكلام وينظر إليها في دهشة ويقول :

- هل كنت تتصورين أن يحدث هذا ؟ ..

وترد عليه بهدوء :

- أكمل الحكاية .. وبعدها ستعرف ما كنت أتصوره ..

وأتم الحكاية .. وصل إلى أن اعترف لها بأن بثينة حامل منه .. ويرغم ذلك
 لم تفاجأ ، ولم تصرخ ، ولم تثر ، ولكنها .. بدأت تتكلم في هدوء ..

- إني أعرف كل شيء .. وقد كنت فرحة عندما بدأت بوسى تجذبك إلى
 قضاء السهرة في البيت .. كنت أعرف أني أصبحت بالنسبة لك مجرد إحساس
 بالوفاء والعشرة والمشاركة في البناء والاطمئنان ، وكل ذلك ليس فيه إغراء لرجل
 في عز رجولته .. ولذلك فرحت بأن بوسى أصبحت هي الإغراء الذي يزيد
 من ارتباطك بالبيت ، وبني .. وكنت أحس بمدى المعاناة التي تبذلها حتى توقف
 هذا الإغراء عند حد معين .. ولكنك لم تستطع أن تستعرق المقاومة التي تسبب
 لك هذه المعاناة .. وعاشرتها .. وأستطيع أن أحدد لك متى بدأت .. إنها
 ليلة أن سمحت لها بالسفر معك إلى الإسكندرية .. كنت أعلم أنك ستأدى
 معها ولكني لم أكن أقدر أنك ستأدى إلى هذا الحد .. كنت أعتقد أنها ستبقى
 عذراء .. ولكني عرفت أنها لم تعد .. إن المسكينة تحاول دائماً أن تخفي عنى
 ولكنها لا تدرى أني صنعت كل قطعة منها بيدي حتى أصبح من السهل على
 أن أكتشف كل ما يلزم بها .. وقد قاسيت أيامها .. إن ابنتي لم تعد عذراء ،

وزوجى هو المسئول . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل . إنها تحبك لو كنت قد قاومت حبها فربما أثرت فيها إحساسها بأنها متبينة وليست ابنتى . وتصورت أنى أضطهدها أو أغار منها فتهرب منى . وأنت أيضاً تحبها ولو أثرت مشادة معك وحاولت أن أحرمك منها ، فربما زاد إحساسك بأنى لم أعد امرأة بالنسبة لك وأنى أحرمك من حقلك فى متعة وجولتك فتثور على وتهجرنى . . . كان كل ما يشغل بالى دائماً هو أن أحفظ بك وبها . . . وماذا يهم ، إنى أعلم أنك كنت تذهب إلى نساء أخريات قبل أن تذهب مع بوسى ، فما الفرق ؟ - بل إنى أحياناً كنت أتصورها كأنها زوجتك الثانية . . . إن جدى كان متزوجاً من أربع نساء يجمعهن الأربع فى بيت واحد . . . لأفترض أنى أعيش فى أيام جدى . . . ثم حملت منك . . . إنى لم أكتشف فى الشهور الأولى . . . ولم تحاول طبعاً أن تستعين بى . . . وليس صحيحاً أنها احتفظت بالحمل متعمدة كما أخبرتكم . . . ولكنها اعتمدت على صديقاتها فى إسقاطه . ولم يكن لديها الجرأة لتذهب إلى طبيب . . . وقد اكتشفت حالتها بعد مدة . . . وربما اضطرت أن تذهب إلى الطبيب بعد أن وصلت إلى حالة اليأس . . . إنها ساذجة فى هذه المواضيع النسائية برغم ذكائها المعروف عنها . . .

وقاطعها وهو يستمع إليها فى دهشة :

- المهم . . . ما رأيك . . . ماذا تعمل ؟ .

وابتسمت كأنها وافقة بأنها أعدت كل شيء :

- أقول لك الحق . . . إنها ابنتى . . . برغم كل شيء . . . إنى أحس بها ابنة لى . . .

ولا أريد لابنتى أن تنجب فى الحرام . . . ويجب أن تتزوجها . . . إنك لن تستطيع أن تتزوجها فى مصر لأن قانون التبنى يمنعك ولكنك تستطيع أن تتزوجها بعيداً

عن مصر . . . نسافر نحن الثلاثة إلى باريس أو إلى عاصمة أخرى وتتزوجها هناك . . .

وقاطعها :

- هل ستتزوجها أنا وأنت . . .

وقالت مبتسمة :

- آسفة . . . أقصد طبعاً أن تتزوجها أنت . ويبقى الزواج سرّاً . . . ثم تضع مولودها هناك . . . وتبقى فى الخارج ستة شهور أو أكثر وتعود وأنا أحمل الطفل على أنى تبنيه من أحد الملاجئ هناك ، وكل الناس هنا يعلمون أنى أريد أن أتبنى طفلاً آخر بعد أن كبرت بوسى . . . ومنذ شهور وأنا أذيع بين كل الأصدقاء أنى أريد أن أتبنى مولوداً جديداً بل إن أم عطية الفضالة عرضت على من أيام تبنى طفلة أنجبها شقيقتها . . . المهم سنعود وأنا أحمل طفلك على أنى تبنيه ولن يغير ذلك شيئاً فى واقعه فأمة الحقيقية ستبقى معه وأبوه معه ويحمل اسمه . . . أما بالنسبة لى فلاشئ تغير أيضاً ، فقد كنت أتبنى من الملاجئ ، والآن يمكن أن أتصور أنه أصبح لى ملجأ خاص . . . وهو بوسى نفسها . . . بوسى أصبحت ملجأى الخاص . . . وحتى يكون أولاد هذا الملجأ أقرب إلى قلبى فإنى أتصور أنى أنا التى كلفتك بإنجابهم لى . . . إنها مجرد عملية تلقيح صناعى بشكل خاص . . . بما أن التلقيح لا يصلح لى فقد جربناه فى بوسى ونجح . . . ومن يدرى . . . ربما بعد سنة أو سنتين تنفق على إجراء تلقيح آخر وأتلقى من ملجأى الخاص . . . من بطن بوسى . . . طفلاً آخر . . . اعمل حسابك . . . إنى أريده ولداً . . .

وكان يستمع إليها فى دهشة . . . دهشة لا يدرى كيف يفسرها . . . ولا كيف

يحكم عليها .. وكيف يحكم على دولت .. إنه لم يكن ينتظر منها كل هذا ..
وقال في وجوم :

- إنك نسيت أن تقدرى أنى أحبها .. أنت تحبينها كابنة ولكنى أحبها
كامرأة .. إنى أحبها فعلاً ...

فألت من خلال ابتسامتها الهادئة :

- ما هو الحب .. إنه العطاء .. وقد أعطتك مالا أستطيع أن أعطيه لك ..
أعطتك متعة الجسد وقد انفصلت أنا عنك جسدياً منذ سنين .. وها هى تعطيك
الخلف الذى عجزت أن أعطيه لك .. ولهذا لا أغار منها ، بل أحس كأنها
تكمل ما ينقصنى .. لو كنت أعطيتك متعتك كرجل وانجيت لك لما دخلت
بوسى بيتى ولما تركتها تعطيك شيئاً ..

- إذا كان الحب عطاء .. فماذا أعطيها أنا .. ماذا أعطى بوسى ..
- تعطيها كل ما لا تستطيع أن تعطيه لى .. وأنت لا تستطيع أن تمارس
الجنس معى ولا أن تنجب منى ..

- مستحيل .. هذا لا يكفى .. إن الحب ليس صفقة تجارية وليس مجرد
عملية حسابية يقوم بها العقل وحده .. إن الحب عاطفة .. إحساس .. والعاطفة
تعطى أكثر مما يعطى العقل ، أو أن العقل يصبح فى خدمة العاطفة ..

- إنك تنجى أنا أيضاً يا محمد .. وهم يقولون أن ليس من حق الإنسان
أن يحب اثنين ولكن هذا كلام فارغ .. فإن من حق الإنسان أن يستكمل
ما تحتاج إليه طبيعته .. وبأخذ من كل واحدة ما ينقصه من الأخرى .. ويجب
أن تعطيها ولكن ليس على حساب ما تعطيه لى ..

- إنك إنسانة مجردة من العاطفة .. ليس لك قلب ولكن لك عقلان ،

عقل فى رأسك وعقل فى صدرك .. وأستطيع أن أكشف الآن أنك منذ اليوم
الأول الذى التقينا فيه وأنت تأخذينى بعقلك .. أخذتني على أمل أن تحملى
وتنجى لأنك لم تنجى من زوجك الأول ولو كنت قد أنجيت منه لما التقينا أبداً ..
ثم بعد أن جربت معى ولم تنجى أيضاً بدأ عقلك الذى ينظم ويحدد احتياجاتك
يقنعك بأن تأخذينى كابتنة بالتبى .. إن عواطفك نحوى هى نفس عواطفك
نحو بوسى .. عواطف التبنى التى تكنى بالإحساس بالملكية .. لذلك لم تغار أبداً
على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجرى فى حياتى الخاصة .. كأتى أم ،
لا تغار على ابنا من عشيقاته ومغامراته لأنه سيبقى دائماً ابناً .. ولم تغار من بوسى
وإلى الآن لا تغارين منها حتى بعد أن حملت منى ، كل ما يهيك هو الحرص
على ملكيتك لى ولها ..

وردت محتدة :

- إنك تظلمنى .. إنى أحبك إلى حد أنى أضحي بما يسعدنى لأحتفظ لك
بما يسعدك .. ماذا كنت تريدنى أن أفعل وأنا أحس بعجزى ونقصى ..

- كنت أريد أن يكون حبك أقوى من عجزك .. ألا تقبلى أى وضع يمس
حبك .. كنت أريدك أن تغارى دائماً وأن تثورى على .. أن تحفظى باحترام
حبك كاملاً حتى لو ضحيته بى .. كنت تستطيعين أن تنقذينى من حب بوسى ،
وتنقذى بوسى من حبها لى منذ بدأت تلاخطين ضعف كل منا نحو الآخر ..
ولكنك لم تحاولى .. لأنك ضامة ملكيتك لنا نحن الاثنين ..

- ماذا كنت تنتظر منى ؟

- لا أدرى .. إن كل ما يهمنى الآن هو مستقبل بوسى .. إن الحب عطاء
كما تقولين ، والعطاء الذى تحتاج إليه بوسى الآن هو أن تواجه المجتمع بصراحة

وأن يكون مولودها لها وتبأهى به أمام الناس . . لا أريد أن أظلمها وأظلم ابني
معه . . كيف . . كيف . . لا أدري . .
واقتربت منه ومدت يدها تربت على كتفه وتمسح بأصابعها على شعره
الأبيض * وقالت في حنان :
دعني أفكر لك . . اطمئن . . كل شيء له حل . .

❖ إنه يرى بأذنيه ❖

إن محمود شخصية معروفة مشهورة . . إنه مشهور شهرة التابعى بائع الفول ،
أو شهرة حامد محمود بائع الأحذية ، أو بنترومولى بائع قطع الأثاث ، أو فلقلة
بائعة الطعمية ، أو الشوربجي بائع الملابس الداخلية ، أو شهرة زكى السماك . .
شهرة البائع المتخصص الفنان الذى يستطيع أن يخدم الزبون حتى يكسبه ويحتفظ
به ، ويستطيع أن يجعل من كل زبون طعماً يرميه فى السوق ليصطاد به عشرة
زبائن آخرين . .

ومحمود متخصص فى بيع الكأس . .

إنه بارمان . . أو ساق ، بلغة قاموس مختار الصحاح . .
وهو لم يرث هذا التخصص عن أحد من عائلته ، ولم تدفعه إليه هوايته
للكأس ، فهو إلى الآن وبعد أن أصبح أشهر « بارمان » فى مصر ، لا يشرب
الخمر إنما فقط يذوقها بطرف لسانه كلما أراد أن يتأكد من سلامة زجاجة منها ،
أو كلما أرد أن يختبر تركيباً جديداً من تراكيب كؤوس الكوكيتيل
التي تضم خليطاً من أنواع الخمر . . ومنذ أن كان فى بلدته كفر نعيمه مركز
طلخا وهو يتخيل لمستقبله مختلف الصور . . يتخيل نفسه ضابط بوليس ،
أو طبيباً ، أو مدرساً ، أو زعيماً سياسياً ، ولم يخطر على باله أبداً أن يتصور نفسه

ساقيا يقدم الخمر، ولم تكن كل دنيا خياله تتسع لمجرد أن يرى نفسه فيها واقفاً في حانة .
 وحصل على الشهادة الابتدائية ثم بدأ رحلة كل يوم إلى البندر ليصل
 إلى المدرسة الثانوية . . ولا تزال أحلامه تصور له مستقبله كما كان يراه منذ
 كان طفلاً . . ضابطاً . . طبيباً . . مدرساً . . زعيماً . . إلى أن وجد نفسه
 يعيش المشكلة العادية التي تمر بملايين العائلات . . مات الوالد ولم يترك شيئاً
 سوى أم وخمسة أخوة ومعاش قيمته خمسمائة وثمانون قرشاً في الشهر . . تسلم
 منه العائلة خمسمائة قرش فقط والباقي يذهب إلى الدولة ممثلة في شخص الصراف . .
 وأصبح مضطراً أن يعمل ويكسب ثمن وجوده بعرق جبينه ، وكان له قريب لأمه
 يعمل جرسونا في فندق كبير من فنادق القاهرة ، فذهب إليه لا ليعمل معه في نفس
 الفندق إنما ليجث له عن أي عمل في القاهرة التي كانت تمثل له ولكل أهل
 قرينته غابة في الجنة . . يكتفي أن تمد يدك لأي شجرة منها لتقطف ما تشاء . .
 وهو يريد أن يقطف عملاً يكفل له أن يستمر في الحياة إلى أن يصبح ضابطاً
 أو طبيباً أو مدرساً أو زعيماً . . وكل ما كان يتمناه في هذا العمل ألا يستغرق كل
 يومه حتى يترك له الفرصة ليستمر في دراسته الثانوية . .

ولكن قرينه أخذته معه في نفس العمل . . ووجد نفسه سفيراً صغيراً . .
 أو مساعد سفير . . ووجد نفسه يتدمج بسرعة في هذا العالم الجديد . . ولعله
 اكتشف نفسه أو اكتشف مواهبه . . وأخذ يفهم كل شيء بسرعة عجيبة ،
 ويحفظ أسماء المأكولات والأدوات بسرعة أكبر ، ثم بدأ يفهم الزبائن . .
 إن أهم شيء في المهنة هو أن تفهم الزبون ، فكل زبون له عقلية خاصة ومزاج
 خاص ونعم خاص من نعمات الأوتار العصبية ، ولا يكتفي أن تقدم للزبون ما يطلبه ،
 بل المهم هو الأسلوب الذي تقدم به . . هذا زبون تتطلب معاملته ابتساماً وكلمة

عذوة وقد تروى له قصة حياتك وأنت تقدم له طعام العشاء . . وهذا زبون تتطلب
 معاملته نوعاً من التعالي عليه بما يشبه الاحتقار لأنه تعود ألا يكون مهذباً إلا بالتعالي
 عليه فإذا دلتته أو ضعفت أمامه حاول أن يركبك وينش لحملك . . و . . و . .
 المهم أن تفهم الزبون وعلى قدر فهمك تستطيع أن تكسب سمعة بين الزبائن
 وتستطيع أيضاً أن تحصل على الحد الأقصى من البقشيش . . فالبقشيش لا يعطى
 فقط كمجرد مكافأة على عمل بل قد يعطى أيضاً كرشوة ، أو قد يعطى كنوع
 من الظاهر إذا كان الزبون في حالة يريد أن يعلن فيها أمام فتاة تصحبه أنه
 حليفه هارون الرشيد ، وأبخس وأحق أنواع البقشيش هو الذي يدفعه الزبون
 إحباراً وبحكم النص عليه في فاتورة الحساب . .

واستطاع محمود أن يكسب نجاحاً كمساعد سفير أو كسفير صغير . .
 نجاحاً بين رؤسائه ونجاحاً بين الزبائن . . ولكنه وجد نفسه مشدوداً دائماً إلى
 عالم البار الذي يتولى زعامته الرئيس مهداوى محمد . . الرجل الثوبى الذى
 مصفى عليه وهو يقود البار أكثر من ثلاثين سنة . . منذ أيام الإنجليز . . كان
 محمود ينظر إلى البار من بعيد كأنه ينظر إلى عالم خارج مصر . . كأنه بمجرد
 أن يخطو داخل صالون البار قد عبر البحر المتوسط وأصبح في أوروبا . . لا لأن
 معلم زبائن البار من الأجانب فهم نفس الزبائن في كل مكان من الفندق ،
 ولكن لأن كل ما في البار ينقلك إلى عالم أجنبي . . الزجاجات الملونة . . الأسماء
 العجيبة . . أسلوب الخدمة . . كل شيء ليس فيه شيء من مصر ولا من الشرق . .
 إنه صورة كاملة من المجتمع الأوربي . . حتى التمثال الفرعونى . الكبير الذى
 سمعه مهداوى في جانب من صالة البار ، واللوحات التى رسم عليها التخييل
 والجمال والصحراء المعلقة على الحائط ، كل ذلك ليس له أى أثر في نقل

جو البار إلى عالم الشرق ، إنها تبدو كتحف معلقة في بيت أجنبي . .

ومحمود يريد أن ينتقل إلى أوروبا . . يريد أن يخطو فوق عتبة البار ليصل إلى هذا العالم الآخر . . واستطاع بذلك الريني الذي يخفيه وراء قناع من السذاجة البريئة ويقدمه في كل كأس من خفة الدم المهدبة . . استطاع أن يلفت نظر « المتر » مهداوى وأن يثير اهتمامه فأخذ معه مساعداً له في البار . لم يكن مساعداً إنما كان مجرد سفرجى يغسل الكؤوس وينقل الزجاجات ويطبخ الأوامر . . ولكنه كان دائماً يحصر كل اهتمامه في اكتشاف أسرار « المتر » مهداوى . . اكتشاف سر المهنة . . وعرف أسرار الويسكى . . وأسرار الكونياك . . والشمبانيا . . والفودكا . . والجين . . ثم اكتشف أسرار علم الكوكبيل . . اكتشف سر « بلودى مارى » أى مازى الدامية ، وهو كوكبيل مكون من الفودكا وعصير الطماطم والشطة والفلفل والليمون . . وسر « الأمريكانو » وهو كوكبيل آخر يجمع بين عصير الكمبارى والمارتينى والصدودا . . و . . و . . وعشرات من أنواع الكوكبيل . . إنه علم كامل صدرت عنه عشرات من الكتب والفهارس ، والأبحاث . .

ومهداوى يعتمد أكثر وأكثر على محمود ، ومحمود يكتشف أكثر وأكثر من أسرار البار ، إلى أن تعب مهداوى وذهب إلى رحمة الله وتولى العهد - أى محمود - مملكة البار في الفندق الكبير ، وكان قد عرف أن مهمة البارمان ليست مجرد أن يملأ الكأس ويقدمها ، ولكن يجب أن يكتشف الزبون قبل أن يملأ له الكأس . . إن البارمان كسائق التاكسى الذى يركب معه كل ساعة زبون لا يعرفه ، وسائق التاكسى ينقل الزبون من مكان إلى مكان ، أما البارمان فينقل الزبون من حالة إلى حالة ، فيجب أن يعرف الحالة التى هو فيها والحالة التى يريد أن ينقله إليها . .

وأكثر من ذلك . . لقد بدأ محمود مع الأيام يكتشف أن كل ما كان يحلم في صغره ليحققه كاستقبال له أصبح يحققه وهو يعمل بارمانا . . كان يحلم أن يكون ضابطاً للبوليس ، أو طبيباً ، أو زعيماً وقد وجد أن كل ذلك يجب أن يمر في شخصية البارمان وأن يمارس فعلاً اختصاصات الضابط والطبيب والزعيم . .

وهو يذكر هذا الرجل الأمريكى الذى جلس أمامه وبدأ يطلب ويشرب ، بدأ يغنى أغاني بذيئة بصوت عال ، ثم قام ووقف أمام محمود وقال في تحد :
- لن أدفع . . إن خمرك كلها مفسوسة . .

وكان من حق محمود أن يدعو فوراً رجال الأمن المتفرقين في الفندق ويقبض على الرجل ولكنه بذلك سيقى إلى بقية الزبائن ويفسد جو البار ، والأفضل أن « يمس من نفسه ضابطاً » بوليس ويتصرف ، فابتسم ابتسامته الجذابة التى تخفى خبثه وهال في مرج :

- لا يهم . . خذ كأساً أخيرة على حسابى . . انها ليست على حسابى ولكن أعاط في ثمنها أصحاب الفندق . . لا أنا ولا أنت سندفع لهم شيئاً . .

وضحك الرجل السكران ورفع كأسه صائحاً :

- يسقط أصحاب الفندق . .

وقال له محمود والرجل يهم بالانصراف بعد أن شرب الكأس :

- هل معك سيارة . .

وقال الرجل ضاحكاً ضحكة مخمور :

- نعم . . إنها قريبة . . تركتها في شارع برودواى . . ألسنا الآن في نيويورك . .

وقال محمود :

- انتظر . . سنخرج سوياً . . سأصحبك بسيارتي إلى نيويورك . . إنها قريبة من هنا . .

وقال الرجل :

- هيا يا صديقي . . ولكن على شرط أن نسر على مدير الفندق لصنع حسابنا معه . . إلى أدفع باللكمات . .

وضحك محمود قائلاً :

- وأنا أدفع بالشلاليت . .

ووضع محمود ذراعه في ذراع السكران وخرج به من البار وظل يضاحكه حتى وصل به إلى قرب الباب الخارجى وأشار إلى اثنين من حرس الفندق فتقدما وقبضا على الرجل قبل أن يقاوم ، وبقيامعه حتى أفاق ودفع الحساب واعتذر .

وهكذا كان محمود يمارس مهمة ضابط البليس التي كان يحلم بها في صغره . .

ثم بدأ محمود يحس بنفسه كطبيب مسئول ، فهو ينقل الزبون بفعل الخمر من حالة إلى حالة . . سواء حالته الصحية أو حالته النفسية . . فيجب أن يتحمل مسئولية الطبيب سواء كان طبيب الأمراض الجسدية أو الطبيب النفساني . . وكان يعتمد في علاج مرضاه على نوع وكمية الكحول الذي يقدمه في الكأس . . وهو لا يستطيع أن يرفض تقديم كأس يطلبها الزبون حتى لو وصل هذا الزبون إلى حالة أقرب إلى فقدان الوعي ، ومع ذلك يصبر على طلب كأس أخرى . . والمهم دائماً هو تحديد ما في الكأس من نسبة الكحول . . ومعظم الزبائن لا يستطيعون خصوصاً بعد الكأس الأولى تحديد نوع ما يشربونه ، إنما يصبح الأمر كله في يد محمود ، ولذلك فهو يعتمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول

هاللا زبون لا يتحمل أكثر من كأسين ، وزبون يستطيع أن يتلع عشر كؤوس دون أن يهتز . . وبناء على هذه الدراسة قد تختلف الكأس الثالثة التي يقدمها محمود من الكأس الأولى . . قد تحمل الكأس الأولى قيراطين من الويسكى ولا تحمل الكأس الثالثة سوى قيراط واحد ، ويغطي هذا الفرق بكمية الثلج أو الصودا التي يريدها على الويسكى دون أن يشعر الزبون بأى شيء . . ولم يكن محمود يغير نفسه بذلك أنه غشاش أو أنه يسرق الويسكى من أفواه الزبائن ولكنه طبيب حريص على حالة مرضاه الصحية . . مرضى الخمر . . وكان يحس بقدرة أكبر على التحكم في حالة الزبائن عند تقديم كؤوس الكوكتيل ، بل إنه أصبح من هواة إعداد الكوكتيل . . إنه يحس بنفسه كأنه صيدل يعد الدواء المركب لكل مريض . . كوكتيل «جين فيس» أى «الابنة الصغيرة» المكون من خمر الجين مصفاً إليه الليمون والسكر والصودا . . والكوكتيل الفرنسي المترفع الغالى الذي لا يقدم إلا في المناسبات العزيرة . . كوكتيل «رويال مالبيشير» المكون من الكوبياك وعصير البرتقال وعصير المشمش ثم يخلط مع شمبانيا من النوع القوى الطازج وتزين الكأس من حوله بقطع من فاكهة الموسم وصل محمود بعد أن أصبح ملك البار إلى أن أصبح يبتكر أنواعاً جديدة من الكوكتيل تنسب له ويعتمد أن يطلق عليها أسماء مصرية وكان أولها كوكتيل نفرتيتى الذى يعتمد في تكوينه على الجين والكوكترو والكمبارى وعصير الأناناس ، وأصبح نفرتيتى مشروباً عالمياً مسجلاً في كل بارات العالم ومنسوباً إلى اسم محمود . . وقد اضطر محمود أن يعتمد على نفرتيتى عندما وجد نفسه يوماً مضطراً لأن يقول بين زبائن البار مسئولية القاضي أو الزعيم الذى يصدر أحكامه تحقيقاً للعادلة . .

كان مصطفى عبد العزيز من بين زبائنه الدائمين ، وهو رجل في حوالى الأربعين من عمره يبدو وسيماً ولكنه يعتبر نفسه أكثر وسامة من حقيقته ، ويهتم بشربه الرفيع الملتصق فوق شفثيه اهتمامه باختيار رباط عنقه وتلميع حدائه . . وقد يكون ذكياً ولكنه أيضاً يعتبر نفسه أكثر ذكاءً من حقيقته ، ويلقى كلماته التافهة كأن كل كلمة تعبر عن حكمة أو اكتشاف جديد . . كان إنساناً مغروراً بنفسه وكان يستمد وقود غروره من اصطلياد عجائز السائحات . فهو دائماً في البار مع سائحة عجوز قد تسافر بعد بضعة أيام فيظهر مصطفى في اليوم التالى مع سائحة عجوز أخرى يكرر معها نفس التمثيلية . .

ولم يكن محمود يستريح له أو يستخف دمه وكان يعامله كزبون من الدرجة الثانية ، وقد عرف عنه الكثير . . عرف أنه متزوج ويسكن في حى شبرا ، وأنه تنقل كموظف بين مجموعة من الشركات ، وأحياناً يعمل كسمسار أو كوسيط في عمليات تجارية تافهة ، وأنه يعتمد اعتماداً كاملاً في اكتساب دخله على اصطلياد السائحات العجائز واستنزافهن . . إنه محترف بيع المتعة للعجائز . .

ولم يكن مصطفى عبد العزيز من مدمنى الخمر . ربما اختار البار كمجال للعمل ، يسهل عليه فيه التأثير على صيده . . وكان لا يطلب لنفسه عادة سوى كأس واحدة يتناولها في مدة طويلة وبأسلوب معين يتيح له أن يترك المرأة التى معه تشرب في نفس المدة عدة كؤوس حتى تسكر ويسهل عليه استنزافها .

ورغم ذلك فإن محمود كعادته مع كل الزبائن تعتمد أن يختبر قوة مصطفى عبد العزيز على تحمل الخمر ، فقدم له ذات مرة ما يوازى كمية ثلاث كؤوس داخل الكأس الواحدة التى تعود عليها ، فلاحظ أنه بدأ يهتز وقدر بذلك مدى قوة تحمله .

وفى ليلة دخلت البار فتاة قد لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها . . جمالها

هادئ . . شعرها ينساب برفق حول وجهها كأنه وجد هكذا دون حاجة إلى من يصفقه ، والألوان فوق وجهها كلها ألوان نائمة فى حلم سعيد لا يوقظها منه لول دجيل كأنه وجه مغسول من كل الألوان المزيفة . . وقد خبطت إلى داخل البار بعد تردد طويل وأخذت تتلفت حولها فى حيرة وارتباك ، ومحمود يتطلع إليها لطلعه إلى أى زبون جديد ، إلى أن اقتربت منه وقالت فى صوت خجول يتكسر بين شفثيها :

- من فضلك . . هل تعرف مصطفى بيه عبد العزيز . .

ونظر إليها محمود فى دهشة . . إنها ليست من النوع الذى يمكن أن يسأل عن مصطفى عبد العزيز . . كان يمكن أن تسأل عن أى زبون إلا هذا الزبون . . وأحباب وهو يقيسها بين عينيهِ ليكتشف من تكون لمصطفى عبد العزيز . . ربما كانت أخته . . لا يمكن أن تكون على علاقة عاطفية معه فهى تبدو أنظف من أن تكون على علاقة مع مثله . . أجاب :

- نعم . . أعرفه . .

قالت وهى أكثر تردداً وحياء :

- هل يأتى هنا . .

ولم يكن من طبيعة محمود أن يقبل الإجابة على أى سؤال خاص بأحد من زبائنه . . إنه يحترم دائماً سر المهنة . . ولكنه أجابها كأنه يضع نفسه فى خدمتها :

- إنه دائماً هنا . .

وعادت الفتاة تتلفت حولها فى حيرة . . وفى هذه اللحظة دخل مصطفى عبد العزيز ولحقه محمود من بعيد وهو يبدو مرتبكاً عندما وجد الفتاة فى البار وإستدار كأنه يحاول الهرب ، فأشار محمود إلى الفتاة بسرعة فلمحت رجلها

المحارب وجرت إليه . .

وعاد مصطفى عبد العزيز مع الفتاة إلى البار وسمعه محمود وهو يقول لها :

- لا شك أنك جنت . . منذ متى تعودت دخول البارات . .

وقالت الفتاة وصوتها كأنه نأهب للبكاء :

- جئت أبحت عنك . . يجب أن تنتهي إلى حل . .

وقال لها :

- لا يمكن أن نجد الحل هنا في البار . . إني في انتظار بعض الأصدقاء

الآن لتتحدث في عمل . . اذهبي الآن . . وولتني غدا . .

ومحمود يستمع له وهو بعيد عنهما . . لقد عود أذنيه على الاستماع من بعيد

ويستطيع أن يوجهها في أى اتجاه لسمع ما يريد . . كأنهما عيناه . . إنه يرى

بأذنيه . . ومنذ تفرغ للبار انقطع عن دراسته الثانوية وأخذ يتردد على المعاهد الخاصة

ليدرس الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضاً حتى يفهم كل ما يدور حوله من أحداث

الزبائن . . ومن خلال أذنيه رأى الكثير . . رأى صفقات تعقد ، ورأى حوادث

حب ، ورأى سرقات . . ورأى . . ورأى . . وهو يرى الآن بأذنيه هذا الرجل وهذه

الفتاة . . والرجل يكذب عليها . . إنه ليس هنا للقاء أصدقائه . . إنه هنا

ليزاول مهنة بيع المتعة لعجائز النساء . . وهو يستطيع أن يقدم لهذا الزبون الكاذب

كأساً تدفعه إلى الصدق . . لا تكذب على هذه الفتاة المسكينة . . لا تكذب . .

ورفع من كمية الويسكى التي تعود أن يقدمها لمصطفى ثم أضاف إليها نقطتين

من مشروب الجين وقدم الكأس والفتاة تقول :

- لم أعد أحتمل الغد . . لقد أعددت كل شيء . .

وشرب مصطفى الكأس وقال ساخراً :

- ماذا أعددت . . أعددت فضيحة أم جريمة . .

وبكت وتساقط دموع صامتة على وجنتي الفتاة وقالت :

- ارحمنى يا مصطفى واسمع لى . .

وتقدم محمود بسرعة بعد أن رأى دموع الفتاة قائلاً :

- أستاذ مصطفى . . اسمع لى أن أقدم لك نفرتيتى . . إني أحتفل اليوم

بميلادها . . فى مثل هذا اليوم ولدتها وجعلت منها أجمل كوكبيل فى العالم . .

كل الزبائن يجب أن يحتفلوا بنفرتيتى . .

وقال مصطفى وقد بدأت كأس الويسكى تهز لسانه :

- عجيبة . . لم أرك أبداً كريماً إلى هذا الحد . .

وتجاهله محمود والتفت إلى الفتاة قائلاً :

- والآنسة أيضاً . . يجب أن تحب معنا نفرتيتى . .

ونظرت إليه الفتاة فى ارتباك كأنها لا تفهم ماذا يقول وأطلق مصطفى ضحكة

صاحبة قائلاً :

- اشربي . . لقد أصبحت أنت أيضاً من زبائن البار . .

وعاب محمود لحظات وأعد الكؤوس كما أرادها . . الصبيل الذى قرر

أن يكتشف دواء للكذب . .

وشرب مصطفى . .

ثم مد يده وغضب الفتاة على أن تشرب . . لم تكن هذه هى عادة مصطفى

ولا كانت من عاداته أن يتصرف تصرفاً مفضوحاً . . ولكنه تأثير نفرتيتى . . وقالت

الفتاة وهى تبلع الكأس :

- إسمعنى . . لقد كنت تقول إنك تنتظر حتى تجمع من المال ما يكفينى . .

لقد جمعته أنا . . أخذته من البيت وجئت به إليك . .

وقال مصطفى وقد التوى لسانه :

- إن كل ما فى بيتكم لا يكفى خطوة واحدة نحو المأذون . . ولو كان مأذون كلاب . .

ثم شد حقيبتها وفتحها والتقط ما فيها ثم صرخ ضاحكاً ضحكة سكرى قائلاً :

- خمسون جنياً . . ها . . ها . . ها . . هل تعرفين كم أخرج فى الليلة الواحدة من أى سائحة . . مائة . . مائتين . . أكثر . .

وقامت الفتاة وقد بدأ لسانها هى الأخرى يرتج :

- لا أعلم يا مصطفى . . ماذا تقصد . . هذا كل ما وجدته فى البيت . .

وقال السكران :

- البيت الذى ليس فيه إلا خمسون جنياً . . خرابة . . وأنا لن أتزوج ولو كان فى بيتك ألف . . كفى زواج . . الولية فى بيت شبرا مطلمة دينى . .

وصرخت الفتاة :

- هل أنت متزوج . . متزوج يا مصطفى . . خدعتنى . . ماذا أفعل الآن . .

وقام مصطفى مترنحاً من فوق مقعد البار ، وضع الخمسين جنياً فى جيبه وقال مترنحاً :

- عودى إلى بيتك إلى أن تجدى شيئاً آخر ثم تعود وتفكر . .

وانطلقت الفتاة وهى تصرخ :

- خدعتنى . . يا مجرم . . يا لص . .

ثم رفعت كفها وصفعته بكل قواها . .

وابتسم محمود وهو خلف البار لهذه الصفحة ، ثم قفز نحو الفتاة والرجل

وأمسك بهما فى رفق وقادهما إلى خارج البار ، وقال هامساً لمصطفى :

- كن هادئاً . . رجال الأمن وراءنا . .

واحتقن وجه مصطفى بالذعر وانقاد إلى محمود ومعه الفتاة ، وفى زاوية بعيدة خارج البار استطاع أن يحقق العدالة . . وكانت العدالة التى أرادها عن طريق نفرتيتى هى أن تكتشف الفتاة حقيقة مصطفى . . وقد اكتشفها . .

هكذا كان محمود . البارمان المشهور . . ساق الخمر . . عيناه فى أذنيه . .

إلى أن بدأت أذنا محمود تتجهان إلى زبونه رفعت عبد اللطيف . . المقدم

رفعت عبد اللطيف . . وهو زبون قديم وإن كان يعتبر من زبائن الثورة ،

أى الزبائن الذين لم يظهروا إلا بعد الثورة وتقاس قيمة كل منهم بقيمة مركزه

بالنسبة للثورة . . وهو زبون للبار طالما ظل محتفظاً بمنصبه ، فإذا ترك المنصب

ترك البار . .

وقد لاحظ محمود أن المقدم رفعت أصبح يلتقى كل ليلة داخل البار مع

صديق لم يكن أبداً من زبائن البار . . وعرف أن هذا الصديق هو أيضاً ضابط . .

ومع الوقت سمع اسمه . . سعيد المر . . وكانا يجتمعان مستندين على حافة البار

ناحية الركن البعيد . . وكان حديثهما غالباً أقرب إلى الجنس حتى كان محمود

يضايق أن يبذل مجهوداً كبيراً ليلتقطه بأذنيه ، وبدأ يعتمد أن يرفع من نسبة

الكحول أو يضيف إليه عناصر أخرى حتى يرفعاً صوتيهما فيسهل سماعهما . .

ولم يبدأ اتهامه بتوجيه أذنيه إليهما بمجرد أنهما من رجال الجيش ، ولكن لأنه سمع

منهما بالصدفة كلمتين أثارتا حيرته وأثارتا مع الحيرة شهوة الاستماع واكتشاف الأسرار .

كان المقدم رفعت يقول :

- لازم تخلص .. وتخلص بسرعة ..

وأجاب الرائد سعيد المر :

- السرعة ليست في صالحنا .. كل الدواهي سببها التسرع ..

وفي ليلة أخرى قال المقدم رفعت :

- الراحل بتاعنا اقتنع .. لم يبق إلا تحديد الموعد ..

وسمع الرائد سعيد يقول :

- الجماعة بتوع سوريا مستعدين .. كنت معهم منذ ساعات ..

وبدا محمود يقتنع بأن هناك مؤامرة تدبر .. ربما انقلاب .. ربما عملية

اغتيال .. وليس غريباً أن تتم لقاءات المتآمرين في بار .. بالعكس .. إن حوادث

خطيرة وهامة ترسم داخل البارات .. فهنا - في البار - يأمن المتآمرون من عدم

إثارة الشبهة .. لا أحد يمكن أن يتصور أن اجتماعاً خطيراً يمكن أن يعقد في بار ،

ولا حتى رجال البوليس .. فقط رجال المخابرات الذين يمكن أن يكتشفوا

أسرار البارات .. ومحمود ليس من رجال المخابرات .. ولا يدري إذا كان

بين زبائنه مخابرات ، أم لا .. وإذا كان هناك رجال مخابرات فهل تنبهوا

إلى هذه المؤامرة أم لا .. وأذناه لا تكفان عن تتبع المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد

سعيد المر وتلتقطان تفاصيل كثيرة خطيرة لا يدري كيف يتصرف فيها .. إلى أن

سمع الرائد سعيد المر يقول ذات ليلة للمقدم رفعت عبد اللطيف :

- غدا سننشر في الصحف حكاية الجاسوس الإسرائيلي الذي اكتشفناه ..

من باب التغطية .. وسيستمر النشر .. وقد تم العملية يوم الرابع أو الخامس

من الشهر القادم ..

وأجاب المقدم رفعت :

- التحركات كلها حددت .. وعلى بركة الله ..

والدعاء تغل في عروق محمود .. إنه لا يدري ماذا يفعل بكل هذا الذي

يسمعه .. بل إنه يراه .. إنه يرى ما يسمعه .. يرى بأذنيه .. يرى مصر تنقلب

أمام عينيه .. ربما كان من الخير له أن يتجاهل كل هذا الذي يسمعه .. ماله

ووال البلاوى .. وأعد لنفسه كأساً من عصير التيناع المركز حتى يهدئ أعصابه ..

يجب أن يقتنع نفسه بأن كل هذا لا يهيم ، وليس من اختصاصه أن يهيم ..

إنه ليس مخابرات .. وهو يسمع أن البلد كلها غارقة في بحر من المخابرات ..

ويكنى الاتكال على المخابرات ..

ولكنه في صباح اليوم التالي فتح الصحف إنها كلها تنشر حكاية الجاسوس

الإسرائيلي .. إن الخطة تأكدت .. كل ما سمعه يحدث .. لم يبق إلا أيام

وتتم العملية .. ماذا يفعل .. كيف يتصرف .. إنه لا يريد أن يقوم انقلاب

في مصر .. إن مصيبة جديدة لن تحل المصيبة القائمة .. والبلاوى لا تحلها

البلاوى .. وفرعة الفلاح الشهم تملأ كل إحساسه وتقرص كل أعصابه ..

ورغم ذلك كله لا يدري ماذا يفعل ..

إلى أن يدخل إلى صالة البار بهجت شكرى .. إنه ليس من زبائن البار ولكنه

يتردد عليه في فترات متباعدة كلما جاء إلى الفندق في إحدى المناسبات ..

وهو يعلم أنه يحتل مركزاً هاماً في مكتب الرئاسة .. ربما كان مدير مكتب ..

أو سكرتيراً خاصاً .. أو مستشاراً .. المهم أنه في أحد أركان الرئاسة العليا ..

ومس محمود في أذنه وهو يقدم له الكأس :

- أرجو أن تسمح لي بلقاء .. إنه موضوع هام ..

ورد بهجت ضاحكاً :

- إنك هكذا ملك الدنيا يا محمود .. فماذا تريد أكثر ..
 وقال محمود وهو يتطلع حوله حتى يتأكد أن المقدم رفعت لم يصل بعد :
 - إنه موضوع لا يتعلق بى .. يتعلق بالبلد .. بالمصير .. وأفضل أن أراك
 فى مكتبك ..
 ونظر إليه بهجت شكرى نظرة جادة كأنه قدر أن يكون الأمر خطيراً فعلا ،
 ثم قال وهو يحفظ ابتسامته :
 - هل يهون عليك البار تتركه بعد نصف ساعة ..
 وقال محمود كأنه فوجئ بسرعة تلبية طلبه :
 - ألا يمكن أن أتركه غداً صباحاً ..
 وقال بهجت وقد اتسعت ابتسامته أكثر :
 - إذا كان الموضوع متعلقاً بالمصير فلا يحتمل التأجيل إلى الغد .. سأكون
 فى انتظارك فى مكنتى بعد نصف ساعة وسأترك تعليقات بإدخالك فوراً ..
 أمثالك ما محمود لا يؤجل لهم طلب ..
 ثم قام بهجت شكرى وانصرف بسرعة خارجاً من البار ..
 ووقف محمود متجهداً كأنه أصيب بالشلل .. ويقول لنفسه إنه مجنون ..
 التى نفسه فى مصيبه .. ماله ومال المصائب .. إنه ليس مسؤولاً عن إنقاذ البلد
 من المصائب .. إنه لن يذهب إلى بهجت شكرى .. ولكنه لا يستطيع .. قد يرسل
 وراءه البوليس للقبض عليه .. سيذهب ولكنه لن يقول شيئاً .. سيدعى أنه
 كان يريد له حتى يتوسط له فى شراء سيارة نصر ، أو استجار شقة .. ولكنه قد
 يكشف كذبه .. واستسلم محمود .. استسلم لقدره .. وذهب إلى مكتب
 بهجت شكرى الذى يقع بين مكاتب الرئاسات ..

واستقبله حارس من جنود الجيش .. صحبه إلى مكتب ضابط من ضباط
 الجيش .. وصحبه الضابط إلى غرفة صغيرة ليس فيها أحد وليس فيها مكتب ..
 لعلها غرفة انتظار .. وتركه الضابط وحيداً وخرج وأغلق الباب وراءه ..
 ومضت أكثر من نصف ساعة ومحمود لا يزال وحيداً ، وأعصابه تنمزق ، وأنفاسه
 تضيق وأوهام كثيرة تملأ رأسه .. وفجأة فتح الباب ودخل بهجت شكرى ..
 دخل مرحباً مبتسماً وهلل فى مرح :
 - آسف .. تأخرت عليك .. ألم يقدموا لك شيئاً .. هل تريد كأساً من
 الويسكى .. إنك الآن الزبون وأنا البارون .. اطلب ما شئت .. وإن كنت
 لست أستطيع أن أخدمك قدر خدماتك لنا ..
 وقال محمود وهو يتطلع توتر أعصابه ويحاول أن يتجاوب مع ابتسامه بهجت :
 - ألف شكر .. أريد أن أقول ما عندى وأعود إلى البار .. تأخرت كثيراً ..
 وقال بهجت فى تواضع :
 - آسف يا متر محمود لأنى أخرت عودتك .. احك لى ..
 وبدأ محمود يحكى ، وربما كان قد قرر أن يكون حربصاً فى كل كلمة
 يقوط .. ألا يقول كل شيء .. وألا يتهم أحداً .. ولكنه ما كاد ينطق حتى
 غلبه حماسه ، وسيطرت عليه فكرة محاولة إنقاذ مصر من انقلاب آخر ، وانطلق
 بروى كل شيء .. يصف كل ما رآه بأذنيه ..
 وظل شكرى يستمع إليه صامتاً دون أن يرفع إليه عينيه .. ثم بدأ يسأله أسئلة
 كثيرة قصيرة :
 - منذ متى بدأت تسمع هذا الكلام ..
 ويحيب محمود فى حماس :

- منذ أكثر من شهرين ..

ويسأل بهجت :

- ألم تر أحداً ينضم إليهما في هذه الأحاديث ؟

ويرد محمود :

- لا .. ولكن الرائد سعيد المر كان دائماً يبق قليلاً ثم ينصرف في خطوات سريعة كأنه على موعد آخر .. وتتوالى أسئلة بهجت شكرى وترتفع درجة حماس محمود في إجاباته .. إلى أن استأذن بهجت :

- عن إذنك يا محمود .. سأعود إليك ..

وتركه وحيداً والباب مغلق عليه ..

وبضت نصف ساعة .. وبدأ محمود يتململ .. ونصف ساعة أخرى وبدأ ينهار .. لعلمهم سيتركونه هنا إلى الأبد .. لعلمه مسجون .. لعلمهم نسوه .. وحاول أن يفتح الباب فاكشف أنه مغلق بمفتاح أو تراباس .. ودق يده على الباب .. وفتحه .. ضابط من ضباط الجيش .. لقد وضعوا عليه حارساً .. وقال الضابط في رفق :

- هل تريد شيئاً ..

وقال محمود في رعدة :

- أريد أن أخرج من هنا ..

وقال الضابط في رفق :

- بعد قليل بإذن الله .. السيد بهجت مشغول قليلاً ..

ثم عاد وأغلق عليه الباب ..

والساعة قد وصلت إلى الثالثة صباحاً .. ووصل محمود إلى حد الانهيار .. إنه جالس على المقعد ورأسه بين يديه كأنه يودعها قبل أن تقطع .. إنه يعلم

الطيلة هؤلاء الناس .. إنهم يذبحون كل من يعلم شيئاً عن دنياهم حتى لو كان يحاول إنقاذ هذه الدنيا .. آخر خدمة الغز علة .. وهو الآن في انتظار العلة ..

صباح انتهى ..

وبحاجة فتح الباب ..

ودخل بهجت شكرى .. وفقر محمود كأنما لسعته النار عندما رأى اثنين يدخلان معه .. المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر .. وارتعش .. لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه فسقط على مقعده كأنه انتهى ..

وقال بهجت شكرى في هدوء :

- أرجوك يا محمود أن تعيد ما سمعته منك .. لا تخف .. إنه فقط أسلوب

المواجهة في التحقيق ..

وقال محمود ولسانه يتلثم مع تمزق أنفاسه :

- أنا لم أتهم أحدا .. إني فقط قلت كلاماً سمعته .. لم أقصد شيئاً ..

لم أقصد شيئاً ..

وعاد بهجت يكرر أمامه بعض ما قاله .. وهو يهز رأسه أحياناً .. وأحياناً يعود ويقسم أنه لا يتهم أحدا .. وعيناه زائغتان .. تنتقلان في فزع بين المقدم رفعت والرائد سعيد ..

ثم بدأ الرائد سعيد المر يتكلم ويسأل محمود :

- ألا تذكر الرجل الأمريكي الذي كان يدخل البار كل مساء ..

وقال محمود وهو يطوى نفسه في مقعده :

- أى أمريكى .. إنهم كثيرون

وقال سعيد المر ..

- اسمه بيتر برسون .. لاشك أنك تعرف اسمه ..

وقال محمود :

- نعم أعرفه ..

وعاد سعيد المر يقول :

متى سافر بيتر هذا؟

وقال محمود :

- أول أمس على ما أعتقد ..

وقال سعيد المر :

- ألم تلتق معه في حديقة الفندق مساء الثلاثاء الماضي ..

وقال محمود :

- إنه زبون صديق كبقية الزبائن ..

والثقت سعيد المر إلى بهجت قائلاً :

- كما قلت لك .. إنه تخطيط أمريكي .. والهدف واضح .. إثارة

الانقسام في الجيش ..

وهز بهجت رأسه موافقاً ، ثم خرج الثلاثة من الغرفة ..

وفي الصباح وجد محمود نفسه في السجن الحرى ..

ومضت أربع سنوات ومحمود مختلف عن البار ، وكل الزبائن يعتقدون

أنه سافر للعمل في الخارج .. وتعدد القصص والحكايات .. إنه في باريس ..

إنه في أسبانيا .. إنه في أستراليا .. لقد تزوج من أمريكية .. لقد أصبح مليونيراً

وافتح باراً في هونولولو .. ولم يخطر على بال أحد من الزبائن أنه ملق في السجن

الحرى .. هكذا محاكمة ، ولا حتى مجرد تحقيق داخل السجن . كلهم

يسوء هناك ..

وفجأة ظهر محمود داخل البار ..

لقد عاد ..

وهو يقبل على الزجاجات والكؤوس في لفة كأنه فنان يعود إلى فرشاته وألوانه

بعد غيبة طويلة ..

واستقبله الزبائن بالتهليل ، ولكنه يتلقى تهليلهم بابتسامة باردة كأنه لا يسمعهم ..

إنه لا يسمع فعلاً ..

إنه يضع في كل أذن من أذنيه قطعة ثقيلة من القطن فوق قطعة من الصمغ كأنه

كان يضع فوق عينيه غمامة سوداء ..

لم يعد يرى بأذنيه ..

وبدأ يعود زبائنه على أن يقدموا طلباتهم بالإشارة أو يفهم ما يطلبونه من حركات

الشفاه .

وجاء بهجت شكرى ذات ليلة إلى البار وأخذ يبخلق في محمود طويلاً ثم

أشار إليه ليتقدم نحوه وبدأ يتكلم .. قال له :

- أعترف أننا ظلمناك يا محمود .. ولكن الرئاسات أحياناً تضطر إلى

الظلم .. وقد كانت المعلومات التي قدمتها لنا صحيحة .. وكان يجب أن نكافئك

على شهامتك ووطنيتك ، ولكن الخطة التي وضعناها كانت تفرض أن نظلمك وأن

نقذف بك في عملية انتحارية كأبطال الحروب .. فلو أننا تحركنا للقضاء

على المتآمرين فربما وقعت مصيبة في الجيش لأنهم كلهم من الشخصيات الهامة

التي كانت مسيطرة .. وفي الوقت نفسه كنا نريد أن نتركهم يعلمون أننا اكتشفنا

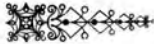
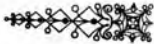
مؤامرتهم لأننا لا نصدق ما اكتشفناه . . لذلك تركناهم يواجهونك ثم قبضنا عليك حتى نؤكد أننا لا نصدقك . . وقد نجحت الخطة . . فإنهم اضطروا أن يؤجلوا المؤامرة وأن يبدأوا في وضع تخطيط جديد وهذا ترك لنا الوقت الكافي حتى نصفي المتآمرين واحداً بعد الآخر في هدوء دون أن نعرض للجيش لأى ضجة أو انقسام . . أتدري أين الرائد سعيد المر والمقدم عبد اللطيف . . إنهما حيث كنت . . في السجن الحربي . .

وانتظر بهجت شكرى أن يتكلم محمود . .

ولكنه لم يتكلم . .

لم يلاحظ بهجت شكرى أن محمود يسد أذنيه . . لم يعد يسمع شيئاً . .
لم يعد يرى بأذنيه . . لقد اكتشف طريق السلامه . . ألا يسمع حتى لا يرى . .

❖ الصيد في بحر الأسرار ❖



عزيزى الأستاذ . .

أنا أحد أعضاء السلك الدبلوماسى . . وفى صيغة أكثر تواضعاً ، أنا موظف فى إحدى السفارات العربية . . ولا يهم أن أحدد لك الدولة التى تنتمى إليها هذه السفارة ، ولا فى أى عاصمة من عواصم العالم تقع ، فأنا لا أكتب لك لأدفعك إلى إثارة قضية عامة أو قضية سياسية ، كما أنى لا أكتب لأشهر ببلدى أو بأحد من الناس . . إنما أكتب لأنى تعودت أن أقرأ لك منذ كنت طالباً عندكم فى مصر ، وكنت أقدر أنك فيما نكتب تعرض الواقع كما هو دون أن تفرق بين ما يمكن أن يقال هماً وفى داخل المجتمعات المغلقة وما يمكن أن يقال علناً وينشر على الناس . . وربما كنت تقصد ذلك أو لا تقصده . . أى ربما كنت جريئاً وربما كنت ساذجاً . . المهم ، أنى أكتب لك لأعرض عليك صورة من صور الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بخيالك . . لا لأستعين بك على موقف معين ولا حتى لأستعين برأيك ، إنما أكتب لمجرد الكتابة . . أريد أن أسلى نفسى فى أوقات الفراغ ، أو على الأصح - أريد أن أخفف عن نفسى بعض ما أحمله من هذا الواقع ، أو لعلى أكتب لأجرب نفسى ككاتب قصة . .

اسمعى يا سيدى . .

إن منصبى الرسمى فى السلك الدبلوماسى هو منصب وزير مفوض . .

في خلال عامين اثنين ارتقيت من سكرتير ثان إلى وزير مفوض . . ويمكن أن تقدر ذلك على أنه اعتراف بثقاقي وكفايتي ، فإنني أعتبر واحداً من قسم الطبقة المثقفة الضيقة التي يضمها مجتمع بلدي . . كما أنني لا شك أمتاز بمستوى عال من الكفاءة ، وأنا لست واحداً من أفراد الطبقة الحاكمة . . وهي طبقة أترك لك الخيال في أن تصوورها في شكل عائلة حاكمة ، أو في شكل مجلس قيادة ثورة . . ورغم أن أبي مجرد تاجر عادي يعيش حياته في دكان صغير داخل السوق ، إلا أنني منذ صباى استطعت أن أثبت وجودي بين أبناء الطبقة التي تحكم ، ثم استطعت أن أستمّر في تعلّم نفسي حتى تخرجت في كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، جامعة القاهرة . . فأنا أعتبر نفسي الفيلسوف الوحيد في بلدي . . ورغم ذلك وحتى أكون واقعياً فإنني لا أعتبر أن ثقافتى أو كفاءتى كانت السبب الرئيسى في هذه القفزات السريعة التي قفزتها فوق مناصب السلك الدبلوماسى . . السبب في تقديري هو الخدمات التي أؤديها . . وحتى أكون أكثر صراحة معك فيمكنك أن تسميها خدمات شخصية . .

إن مهمتى الرئيسية داخل السفارة بجانب المهام الرسمية الأخرى هي ما يسمى « العلاقات العامة » ولكنني تخصصت في جانب خاص من هذه العلاقات ، وهي العلاقات النسائية . . علاقات مع نوع معين من النساء . .

هل فوجئت ؟

هل دهشت ؟

يا صديقي إن العلاقات النسائية تمثل جانباً هاماً رئيسياً من نشاط أى سفارة من سفارات العالم ، وهي - ولا شك أنك تعلم - علاقات تستغل إما لتجنيد بعض النساء للتجنس لحساب الدولة ، وإما لتوفير المتعة لبعض الشخصيات

الكبيرة من أهل البلد الذين يزورون السفارة أثناء أداء مهامهم الرسمية في الخارج . . فقط من باب إكرام الضيف . . ومهمة العلاقات النسائية إما أن تتولاها مكاتب المخابرات الملحقة بالسفارة ، وإما أن تتولاها السفارة نفسها عندما لا يكون بها مكتب مخابرات ، كسفارتنا . .

هل تذكر الضجة التي قامت في القاهرة عندما أعجب المرحوم الرئيس سوكارنو بإحدى فتيات فندق هيلتون ، وطلب أن تلحق به بعد سفره ، ورفضت الحكومة المصرية السماح لها بالسفر . . هذه القصة منذ بدايتها كانت لا يمكن أن تتم إلا تحت إشراف الجهاز الدبلوماسى الذى يتبع الرئيس سوكارنو ، والخطأ الذى وقع فيه هذا الجهاز هو أنه ترك القصة تعرف بين الناس ، وهو نفس السبب الذى جعل الحكومة المصرية ترفض السماح للفنانة بالسفر ، ومداواة وتغطية للفضيحة حتى لا تصبح قصة دولية ، وإلا فلا اعتقد أن أى دبلوماسية كانت تضحى بصداقة زعيم عالمي كالمرحوم سوكارنو من أجل فتاة عاملة في فندق ، وأن سوكارنو كان مشهوراً عالمياً بأنه زير نساء . . وأكثر من ذلك . . ألا تذكر القصص الكثيرة التي عرفت ونشرت عنكم عن النساء اللاتي كن يقدمن إلى بعض الشخصيات العربية الزائرة ، وقيل إنه كان من بينهن بعض الفنانات المشهورات وكانت تعد لهن آلات تصوير سرية تلتقط مواقف خاصة جارية لهذه الشخصيات وهم في حالات شاذة مع هاتيك النساء . . إن ما أعرفه أن هذه العمليات لم تكن مقصورة على الشخصيات العربية فحسب ، هناك شخصيات غير عربية أيضاً . . شخصيات عالمية تضم الغرب والشرق . . المهم . . إن ما يشغل فكري كلما تذكرت هذه القصص هو أن أتساءل : أين ذهبت الصور الفوتوغرافية التي التقطت . . إن صورة واحدة منها يمكن أن تكون أداة ابتزاز للملايين من

العملات الصعبة .. ولكنى أقدر أن هذه الصور إن لم تكن قد أعدمت فإنه يحتفظ بها في أعماق بئر الأسرار حرصاً على العلاقات الدبلوماسية .. المهم أن كل هذا كان يحدث نتيجة عجز السفارة التي تتبعها الشخصية العربية أو غير العربية ، فإن أى شخصية لها قيمتها عندما تسافر إلى الخارج تصبح في حماية السفارة .. ليست الحماية السياسية فحسب بل أيضاً الحماية الاجتماعية والحماية من النزوات الخاصة ، أى أن من حق السفارة أن تتدخل في اختيار الزائر لمجال ممارسة حياته الخاصة ، فإن الحياة الخاصة هي الباب السهل الذي تتدخل منه أجهزة التجسس والمخابرات الأجنبية ..

أريد أن أقول لك إن تخصصي في العلاقات العامة الخاصة بالتعامل مع النساء ، ليس عملاً مشيناً ولا ينطبق عليه اللقب الذي تستعملونه في مصر وهو لقب «قواد» .. لا .. أبصقها من فمك .. فإنه تخصص تفرضه المصلحة الوطنية التي تتطلب حماية الشخصيات الهامة في بلدك رغم أن دوافع تصرفات هذه الشخصيات التي تتطلب الحماية كلها دوافع شخصية رخيصة لا علاقة لها بالوطن ولا بالوطنية ..

وصدقتى عندما أقول لك إنى لم أبدأ باختيار هذا التخصص ولا كان يخطر ببالي ولكنى وجدت نفسى فيه .. وعندما عينت في السفارة كسكرتير ثالث كنت أصغر أعضاء السفارة سناً ، ولا أبالغ إذا قلت إنى كنت الصورة الأكثر وسامة وانطلاقاً بينهم ، فإن حياتى الطويلة في مصر ورحلاتى إلى الخارج جعلت منى شاباً يتميز بقبول اجتماعى أكثر من أى شاب في بلدى .. أنا لست مغروراً ، وأنت لا تعرفين ولن أفصح لك عن اسمى أو شخصيتى حتى أتباهى أمامك بالغرور .. ولكن هذا هو الواقع .. وقد فوجئت منذ وصلت إلى العاصمة التي تضم السفارة

بالحياة الجنسية المفصوحة التي تعيشها هذه العاصمة .. وهي حياة مخصصة ليعيشها السياح والأجانب .. إن أحد العناصر الرئيسية في عملية التنشيط والدعاية السياحية التي تتبعها كل بلاد العالم السياحية هو عنصر الجنس .. ولذلك فإنى أنصح وزارة السياحة في مصر أن تقاوم الدعوة التي نسمع عنها والتي تدعو إلى إغلاق ملاهى شارع الهرم ، كما أنصح بوليس الآداب المصرى ألا يفرض تدخله في هذا المجال و أن يتبع اللوائح الخاصة بنواذى القمار .. فالقمار في مصر وفي كثير من الدول السياحية لا يسمح بممارسته إلا للأجانب ، أى للسياح ، فلماذا لا يطبق على ممارسة الجنس ما يطبق على ممارسة القمار ، وكلاهما حرام ، وكلاهما رجس من عمل الشيطان .. أعرف أنك تلوى شفتيك امتعاضاً وأنت تقرأ هذا الكلام ، ولكنى أعتبرك كاتباً واقعياً وأحاول أن أشدك إلى مزيد من الواقعية .. إلى منتهى الواقعية .. على كل حال فقد فوجئت بهذه الصراحة التي يعرضون بها الجنس في هذا البلد .. في الحانة رأيت عشرات البنات يقفن عاريات فوق البار الذي يجلس حوله الزبائن ويرقصن رقصات أشبه بالدعوات البدئية .. وعندما دخلت نادياً ليليّاً أى «كباريه» وجدتهم يضعون النساء خلف نافذة زجاجية كأنها «قترينة» فكان لبيع الأحذية تقع في جانب وراء صالة العرض وكل زبون يدخل ويتنقى الحذاء الذى يعجبه أقصد المرأة التي تعجبه ليأخذها ويجلس معه على مائدته ، وفي الحمامات الساخنة المخصصة للتدليك نفس الشئ .. نساء خلف قترينة زجاجية تنتقى من بينهن من تريد أن تدلك عضلاتك .. محلات تجارية تعرض بضاعتها في قترينات زجاجية كما تعرض الأحذية واللحوم في دكاكين بلادنا .. وعلى قدر ما فوجئت إلا أنى اكتشفت فيما بعد أن هذه الوسيلة من وسائل العرض تتكرر في أكثر من بلد سياحى ، بل إنى رأيت الوسيلة نفسها تتكرر في ميناء هامبورج بألمانيا

الغريبة.. وصدقني أنها وسيلة قرزتي. ولم أترك نفسي أبداً تنجذب إليها.. كنت أحس أني لو أخذت واحدة من هاتيك النساء فكأنني وقفت معها أمام الناس داخل القترينة.. ولكني كما قلت لك درست الفلسفة وهوايتي اكتشاف أعماق الشخصية الإنسانية وهو ما دفعني إلى التعرف إلى كثيرات من هذا الصنف من النساء، وهذا الصنف قادني إلى صنف أرقى لا يعرض في القترينات.. وكنت قادراً على أن أجمع بيني وبين كل واحدة منهن بنوع من الصداقة أرق من الجنس، بل إنني أعطيت نفسي حق الظهور معهن بعيداً عن مجال عملهن في دعوة إلى الغذاء أو في رحلة خارج العاصمة..

المهم..

لم يكن قد انقضى أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور على وصولي إلى السفارة.. لم أكن قد عرفت بعد كل ما يعيشه المجتمع الدبلوماسي.. وكان قد زارتنا شخصية رئيسية من الطبقة الحاكمة، وكان السفير يقيم حفل عشاء خاصاً لهذه الشخصية في داره.. وكنت أنا وحدي في الغارة عندما وصلت بركة هامة يجب أن أحملها فوراً إلى السفير في بيته.. وذهبت إلى البيت، وعندما وصلت إلى الباب وصلت معي سيارة السفارة ونزلت منها واحدة من النساء اللاتي عرقتن يرقصن عاريات في أحد البارات.. وكانت تعرفني.. وظلت أني أحد المدعوين إلى بيت السفير.. وحاولت أن تهلل لرؤيتي وتفضح معرفتي بها.. ولكني صددتها بقاء رمي مبالغ فيه وأسكتها وكنتم تهليلها، ثم تركتها تدخل إلى البيت ووقفت أنا على الباب إلى أن استدعاني السفير واستقبلني في غرفة مكتبه بعيداً عن مجال الحفل حيث سلمته البرقية..

وكان هذا الحادث هو أول ما فتح ذهني إلى مجال تخصصي..

وبعدها بأيام استدعاني السفير وقال لي صاحكاً:

— يبدو أن البلد أعجبك جداً..

قلت:

— جداً يا سيادة السفير، ولكني مازلت في مرحلة الاستكشاف..

وقال وضحكته تملو:

— إنك على الأقل اكتشفت حتى الآن أجمل نساها، لقد رأوك أمس

مع فتاة قالوا إنها رائعة.. حلوة.. تمنجن..

قلت وأنا أurd على ضحكته بابتسامة:

— عرقتها مصداقة و..

وقاطعني قائلاً:

— دح الصدق تشملنا.. ادعها الليلة.. ونسهر معاً..

قالها ببساطة كأنه يلقي على أمر إدارياً.. وقد دعوت الفتاة بالفعل وخرج معي للقائها السفير وحده بعد أن كانت الشخصية الكبيرة الزائرة قد سافرت.. وعرفت خلال هذه الليلة أن كل ما هنالك أن السفير يريد أن يرفع الكلفة بيني وبينه، وأنه يريد أن يشاركني في هذا الجانب من أعمال السفارة الذي كان هو نفسه يعاني منه من طول ما تحمل من مسؤولياته ولعجز باقي موظفي السفارة عن موازنة العلاقات الإنشائية بمستوى راق.. كان السفير يريد أن يمنحني فرصة التجربة ليختبرني.. وهي ليست فرصة سهلة، إنما فرصة تعطيك الحق في أن تستولي وتحفظ بكثير من الأسرار الشخصية الجارحة التي تشمل أكبر شخصيات الطبقة الحاكمة في بلدك..

ونجحت في التجربة . .

واكتسبت ثقة السفير واعتماده علىّ ، بل إن السفير أصبح في يدي لأنه هو الآخر له أسرار شخصية جارحة حصلت عليها من خلال العمليات التي كنت أقدمها له واحتفظت له بها في بئر الأسرار ، والذي يملك بئر الأسرار يملك كل من له سر . .

وكانت الشخصيات الزائرة التي تغد من بلدي تنقسم إلى أنواع :

نوع سهل بسيط يعتبر دخيلاً أو مبتدئاً في حياة الليل ، ولا يزال جائعاً إلى كل امرأة دون أن يقدر قيمة الوصول إليها ، وهو نوع كنت أكنى بأن أصبحه إلى الحانات والكباريات والحمامات فيبهر ويسيل لعابه بالأجساد العارية ويلقى نفسه فوقها بشرهة دون أن يطلب أى إعداد خاص . كالحرص على التستر ، أو إحاطته بجو ومزاج معين . . وهو نوع يشمل صغار وكبار الموظفين ، ويشمل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم كباراً فجأة . . ولم أكن أبذل اهتماماً كبيراً بهذا النوع من الزوار ، بل في الغالب كنت أترك الإهتمام به إلى سكرتيرى الخاص . . وسكرتيرى الخاص ليس من بلدي ولكنه من بلد عربى آخر ، وقد اخترته غريباً حتى لا أترك لأحد من موظفى الوزارة فرصة التلمذ على يدي في علم العلاقات العامة ثم ينتهز الفرصة ليقضى على ويحل محلّى كما يحدث غالباً . .

أما النوع الثانى من الشخصيات فهو النوع الأكثر تجربة والذي شيع من حياة الليل السهلة ، ولم تعد تغريه الحانات ولا الحمامات ، وهو ما يجعل الإهتمام به يتطلب إعداد جلسات خاصة في بيوت خاصة ، وهو ما يكلف ميزانية العلاقات العامة أكثر ، لأن هذه البيوت ، أو على الأصح البيوت التي كنت أختارها

لهذه الشخصيات الهامة ليست بيوتاً مفتوحة لأى زائر . . إنها أقرب إلى بيوت الجيشا في اليابان ، عندما كان للجيشا تقاليد واحترام وقبل أن تنقلب إلى مجرد بيوت سياحية أقرب إلى دكاكين خان الخليلي عندكم . . وفي مثل هذا البيت تعد سهرة كاملة للزائر . . موسيقى ، رقص ، غناء ، عشاء . . وهو وحده أو بصحبة صديق من أصدقائه ، ويستطيع أن يطلب أى شئ وكأنه صاحب البيت . . يملكه ويملك من فيه . . ولذلك قلت إن الزائر من هذا النوع يكلف ميزانية العلاقات العامة كثيراً . .

والنوع الثالث هو النوع الأخطر والأهم . . النوع الذى يشمل الشخصيات الرئيسية في بلدنا . . وهو نوع يمتاز بأنه لا يسمح لنفسه أن يطلب ليلة من هذه الليالي . . لا يكلف السفارة بأن تحقق له متعة خاصة ، احتراماً لمركزه وحرصاً على مظاهر تقاليد الحكم . . كما أن أحداً لا يمكن أن يعرض عليه حتى على سبيل النكتة أن يوفر له هذه المتعة . . ليس من حتى كمستول عن العلاقات العامة أن أغرى شخصية من هذه الشخصيات بقضاء ليلة خاصة حتى لو كنت أعلم أنه يتنى مثل هذه الليلة الخاصة ، بل حتى لو تأكدت أنه لم يأت إلينا زائراً إلا بعد أن سمع من أحد أصدقائه عن الخدمات الممتعة التي أقدمها . . وعلم العلاقات العامة ينصحك في مثل هذه الحالة أن لا تعرض شيئاً ولكنك فقط تحيط هذه الشخصية بالجو والمجال الاجتماعى الذى يتيح له فرصة الاختيار . . اختيار ما إذا كان يريد أو لا يريد . . وتحقيق هذا البند من علم العلاقات العامة يعتمد على قدرتك في اكتساب صداقة نوع معين من العائلات . . إنه نوع من العائلات المحترمة قد يمثلها رجال لهم مراكز لها قيمتها ، أو مراكز ليست رسمية ، ولكنها عائلات تعيش حياة التساهل الاجتماعى ، وتساوفاً على استعداد للاشتراك

في كثير من العمليات التي تعود على العائلة بنفع كبير . . . تحقيق عملية تجارية يقوم بها الزوج مثلاً ، أو المساهمة بالوساطة في صفقة ضخمة . . . وتدعى مثل هذه العائلة إلى حفل عائلي يقيمه السفير تكريماً للضيف الكبير . . . حفل خاص لا يدعى إليه أحد بصفته الرسمية ولكن المدعوين كلهم أصدقاء خصوصيين . . . وتتولى سيدات العائلة إحاطة الضيف بالجو الاجتماعي المرح المتفوح الذي يشجعه على أن يطلب . . . أن يطلب هذه السيدة أو الأخرى إذا أراد أن يطلبها . . . وغالباً ما ينتهي الحفل الخاص بتحديد موعد بين الضيف والسيدة المحترمة وهو معتقد أنه وصل إليها بسحره وسماته وذكائه وأنه فتاك نساء ، وإن كان يضطر بعد ذلك إلى أن يستدعيني في لقاء خاص ويهمس في أذني بما وصل إليه وكأنه يطلعني على سر خطير لا علم لي به ، حتى أعد له المكان الخاص الذي سيلتقي فيه مع هذه السيدة . . .

ومثل هذه العمليات التي تتم عن طريق صداقة العائلات المحلية لا تتحمل ميزانية العلاقات العامة تكاليفها . . . ولكن قد يتم مقابلها تحقيق صفقة تجارية أو عملية مسخرة يقوم بها رجل العائلة ، وفي الغالب تنتهي العملية بهدية ثمينة تساوي آلاف الدولارات يقدمها الضيف إلى السيدة المحترمة . . .

هذه هي الأنواع الثلاثة من الشخصيات التي كنت مسئولاً عنها . . . وقد حققت لحسابي أرباحاً كثيرة عن طريق هذه الشخصيات بعد أن أسقطتها في بئر الأسرار وأصبحت أقض بكل سر على عتق واحد منهم مما يضطره إلى أن يكسبني ويتقني . . . ولم يكن كل ما حققته هو هذه القفزات السريعة فوق السلك الدبلوماسي والتي وصلت بي في خلال عامين إلى رتبة الوزير المفوض ، ولكنني استفدت كثيراً من الوساطة في تحقيق صفقات متعددة . . . وأستطيع أن

أقول الآن إنني وصلت إلى مستوى الطبقة الحاكمة حتى ولو كنت لا أعتبر سياسياً من بينها . . .

وفي داخل السفارة كانت هناك شخصية مضت فترة طويلة وأنا حائر فيها . . . وهي شخصية زوجة السفير . . . إنها تعرف كل شيء . . . وفي بيتها وفي حضورها كانت تتم كل هذه العمليات التي حدثت عنها . . . وكانت تستقبل أنواعاً من النساء تعلم أنهن من المحترفات بل كان من بينهن أدنى أنواع المحترفات من فتيات الحانات والحمامات إلى أن تحملت أنا المسئولية ومنعت دعوة هذا النوع من المحترفات إلى داخل السفارة سواء في الحفلات العامة أو الخاصة والاقتصار على المحترفات الراقيات . . . وقد قدرت أولاً أن الزوجة التي تقبل كل ذلك في بيتها لابد أنها زوجة سهلة ، بل إنني قدرت أنها لا شك أن لديها الاستعداد لتزاول نفس ما تسمح به . . . إن زوجها السفير له هذا النوع من حياة الليل فلماذا لا يكون من حقها هي الأخرى نفس الحياة . . . وحاولت كثيراً أن أكتشف عن حياة خاصة تعيشها . . . أن ألقى بها في بئر الأسرار مع باقي الرجال والنساء . . . ولكنني لم أكتشف ولم أعرف لها سراً . . . وأكثر من ذلك ، حاولت أنا نفسي أن أصل إليها . . . إنني كما قلت لك أتمتع بجاذبية الوجود . . . مجرد وجودي يشد أي امرأة . . . ومع هذه الجاذبية استعملت كل مواهي حتى أشد إلى السيدة زوجة السفير ، ولكنني فشلت . . . وقد كانت متنبهة إلى محاولاتي وكانت تقابلها باتسامة هادئة صامته تثير الاحترام لا التشجيع . . . وأخيراً خرجت من حيرتي إلى الاقتناع بأنها سيدة محترمة . . . سيدة كاملة . . . وأن سكوتها على ما يجري في بيتها هو استسلام لحكم الوظيفة كزوجة سفير ، كما وأن سكوتها على تصرفات زوجها هو استسلام لعقد الزواج الذي ارتبط به أهلها . . . وقد استطاعت بهدونها واستسلامها

للسواق أن تكتسب صداقة كل هؤلاء النساء المحترفات ونصف المحترفات والهواة . .
صداقة قائمة على مجرد الاحترام . . وكانت عندما يقام حفل في السفارة تتعمد تجاهل نشاط وتحركات هؤلاء النساء ، ثم عندما تقدر أن الحفل وصل إلى مرحلة يتغلب فيها تأثير الخمر تنسحب إلى الداخل في هدوء ، وتصحو في اليوم التالي دون أن تسأل أحداً أو تحاسب أحداً عما تم . . وأصبحت هي الشخصية الوحيدة التي أحترمها فعلا داخل السفارة بل ربما في البلد كله الذي أقيم فيه . .
أصبحت صديقتي النظيفة . . أختي . . وكانت هي وحدها التي تعلم علاقتي مع بهاناي . .

وصدقتني عندما أقول لك أنه رغم كل هذا الذي يحيط بي وأعيشه لم تكن لي أي علاقة خاصة مع أي امرأة ، حتى ولا علاقة ليلة واحدة . . ربما لأني أغار على جسدي وأجمل به تكملة لعزوري بنفسى وكان هذا الجسد شيء غالي لا يبتذل . . إلى أن قابلت بهاناي . . إنها امرأة من تايلاند . . فيها الجمال الأسمر البودى الذي تشتهر به بنات جنوب شرق آسيا . . الشعر الأسود الناعم الذي ينساب في غزارة كشلال الليل . . والقوام المشوق الصغير كأنه تحفة صاغها فنان ليعلقها على صدره . . والأنسان البيضاء الناصعة التي تشرق مع ابتسامتها كأنها قضت لك الطريق إليها . . وبهاناي من عائلة كبيرة معروفة في تايلاند ، وأنها تمتلك أكبر محل أزياء هناك ، وأبوها يملك مصانع للغزل ، وقد سافرت بهاناي إلى أمريكا لتتعلم إدارة الأعمال في جامعة بوسطن ، ولكنها كانت تقاوم منذ صغرها إلحاح الفن عليها . إنها فنانة . تخنى وتعزف على البيانو . . وهي تقاوم هذا الفن حتى تستمر في الطريق الذي نجح فيه أبوها وأما . . طريق إدارة المصانع وبيوت الأزياء . . ووصل من مقاومتها لفنها أنها وهي في الجامعة ، في أمريكا ، تزوجت

أملاً لها من نفس بلدها وأنجبت منه ولدين ، حتى تجذبها المسئوليات العائلية بعيداً عن فها وتربطها أكثر بواقعها . . ولكنها عجرت عن الاستمرار . . وقبل أن تحصل على الشهادة الجامعية في إدارة الأعمال قررت فجأة التوقف عن هذه الدراسة وبدأت في دراسة الموسيقى . . فها . . ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيقى ، ورفض زوجها فكرهته . . إنه لا يساوى شيئاً بجانب إحساسها بفنها . . ووليدها تركهما في بيت العائلة . . وهي تجوب عراصم جنوب شرق آسيا وتغنى ، وقد قابلتها وهي تغنى في صالة صغيرة في أحد الفنادق الكبرى وشددتني إليها . . شعرها . . وابتسامتها التي تشرق في لونها الأسمر . . ورغم ذلك فعندما بدأت أتحدث إليها كانت لا تزال تغلبني مسئوليتي عن العلاقات العامة في السفارة فدعوتها إلى حفل خاص كنت قد قررت إقامته لضيف كبير ممتاز :

وقالت بهاناي من خلال ابتسامتها :

— هل يفهم الضيف هذا النوع من الغناء الذي أغنيته ؟

وتعجبت للسؤال وقلت في وقاحة :

— لا أعتقد . . ولكن لا يهم الغناء . . يكفيك أنك جميلة ومن هذا النوع من النساء ! ! .

وقالت بهاناي ضاحكة :

— إذن تستطيع أن تدعو صديقتي دانييل فهي تصلح أكثر لهذه الدعوات . . إلى حتى لو اعتبرتي جميلة فأنا مملعة عندما أكون مع من لا يفهمني . . والشئ الجديد الذي طرأ على أنى لم أحاول استعمال مواهبى لإقناعها بقبول الدعوة واكتفيت بأن دعوت صديقتها فعلا ، وبدأت من يومها أتزود كل ليلة على الصالة التي تغنى فيها وأحاول أن أفهمها . . وفهمتها وفهمتي . . وارتبطنا بعلاقة

لا أريد أن أقول إنها علاقة حب . . ولكنها علاقة راحة . . كل منا يرتاح إلى الآخر ويتمتع بصحبته ، بكل ما تطلبه المتعة . . وأكثر ما يريح هو الفهم المتبادل . . ولم تكن بهاناي امرأة شريفة بالمعنى المفهوم للشرف في بلادنا . . إن الجنس في جنوب شرق آسيا ليس موضوعاً يستحق كل هذا الاهتمام ، وليس علاقة تفرق بين الشريف وغير الشريف ، وقد تكون بهاناي تعطى نفسها لرجال آخرين مع ارتباطها بي . . هذا لا يهم . . ولكن المهم أنها امرأة غالية . . ليست محتاجة . . إنها قد يغريها بالعباءة الثمن الكبير جداً ، أو الصدقة التي لا تستطيع أن تقاومها . . وقد عرف أعضاء السفارة ، علاقتي ببهاناي ولكني لم أكن أسمع لأحد بأن يحدثني عنها إلا لصديقتي زوجة السفير ، وكانت هي التي تختار لي الهدايا التي أهديتها لبهاناي . . وقال لي السفير يوماً :

- أئن تدعو المرأة التي تعرفها في إحدى جلساتها . .

وقلت في برود :

- إنها مملة لا تصلح لأي جلسة . .

قال وهو ينظر إلى في غيظ :

- لعلك تغار عليها . .

قلت ضاحكاً :

- الغيرة غير معروفة في هذه البلاد . . المرأة هنا لا تستحق الغيرة . .

وأنى السفير الموضوع ربما لأنه راعى ألا ندخل في نقاش قد يفسد علاقتنا خصوصاً بعد أن أصبحت أنا الأقوى ، واكتفى بأن ذهب معي مرة لستمع إلى غناء بهاناي ، ولم يعلق بشيء ، لم يبد إعجاباً حتى يجمالها وطبعاً لم يتأثر بشيء من غنائها . . إلى أن حدث وجاءنا ضيف كبير مهم . .

وتعبت في وضع كل مواهي في خدمته . . قدمت له نساء أكثر من عائلة معتمة في أكثر من حفل خاص . . لا شيء . . وتجارت ودعوته إلى البيوت الخاصة ، وقبل الدعوة . . ولكن لا شيء . . وخيل إلى أنه قد يكون لا يزال محتفظاً برعونة الشباب فدعوته إلى حمامات التدليك ، وقبل الدعوة أيضاً وأبدى دهشته وانبهاره بما يراه . . ولكن لا شيء . . وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لا يريد أكثر من هذه المجتمعات والمجاهدات البريئة فاسترحمت من محاولة إرضائه وتكريمه . .

وكان الضيف المهم يقيم في نفس الفندق الكبير الذي تغنى فيه بهاناي ، وفي الليلة الأخيرة قبل سفره كان الضيف ومعه السفير عاشرين إلى الفندق وأنا معهم واقترح عليه السفير أن يدخل به إلى الصالة الصغيرة التي تغنى فيها بهاناي ، وقبل الضيف المهم ، وما كادت عيناه تفعلان على بهاناي وهي تغنى حتى استقرتا عليها . . لا يحولها عنها . . لا يريد أن ينظر إلى أي شيء آخر من حوله . . وإذا تحدث إليه السفير استمع إليه دون أن يحول نظره عن بهاناي . . وحاولت أن أبدأ أسرد عليه مجموعة من النكات لعل الضحك يشده بعيداً عن بهاناي ، ولكنه لا يضحك ، وإذا ضحك لا يحول عينيه . . ثم قال وهو يحفظ لعبابه من فوق شفتي بلسانه كأنه انقلب إلى وحش جائع :

- هذه امرأة حلوة . .

وقال السفير ضاحكاً

- اتفضل سيادتك . . بالهنا والشفاء . .

وقال الضيف من فوق لسانه المدلى :

- هل يمكن . .

وقال السفير :

- طبعاً يمكن . .
- ثم نظر إلى وقال كأنه يصدر أمراً سلطانياً :
- أدها إلى المائدة . .
- قلت كأتى أتوسل إليه :
- إنها مملعة . . وسيقرف منها سيادته .
- وقال السفير كأنه يصرخ :
- إدعها . . لا تكن مجنوناً . .
- وقلت فى استسلام :
- حاضر . بعد أن تنتهى من الغناء . .

وناديت المشرف على الصالة وهمست فى أذنه . أن يذهب إلى بهاناي ويطلب منها ألا تكف عن الغناء ، ولم تكف فعلاً عن الغناء ، ولكن السفير بدأ يتصرف بالطريقة الساذجة المعروفة التى يتبعها أثرياء العرب فى الكبريات فأمر بإرسال صندوق من زجاجات الشبانيا إلى أعضاء الفرقة الموسيقية . . ثم قام وأخرج من جيبه ورقة نقدية تساوى ما قيمته مائة جنيه وحاول أن يلققها على صدر بهاناي وعندما تراجعت عنه وهى تضحك أخرج ولاعته وأحرق الورقة النقدية تحية لها ثم أمر بإرسال أقفاص الورد لتوضع حولها ، وكل من فى الصالة أصبح يتفرج علينا لا على بهاناي ، وانطلق حولنا كثير من الضحك والتصفيق لحركات السفير ، فأمر بدعوة كل من فى الصالة على حسابه . . كل ذلك وأنا حائر ماذا أفعل ، ثم قمت بسرعة وطلبت من الجرسون أن يدعو دانولى صديقة بهاناي إلى المائدة لعلها تستطيع أن تجذب اهتمام الضيف الكبير وتتخذ بهاناي من هذا الاهتمام . . ولكن دانولى لم تكن فى الصالة واستطاع الجرسون أن يجدها فى مكان آخر وجاءت

- إليسا بيتاً بهاناي لا تزال تغنى وقد بدا عليها التعب من طول ما تغنى . . وقلت للضيف الكبير وأنا أقدم له دانولى :
- هذه ملكة جمال الدولة وقد جاءت خصيصاً عندما علمت أن سيادتكم هنا . .
- ولم يحول الضيف عينيه عن بهاناي وقال السفير ساخطاً :
- إننا لا نريد هذه . .
- قلت فى بأس :
- إنها فقط تؤنسنا إلى أن تنتهى بهاناي من الغناء . .
- واضطرت بهاناي أن تنتهى ، على الأقل لتستريح ، واضطرت إلى أن تنجى إلى مائدتنا بعد كل هذا السخاء المجنون الذى أحاطها به السفير ، ونظرت إلى كأنها تسألنى ماذا تفعل ، وأدريت عنها ناظرى بسرعة حتى لا يتهمنى السفير بشيء أو يلحظ الضيف الكبير شيئاً . . ولم يكن هناك حديث يمكن أن يتم بين بهاناي والضيف الكبير فهو لا يعرف أى لغة يمكن أن يتحدث بها إليها ، وتولى الحديث كله السفير ، وقال لها إن الضيف الكبير يهيم أن يتحدث بها لأمر هام . . وضحك . . وقالت بهاناي وهى تبتمس :
- هذا يشرفنى . . ولكن الساعة الآن الثالثة صباحاً . . ويجب أن أجتمع مع أفراد الأوركسترا لمراجعة الأغاني الجديدة . . لنجعل لقاءنا غداً . .
- وقال السفير وهو يبدو كمفاوض مبتدئ :
- إنه يسافر غداً . . تعالى . . وأفاد الفرقة يمكن أن ينتظروك . . وسنعوضك ونعوضهم بما تريدون . .

ثم قام واقفاً وشد بهاناي من يدها ، واستسلمت له كعادة أفراد هذا الشعب ، وحتى لا تثير أى مشكلة مع ضيف كبير من نزلاء الفندق. وقال السفير للضيف الكبير :

- اتفضل سيادتك ..

ثم صحبها والضيف بجانبها وأنا أتبعهم سائراً خلفهم في صمت ضعيف
كأنني قد انهرت وانتهيت إلى أن وصلنا إلى المصعد ودخل الضيف ، ودفع السفير
بها ناي إلى جانبه . وقال ضاحكا :

- الدور التاسع .. لا تنس سيادتك .. غرفتك في الدور التاسع ..
ووقفت أنا والسفير وبها ناي تبتمس لي من بعيد ابتسامة ضعيفة كأنها تشفق
بها علي ، وباب المصعد يفتح في وجهنا - أنا والسفير - ويرتفع بالضيف ومعه
بها ناي

ونظر إلى السفير في شماته كأنه انتصر علي .. وسار خارجاً من الفندق وركب
سيارته دون أن يدعوني كعادته للركوب معه ..

ولم أتم ليلتها ، لا لأنني كنت أعاني أمراً عاطفياً من أجل بهاناي .. قلت
لك أنه لم يكن ما بيني وبينها حب .. ولكنني كنت أعاني الإحساس بأنني فقدت
مركزى .. فقدت سيطرتي على مثل هذه المواقف التي تدخل في صميم اختصاصى
لست أنا الذى حقق رغبات الضيف الكبير .. لست أنا الذى حمل بهاناي إليه ..
إنه السفير .. كان السفير طردني من وظيفتي واستولى على اختصاصى لنفسه ..
معنى هذا أنى خيبة .. أنى فاشل لا أستطيع أن أقدر وأصرف وفقاً لتقدير صحيح ..
والواقع أنى أخطأت في تقدير موقف بهاناي ، فقد كنت أعتقد أنها سترفض دعوة
الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التي وجهتها إليها لحضور حفلات
السفارة ، أو لحضور الجلسات الخاصة ، بل رفضت حتى زيارة زوجة السفير ..
وصحيح أنى كنت أستمسك ببساطة لهذا الرفض مفضلاً أن احتفظ بها لاستعمالي
الخاص ، ولكنني لم أكن أعتقد أنها يمكن أن تستجيب للإلحاح أو محاولة أحد

غيري .. وقد استجابت للإلحاح السفير .. أى أنى في الواقع لم أكن أحاول أن
أحرم الضيف من بهاناي ولكنني كنت أحاول أن أحويه من رفضها .. ولكن ..
أما غيبي .. ولأنني غيبي انتصر تقدير السفير للموقف على تقديري ..
إلى أن كان الصباح ..

وعندما وصلت إلى السفارة أحسست بنحو غريب من التوتر ، وعرفت أن
السفير وزع سخطه ولعناته على كل الموظفين منذ وصل ، وعندما دخلت إليه
في مكتبه وجدته واقفاً يستعد للخروج ، ولم يمد يده لمصافحتي ، بل لم يرد على
تحيتي ، واتجه مباشرة إلى الباب ، وكنت أعلم أنه في طريقه إلى الفندق الذى
يقع فيه الضيف الكبير ، فقلت له :

- هل ألحق بك ؟

وقال كأنه يصرخ في وجهي :

- لا .. انتظر هنا إلى أن أدعوك إلى هناك ..

وأسرع خارجاً كأنه يرفض أن يناقشني ، وانتظرت طويلاً وأنا حائر فيما يمكن
أن يكون قد حدث ، ثم لم أجد احتمال الانتظار وذهبت لألتقي بالضيف الكبير ..
وكان في الجناح المخصص له مجتمعاً مع السفير ، ودخلت إليهما بلا استئذان
فإن مركزى يعينني من الاستئذان ، وبمجرد أن دخلت رفع إلى الضيف عينيه
كأنه دهش لوقايتي ، وقال بسرعة :

- من فضلك .. انتظرا في الخارج ..

وانتظرت ولم يدعني أحد للدخول إلى أن خرج الضيف ومعه السفير في طريقهما
إلى المطار دون أن يلتفت أحد منهما إلي .. ركب سيارتي وليس معي إلا سكرتيرى
الخاص جالساً بجانب السائق وذهبت إلى المطار .. وعندما اصطفنا بجانب

الطائرة مع المودعين الرسميين ومع بقية أعضاء السفارة ليمر بنا الضيف ويصافحنا قبل ركوبه ، لمس يدي الممدودة لمسة سريعة دون أن ينظر في وجهي ..

وسافر الضيف الكبير عائداً إلى بلدنا ..

وعرفت بعدها كل شيء ..

لقد هربت بهاناي من الضيف قبل أن يدخل بها إلى جناحه الخاص ..

وقد استقبلت الخبر بفرحة .. فرحة استعادت ثقتي بنفسى ، وثقتى في بهاناي .. إن تقديري لم يكن خاطئاً ، وبهاناي لم تتخل عني .. ولكن هذه القرحة طارت بسرعة وحل محلها الخوف .. الخوف على مستقبل كله .. ترى ماذا قال السفير للضيف الكبير حتى يبرر له ما حدث .. وقد أسرعت أولاً إلى بهاناي أسألتها ، فضحكت ضحكة كبيرة وقالت كأنها تروى نكتة :

- لقد تركته يضغط على مفتاح الدور التاسع من مفاتيح المصعد ثم غافلت في نفس اللحظة وضغط على مفتاح الدور الخامس .. وعندما وقف المصعد حادثته باللغة التيلاندية وأنا أخرج وبقيت أحادثه وأنا واقفة أمامه خارج المصعد وأنا واثقة أنه لا يفهم كلمة واحدة مما أقول إلى أن انغلق باب المصعد وصعد به وحده إلى جناحه في الدور التاسع .. ولم أنزل أنا في المصعد الآخر ولا على السلم العمومي خوفاً من ألتقي بك أو بالسفير في بهو الفندق ولكني نزلت من سلم الحريق ..

قلت :

- أنت مجنونة ..

قالت :

- إنى لم أوافق أصلاً على الذهاب معه ولكن سفيركم هو الذى دفعنى دفعا إلى المصعد .. ثم ماذا بهم .. إن ما يريد به منى يستطيع أن يناله من أى امرأة .

لم أشعر أنى حرمة من شئ مهم .. هل تعرف ماذا كنت أقول له باللغة التى لا يفهمها .. لم أكن أسبه أو أهينه أو أجرحه .. كنت أقول له إنى أسفه لأنى متعبة وأنا نستطيع أن نلتقى فى موعد آخر وأنى أعتز بإعجابه بى .. كنت أقول له مثل هذه الكلام .. و .. وقاطعتها :

- الكلام الذى لا يفهمه .. إنك لا تقدرين ماذا يمكن أن يحدث لى لو أطلق مثل هذا الرجل غضبه على ..

وقامت وجلست فوق ساقى وأسقطت صدرها على صدرى وقالت وشفتاها تقتربان من شفتى :

- لا نهم .. أنا المستولة عن كل ما يحدث ..

وقد اجترت فعلاً كيف أتصرف ، فقد عرفت أن السفير أبلغ الضيف الكبير أنى أعتبر هذه المرأة - بهاناي - ملكاً خاصاً لى ، وأنى أرفض حتى دعوتها لإحياء الحفلات الرسمية فى السفارة لمجرد إلقاء أغانيها ، وأنه - أى السفير - واثق أنى أنا الذى حرصتها على أن تهرب منه ..

وكان معنى هذا أن أنتظر طردى من السلك الدبلوماسى أو على الأقل نقلى إلى بلد مقطوع الصلات من بلدان أفريقيا مثلاً ، وقد تصب على لعنة أكبر من ذلك. وفكرت أن أكتب تقريراً خاصاً أرسله إلى الشخصية الهامة التى عجزت عن أوفها حقها من تقاليد السلك الدبلوماسى .

وفكرت أن أعود بنفسى إلى بلدى وأحاول أن ألتقى به وأشرح له كل الظروف التى أحاطت بالموقف وأثبت عدم تقصيرى فى ممارسة العلاقات العامة أو تدخلها أى تدخل مضاد ..

إلى أن استشرت صديقتي زوجة السفير التي أحترمها وأعتر برضاها عني . .
فقلت لي في بساطة :

- أرسلها إليه . .

قلت :

- كيف ؟

قالت وهي تنظر إلى كائن طفل صغير لم يتعلم بعد :

- لا أدرى كيف . . ولكن اقنعها بأن تذهب إلى بلدنا وحاول أن تجد
وسيلة تقنع بها صاحبنا بأنها جاءت خصيصاً للقائه بعد أن وقعت في غرامه . .

وبهرت بالفكرة ، وقبلت يد السيدة المحترمة شكراً وامتناناً ، وأسرعَت أجرة
إلى بهاناي ، وقلت لها وكأنني أهت من ضغط حيرتي وخوفي :

- لقد قلت لي أنك المسئولة . . وإني مهتد بالطرد من وظيفتي بسببك . .

قالت من خلال ابتسامتها :

- ماذا يهم . . إن وظيفتك تحيطك بقيود ثقيلة الدم . . إبحث عن عمل
آخر . .

إنها لا تعلم أن وظيفتي ليست مجرد منصب في السلك الدبلوماسي ، إن هذه
الوظيفة هي التي أحقق عن طريقها كل الصفقات الأخرى التي أصبحت بها واحداً
من كبار الأثرياء . . وهي لا تعلم أن طردى معناه أني أصبحت مبعداً عن أصحاب
الحكم والمبعدون في بلادنا لا يستطيعون الحياة إلا اعتماداً على أموالهم المهربة ،
فإذا لم تكن لهم أموال مهربة عاشوا على الاستجداء . . إن المبعد في بلادنا معناه
أنه وصل إلى قيمة الصفر ، حتى أني أحياناً تغلبني هوايتي للفلسفة الاجتماعية وأفكر
في أن أطالب الدولة بافتتاح ملجأ للمبعدين كملاجئ الأيتام . .

وقد قلت كل ذلك لبهاناي حتى أقنعها بأن كل حياتي أصبحت في خطر
إلى أن اقنعت قائلة :

- ماذا تريدني أن أفعل . .

قلت في حماس :

- تسافرين إلى بلدي وتلتقيين به هناك . .

قالت في تردد :

- ولكن إن . .

واقطعها :

- سندفع لك ضعف قيمة دخلك الذي تحصلين عليه من هنا . . ليس
فقط قيمة مرتبك من إدارة الفندق ولكن قيمة دخلك من المعجبين . . وهناك
في بلادنا إذا نجحت في الوصول إلى صاحبنا فتني أنك ستعودين مليونيرة

ووافقت بهاناي ، وأقنعت نفسي أنها وافقت لا طمعا فيما وعدتها به ولكن حباً
في شخصي الضعيف . . وبدأت أضع معها تفاصيل الخطة . . إنها سترسل خطاباً
إلى الشخصية الهامة الكبيرة - ولاحظ أني أتعمد عدم ذكر لقبها حتى لا أفصح
نفسى - تعتذر له فيه عما حدث ، وتضمنه كلمات الإعجاب والتأثر بشخصه ،
وتقول إنها حتى تؤكد اعتذارها فقد قررت أن تزوره في بلده . . ولا يهم بعد ذلك
أن تنتظر رداً . . يكفي أن تنتظر مدة كافية حتى تطمئن إلى وصول الخطاب وبعدها
تسافر ، ويكون سكرتيرى الخاص قد سافر قبلها ليمهد لوصولها ويدرس الموقف
ويتصل بي لتحديد هل تسافر بهاناي وتقدم نفسها كفنانة أجنبية وتتفق
على إحياء بضع حفلات في الفندق الكبير هناك ، أم تصل كمجرد سائحة
دون أن ينتبه أحد إلى وصولها بحيث يبقى اتصالها بالشخصية الكبيرة سراً . . ثم بعد أن

تقرر كل ذلك وبعد أن تنجح في لقاء صاحبنا فقد إتفقت معها على تفاصيل الكلام الذي يجب أن نقوله له . . يجب أن تؤكد له أنها لم تأت إليه إلا عن طريق . . طريق أنا . . أنا الذي أعددت كل شيء . . أما السفير فهي ترفض دائماً الاتصال به لأنه حاول معها كثيراً وكانت تصده . . وكلام كثير قدرت أنه يخدمني ويبعد عني شر السفير . .

وسافرت بهائى فعلاً إلى بلدى . . سافرت دون أن يعلم السفير وأعطيتها « الفيزا » دون إذنه ودون أن يعلم بهذه الفيزا أى واحد من السفارة . .

هل تعلم كم كلفتنا عملية سفر أو تسفير بهائى ؟ كلفتنا حوالى ستين ألف دولار . . لا يهم . . وأنى أعلم أنها لو نجحت في مهمتها مع صاحبنا فستحصل منه - أى من أموال الدولة - على أكثر من ذلك بكثير . . المهم أنى كنت أعيش منذ سفرها في انتظار الأخبار . . أعيش كأنى في انتظار كلمة القدر . .

وعلاقى مع السفير تتوتر يوماً بعد يوم ، ولولا أنه واحد ممن أحفظ بهم في بئر الأسرار لما حاول أن يراعى معى حتى مجرد مظاهر التقاليد الرسمية التى تجمع بين السفير والوزير المفوض . . إنه أيضاً في انتظار أخبار . . أخبار نقلى أو إحالنى إلى ملجأ المبعدين . .

إنى في عذاب . . عذاب الانتظار لتتأخر أدق خطة دبلوماسية وضعتها في حياتى . .



يا عزى الأستاذ . .

لا أريد أن أطيل عليك فعندى ما هو أهم أو ما هو أمتع لأقوله لك ، وقد نجحت الخطة التى وضعتها مع مهاى ، واعتبرتها من أروع خطط العلاقات العامة التى حققتها . . وقد التقت مهاى هناك - فى بلدى بصاحب الشخصية الرسمية الكبيرة الهامة وأعطته كل ما أراد ، وأعطاهما أكثر مما أرادت ومما كانت تحلم به ، واستطاعت أن تبدد كل شكوكه التى ثارت حولى ، وأن تحمو الصورة التى رسمها لى السفير ، وعاد سكرتيرى الخاص وروى لى كل التفاصيل التى كانت تبلغها له مهاى أولاً بأول ، وأصبحت مطمئناً إلى مستقبلى ومطمئناً إلى أن الشخصية الكبيرة قد عادت وهدأت داخل بئر الأسرار التى أمتلكها . . أما مهاى نفسها فإنها لم تعد . . سافرت إلى أوروبا بعد أن انتهت زيارتها لبلدى ، وقطعت اتصالاتها بى . . لم أعد أعرف عنها شيئاً ولا أهم بأن أعرف شيئاً . .

وكانت علاقتى بالسفير مستمرة فى توترها إلى أن بدأ يأس من صدور قرار بنقلى من السفارة أو بإحالتى إلى ملجأ المبعدين ، فبدأ يلين معى ويعود إلى نعمة إزالة الكلفة بيننا وربما كان قد سمع عن سفر مهاى إلى البلد ولقائها بالشخصية الكبيرة وقدر أنى دائماً أقوى منه وأذكرى منه فى التخطيط الدبلوماسى ، فلم يحاول أن يسألنى أو يناقشنى أو يحاسبنى على إعطاء « فيزا » للدخول دون علمه أو علم أحد من موظفى السفارة ، حتى لا يثير بينى وبينه أزمة جديدة ، وعاد إلى أضعف مما كان ، وكنت أشفق عليه لأنى كنت واثقاً أنى أنا الذى أستطيع أن

أنقله أو أحيله إلى ملجأ المبعدين فإنى أملك أسرار وأسرار الذين يملكون حتى الإطاحة بأى موظف فى البلد . . أنا صاحب بئر الأسرار . . ولم يعف السفير من غصبي إلا تقديرى واحترامى للسيدة زوجته . . لولاها لأطحت به . . ولكن . .

صدقتى أنى بدأت فى هذه الأيام أزهر وأزهر من نفسى ومن كل ما يحيط بى . . أزهر وأزهر من عملى . . بدأ إحساسى بأنه عمل قدر يؤرقنى ويعذبنى . . ومع اعتبار أنه عمل وطنى ، إلا أن كثيراً من الأعمال الوطنية تفرض الإلتجاء إلى القذارة . . كالجاسوسية مثلاً . . إن التجسس سواء فى المجال الخارجى أو المجال الداخلى لا شك أنه يعتبر عملاً وطنياً رئيسياً ولكنه لا شك أيضاً أنه عمل يعتمد على عمليات قدرة ، وأخطر ما يهدد الجاسوس فى عمله وفى مصيره هو إحساسه بأنه يقوم بعمل قذر . . إن الجاسوس الناجح القوى هو الذى لا يتأثر بأى إحساس بالقذارة ، بل يؤدى أقدر مهمة وهو ملئ بالإحساس بأنه فقط يؤدى مهمة وطنية ، كالمقاتل الذى لا يحس بأنه يقتل بل يحس بأنه يؤدى خدمة لبلده . . كذلك مهمة العلاقات العامة خصوصاً الجانب النسائى منها ، لا شك أنها عمليات وطنية كما سبق أن شرحت لك ، رغم كل ما فيها من قذارة ، المهم ألا تحس بهذه القذارة ، ولكنى بدأت أحس بها . . بدأت أفقد متعة الاهتمام بالعمليات التى أقوم بها ، وبدأت أهرب من كثير من هذه العمليات ، وأدعى المرض حتى لا أشارك فى استقبال كبار الوافدين من بلدنا . . وبدأت أتمنى الراحة . . الراحة النفسية والراحة الذهنية . . أريد أن أحاول تحقيق حلمى القديم عندما كنت لا أزال طالباً فى الجامعة عنكم ، وهو أن أستمع فى دراسة الفلسفة إلى أن أحصل على الدكتوراة وأصدر عدة كتب ، لا تزال تقصنا تشمل فلسفة المجتمع العربى . . على الأقل أريد أن أرفع نفسى عن مستوى القذارة . .

ولم يكن هذا سهلاً . . إن الحياة التى تعودتها استولت على ، والنجاح الذى حققته وما جمعته من ورائه من أموال أصبح أقوى منى . . إن الإنسان الناجح لا يشبع أبداً من النجاح ، ولا يكتفى أبداً بوائه . . ليس هناك حد أعلى للنجاح ولا للثراء ، ولذلك لم أستطع أن أتخذ قراراً بتغيير شخصيتى الرسمية والبحث عن شخصية جديدة وعمل جديد بعيداً عن القذارة والقرى ، كل ما استطعته هو أن أمتنع نفسى أجازه ، وحتى هذا لم يكن سهلاً ، فخلال السنوات الخمس منذ التحقت بالعمل الدبلوماسى لم أمتنع نفسى أجازه بل أنى كنت أتنازل عن الأجازات الرسمية . .

وقررت أن أقضى الأجازه فى اليابان . . أقرب بلد إلى مركز عملى . . وكنت قد ذهبت إلى اليابان قبل ذلك عدة مرات فى عمليات سريعة خاطفة ، ولكنى أذهب هذه المرة فى اجازة . .

وقررت أن أخنى وجودى فى طوكيو عن كل أصدقائى من رجال السفارات العربية . . أريد أن أكون وحدى بعيداً عن جو الرسميات وبعيداً عن كل ما يذكرنى بعملى ، وقضيت الأيام الأولى وأنا أطوف بالمكتبات وأجمع الكتب التى أرى أنها يمكن أن تساعدنى على استعادة اهتمامى بدراسة الفلسفة ، ثم أتعهد أن أقضى الليل وأنا أحاول أن أقرأ . . وصدقتى . . لم أعد أستطيع القراءة . . ليس فقط لأن لغتى الإنجليزية ازدادت ضعفاً ، ولكن لأنى فقدت التعود على القراءة . . فقدت قدرتى على تركيز عقلى فيما أقرأ . . ورغم ذلك فقد كنت أفرس على نفسى القراءة كأن فى داخل طفل صغير يشده أبوه إلى المدرسة غصباً عنه . . وكنت خلال النهار أتدرد أحياناً على دكان داخل الفندق الكبير الذى أقيم فيه مخصص لبيع آلات التصوير والأفلام . . كان من بين ما أحاوله بجانب القراءة هو محاولة اكتساب

هواية التصوير . . وعرفني صاحب الدكان وعرفته من طول الوقت الذي كنت أقضيه معه وهو يطلعني على آخر الآلات وآخر تطورات فن التصوير . . وكنت يوماً في دكان الصور الفوتوغرافية . . ودخلت فتاة رائعة ليست يابانية وقدرت فوراً من لهجة حديثها أنها أمريكية . . لم تكن مجرد فتاة جميلة ، ولكن كان فيها نوع من جمال الرفع والتعالى . . نظرات عينها تحيط بكل ما حولها في ثقة وغرور كأنها موكب رسمي يتقدمها . . وأصابع يديها رفيعة طويلة تحمل بينها خاتماً ماسياً لا يقل حجمه عن ثلاثة قواريط تحركها كأنها تعزف بها على رؤوس كل الذين يقفون أمامها اللحن الذي تريده . . وكان معها فتاة أخرى جميلة أيضاً وتسير خلفها وقدرت أنها لا شك سكرتيرتها أو وصيفتها . .

وتحدثت الفتاة الأمريكية الرائعة إلى صاحب الدكان في لهجة أمرة رغم نعومتها ، وكانت تلومه على آلة سبق أن باعها لها ، وقالت في بساطة كأن من حقها أن تهين شعب اليابان كله :

- إنكم هنا تنقلون كل جديد يظهر في أى مكان من العالم ، ولكن عيبكم أنكم تنتظرون أكثر من أسبوع حتى تصلوا إلى الجديد الذي يظهر بعده في حين أن ما بعده يظهر بعد يوم واحد . .

وقال صاحب الدكان في احترام كبير وهو ينحنى برأسه وظهره عدة مرات على الطريقة اليابانية :

- هذه آخر آلة وصلتنا . . وصلتنا أمس . .

وبسرعة كان ذكائي كله قد يجمع وتركز حول هذا الجمال المتعالى ، فتدخلت وقلت وأنا أشير إلى الآلة التي أحملها وكان يعرضها على منذ دقائق :

- ولكنك قلت لي إن هذه الآلة وصلت اليوم لا أمس . .

ثم التفت إلى الفتاة الرائعة قائلاً وأنا أقدم لها آلتى :

- أعتقد أنها تختلف . .

ونظرت إلى نظرة سريعة أحسست أنها طوقفتي بها كلى كأنها التقطت كل مقاساتي ، ثم مدت يدها وأخذت منى الآلة وبدأت تفحصها كأنها عالمة متخصصة في علم التصوير ، ثم قالت :

- فعلاً إن فيها شيئاً جديداً مختلفاً . .

واستمر بيننا الحديث . . أنا وهى وصاحب الدكان ، بيننا الفتاة الأخرى صامتة لا تتكلم كأنها في انتظار أوامر سيدتها . . وفى خلال الحديث قال لها صاحب الدكان مشيراً إلى :

- إنه عربى . .

وفتحت عينها في ومضة سريعة واتسعت ابتسامتها قليلاً وقالت :

- هل صحيح . . أنت عربى ؟

قلت ضاحكاً :

- نعم . . ولكنى من بلد ليس فيه بترول . .

قالت من خلال ابتسامتها كأنها لا تصدقنى :

- هل هناك بلد عربى لا يملك البترول . .

قلت :

- كثير . .

ولا أدري ما الذى دفع ذكائى إلى الكذب عليها ، ربما لأنى كنت أريد أن أقنعها بأنى أرقى من أبناء دول البترول العربى ، أو أنى أردت أن أقدم لها نفسى

على أنى أعتد على ثقافى وعملى لا على دخلى من البترول ، أو ربما أردت أن أختبرها
لأكتشف ما إذا كانت إحدى النساء اللاتى يندفعن وراء إغراء رجال البترول ،
أقصد ، فلوس البترول ، أم أنها ليست من هذا النوع . . امرأة شبعانة . . ومن
يدرى ربما كانت هى نفسها ابنة أحد أصحاب شركات إنتاج البترول . .
وقلت متودداً :

- ألم تذهبي إلى إحدى الدول العربية . .

قالت :

- لا . .

قلت :

- يشرقى أن أدعوك .

قالت ضاحكة وهى تهم بمغادرة الدكان :

- إنها دعوة تحتاج إلى تفكير طويل . .

قلت :

- هل أستطيع أن ألقاك حتى أساعدك على التفكير . .

ونظرت إلى نظرة احترت فيها ، هل هى نظرة فرحة أم نظرة ساخرة ، وقالت :

- إنك تقم فى نفس الفندق . . أليس كذلك . . ما هو رقم غرفتك

لأنصل بك . . .

وأعطيتها رقم الغرفة ، وتركنتى بعد أن لفتنى بابتسامتها . . وأحسست فعلاً
أنى ملفوف فى هذه الابتسامة حتى خيالى لفته معها ، وبدأت أنحيل بها كل مستقبل . .
إنها لا شك ابنة عائلة أمريكية غنية . . إنها مليونيرة أو ابنة مليونير . . وهى

فرصة لأفتح لنفسى مجتمعاً جديداً ومستقبلاً جديداً . . قد أتزوجها . . لماذا
لا أتزوج . . إن هذا النوع من النساء الذى كنت أنعامل معه كان ينفردى من
التفكير فى الزواج ، كان يدفعنى إلى تصور أن كل نساء الأرض من هذا النوع ،
ولكن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من هذا النوع . . وحتى لو كان لها ماض
فلا يمكن أن تكون محترقة ، والنساء فى المجتمعات المتقدمة لا يحاسبهن أحد على
الماضى ولكنهن يحاسبن على المستقبل . . فلنفرض أن لها ماضياً . . لا يهم . .
أتزوجها . . وبعد أن أتزوجها يصبح من حقى بحكم القانون الأمريكى أن أحصل
على الجنسية الأمريكية . . أى أنى لا أتزوج هذه وحدها ولكنى أتزوج أمريكا
كلها . . وأحسست بفرحة تملأ صدرى كله وأنا أنحيل نفسى وقد أصبحت أمريكياً ،
وربما تلومنى على هذه الفرحة لأنى أعلم أنك متمزت فى وطنيتك ، ولكن التجنس لم
يعده اليوم علاقة بالوطنية ، أصبح أشبه بعقد عمل . . تعطيك الدولة التى تحمل
جنسيتها كذا نظير أن تدفع لها كذا ، وتستطيع فى الوقت نفسه أن تحتفظ لوطنك
الأصلى بكل عواطفك وأن تبرع له بكل ما تريد التبرع به حتى لو تبرعت له
بروحك فى قتال . . هذا هو الآن واقع الإنسانية الدولية . .

وكل هذا الفكر يسيطر على خواطرى وأنا جالس فى غرفتى بالفندق فى انتظار
دقات جرس التليفون لأسمع صوته . لا أستطيع القراءة طبعاً . . ولا أستطيع أن
أشغل فكرى بأى شئ آخر . . إن كل فكرى مركز فى مشروعى الجديد . .
والساعة وصلت التاسعة مساءً وجرس التليفون لم يذق . . وبدأت أفتنى فى نفسى
تهتز . . فتتى فى وسامتى وقوة الجذب التى يقرضها دائماً وجودى . . ربما كانت
هذه الفتاة أقوى من قوة جذبى . . لا يمكن أن تطلين بعد الساعة التاسعة . .
فات الوقت الذى يمكن أن تنق فىه على لقاء سهرة . . وخرجت من غرفتى وذهبت

إلى « بار » الفندق وأنا أتلفت حولى فى كل خطوة أبحث عنها وكأنه يمكن أن نجتمعنا المصادفة مرة ثانية .. ووجدت نفسى أستسلم لكؤوس الويسكى على غير ما تعودت .. سكرت وعدت إلى فراشى وألقيت نفسى عليه كأنى أصبحت جثة هامدة ..

وفى اليوم التالى ، وبعد أن تغلبت على الصداع الذى تركته فى رأسى كؤوس الويسكى ، عدت أفكر فى هذه الفتاة الأمريكية .. هل اتصل بها .. إنى أطيع أن أعرف رقم غرفتها لو أردت .. ولكن هل اتصل بها .. لا .. إن اتصالى بها يضعفنى أمامها .. لأنتظر اليوم أيضاً ..

ونجحت بانتظارى ..
دق جرس التليفون فى الساعة السابعة مساء وقالت كأننا أصدقاء قدماء :
- أنا جوانا .. أين كنت ليلة أمس .. اتصلت بك فى الساعة العاشرة ولم أجده ..

قلت :
- انتظرتك حتى التاسعة ثم بیست ..
قالت :
- آسفة .. تأخرت عليك .. كنت مشغولة ..

قلت :
- سأراك الليلة .. أين ؟
قالت :
- فى جناحى الخاص .. هنا ستجد كل شىء .. ونستطيع أن نتعرف أسرع ..

قلت :

- موافق .. وسعيد ..

قالت :

- ولكن .. هل أمرت السائق بأن يضع سيارتى فى الجاراج ..

ولم أفهم شيئاً وقلت فى سذاجة :

- آسف .. ماذا تقولين ؟

وكررت نفس الكلام :

- هل أمرت السائق بأن يضع سيارتى فى الجاراج

وعدت أقول :

- لا أفهم .. أى سائق وأى سيارة ؟ !

وضحككت ضحكة خافته وقالت فى صوت هادئ :

- نسيت أنك غريب وقد لا تفهم هذا التعبير .. إنى أريد أن أقول لك

إنى سأكلفك كثيراً ..

قلت وأنا أحاول أن أنكر ما سمعته :

- ماذا تقصدين ؟

قالت :

- الجناح الذى نلتقى فيه له ثمن .. والطلبات لها ثمن .. وأنا لى ثمن ..

وأحسست كأن زلزالاً ثار فى داخلى وهدم كل خيالى وكل خواطرى وقلت

والصدمة ترك فى لسانى طعم الخيبة والقرف :

- آسف .. وقد سبق أن قلت لك إنى رغم أنى عربى فإنى من دولة ليس فيها

بترول .. لست غنياً .. وقد جئت إلى طوكيو مدعواً وأقيم على حساب الدعوة ..

وليس في جيبي إلا ما يكتني مصروفى الخاص . .

قالت والأسف يقطر فعلا من كلماتها :

- خسارة . . . لقد أعجبت بك فعلاً منذ رأيتك . . اسمع . . إن أقل ما أستطيع

أن أقبله هو خمسمائة دولار . . هل تستطيع ؟

وقلت وأنا أكبت غيظي من خيبتى :

- أرجوك ، دعبنى أفكر . .

قالت في بساطة :

- سأنتظر منك تليفوناً حتى الساعة الثامنة . . وأنا آسفة . . ويجب أن تقدر

أن الحياة مكلفة . .

وتركتنى أقام آثار هذا الزلزال الذى أطلقته فى صدرى . . ويبدو أن كل

نصيبى فى الحياة هو هذا النوع من النساء . . يبدو أن قوة الوجود التى أدعياها

لنفسى لا تؤثر إلا فى هذا النوع ، فلم تنجذب إلى أبداً فتاة ليست محترقة أو ليست

على استعداد للاحتراف . . ولكنى لم أكن أعتقد أن هذا يمكن أن يكون نصيبى

حتى مع فتاة أمريكية ألقيت بها فى طوكيو . . والحضارة الأمريكية مسيطرة

سيطرة كاملة على اليابان . . كل الحياة فى اليابان تأمركت . . ولكنى لم أكن

أعتقد أن الأمريكان استولوا على كل شيء حتى على أسواق الدعارة . .

وربما كانت جوانا ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي يسمونهن فى أمريكا

« فتيات التليفون » وقد مدت نشاطها ومعاملتها كما تفعل الشركات الأمريكية

حتى وصلت بنفسها إلى اليابان وربما مدت سيطرتها هنا حتى تصل إلى بيوت الجيشا

فتمزكها هى الأخرى . .

ولكن لماذا أقام نصيبى فى الحياة . . لماذا أعود بنفسى إلى أيام الطفولة

الاجتماعية عندما كنا نؤمن أن الحياة كلها هى مجموعة من المبادئ العامة . .

الشرف . الأمانة . . الوطنية . . الحرية . . و . . و . . وأترك هذه

المبادئ العامة تشعرنى بأنى أقيم بأعمال قدرة . . إن الدعارة ليست أكثر قدارة

من القدرة السياسية أو القدرة الاقتصادية التى تعيشها المجتمعات الرسمية والراقية

فى كل أنحاء العالم . . المرأة الداعر أنظف وأصرح لأنها لا تكذب على أحد

ولا تتخدع أحداً ، إنها تمارس الخطيئة وهى متحملة كل مسؤولياتها حتى أمام الله ، أما

السياسى الداعر أو الاقتصادى الداعر فهو يكذب حتى على الله . . يكذب ،

ويؤذى . . وحتى بالنسبة لنفسى . . ما هو أشرف لى كعمل أتحمّل مسؤوليته . .

أن أعد ليلة يقضها أحد المسؤولين من ضيوفنا بصحبة امرأة حتى أحيمه من امرأة

أخرى قد تكون جاسوسة أو عميلة مسلطة عليه أو على بلدى ، أم أشرت لى عملية

اقتصادية أحصل منها على عمولة وأستنزف بها أموال ومصالح شعبي . . إني فى

العملية الأولى يسمونى « قواداً » وفى العملية الثانية أسمى « إقتصادى » أو رجل

أعمال . . أيهما أشرف لى لأكونه . . قواداً أم رجل أعمال إذن لماذا أقرز من

جوانا بعد أن أكتشفت أنها تحترف الدعارة . . لماذا لا اعتبرها مجرد سيدة أعمال

وأصطفاها لألقى بها طعاماً فى بحر الأسرار . . لقد كنت أريد أن أعتبر نفسى

فى أجازة . . لا لست فى أجازة .

والثورة على نفسى تستبد لى إلى أن رفعت سماعة التليفون واتصلت بجوانا

وقلت فى لهجة جادة سريعة كأنى أصدر قراراً خاصاً بصفقة هامة :

- أعددت ما تطلبين . . متى أفاك :

قالت كأنها تزغرد :

- رابع . . أعفيتنى من حيرة البحث عن آخر . . أنتظرك التاسعة . .

وذهبت إليها . .

إنها هي حتى بعد أن عرفت على حقيقتها . . الجمال الرائع المتعالى الراحل المتعفف . . وكان كل ما تحدثنا فيه ليس سوى صفقة تجارية شريفة لا تؤثر في هذا المتعالى والتعفف . . وأصابعها الرفيعة الطويلة تمتد وتتحرك فوق يديها كأنها تعرف بها على رؤوس كل من يقف أمامها اللحن الذي تريده ، وكأنها رغم احترافها لا تعرف إلا اللحن الذي تريده . . والجناح الذي تقيم فيه هو نفس الجناح الذي يمكن أن يقيم فيه حاكم من الحكام أو أميرة من الأميرات كأنها تعتمد أن تضع نفسها في نفس المستوى وهي واثقة دائماً بأنها تستطيع أن تحصل على تكاليف هذا المستوى . . إنها من نفس نوع نساء العائلات اللاتي سبق أن حدثتكن عنهن . نفس مستوى الخطيئة الغالية . .

وأخرجت من جيبي بمجرد أن جلست مظروفاً يحمل الدولارات وقلت :

- حتى أطمئنتك . .

والتقطت المظروف بأطراف أصابعها الطويلة الرفيعة وقالت في تأفف متعال :

- شكراً . .

ثم ألقت المظروف على مائدة بعيدة ، وقلت :

- أرجو أن تفتحه وتعدى ما فيه ، فقد أعطيت أكثر حتى تعطيني أكثر . .

وكنت قد وضعت في المظروف ألف دولار بدلا من الخمسمائة التي طلبتها ، ولكنها لم تفتح المظروف وتركته بعيداً وقالت وهي تقترب مني وجسدها العاري يبدو من خلف الثوب الشفاف كشعاع من النور :

- لا يهم ما تعطيني وما أعطيتك . . الذي يهم هو إحساسك وأنت تعطيني

إن الفنان يستطيع أن يرسم صورة فتبدو عادية ويرسم نفس الصورة فتبدو رائعة ،

لأنه رسم الأولى بناء على طلب زيون ورسم الثانية بناء على إلحاح إحساسه . . كل شيء في الحياة فن . . والفن إحساس لا يمكن أن تقدر له ثمناً . .

واستدارت تعدى كأس الويسكي ، وقلت :

- وهل أنا زيون أم إحساس . .

قالت وهي تقدم لي الكأس ثم تجلس بعيداً على المقعد المقابل :

- أنت أعجبني وأثرني منذ رأيتك . . تركتني أحس كأنني أريد أن أكتشف

علماً جديداً . . ولا أدري إلى ماذا سيؤدي هذا الإحساس في الساعات التي نعيشها

الآن . . ربما اكتفيت بك كزيون تشرفت به وربما أثرتني كإحساس يتعلق بك . .

هكذا كانت تتكلم . . فلسفة صريحة رائعة لا تعتمد على كلمات مزيفة

ولا آراء عامة . . إنها تقول في صدق كل ما تحس به فعلاً .

واستمر حديثنا طويلاً وكأننا في جلسة عائلية تضم زوجاً وزوجة في إحدى

لبالي شهر العسل ، إلى أن قالت خلال الحديث :

- هل تعرف فهمان البارجي . .

وبهرت كأنني أقفز بصوت من فوق مقعدي :

- هل تعرفينه ؟

قالت في هدوء :

- عرفته بعض الوقت في بوسطن . . إنه ذكي وكريم . .

واستعدت صورة البارجي في خيالي . . إن كل الناس تعرف فهمان البارجي ، إنه

أنجح رجل أعمال عربي بل إن نجاحه أصبح يقارن بنجاح رجال الأعمال العالميين . .

وقد بدأ نجاحه معتمداً على نفس العلم الذي أعتمد أنا عليه ، علم أو فن العلاقات

العامة ، والاتصالات الشخصية . . ورغم أنني لا أعرفه شخصياً إلا أنني كنت أعتبره من

بعيد أستاذى ، وأعتبره الأمل الذى أتمنى تحقيقه ، وكنت أغار منه وأحقد عليه أحياناً ولكنه كان أضخم وأكبر من أن تصل إليه غيرتى أو حقدى .. وربما كان يمكن بالعمليات التى أقوم بها أن أصل إلى مستواه ، لولا أنه يقوم بعمليات لم أستطع أن أحقق مثلها حتى اليوم .. عمليات الأسلحة .. إنك لا تدري كم تستطيع أن تكسب من عملية واحدة للسلاح .. ربما أكثر من عشرة ملايين دولار .. إن هناك صحفياً شاباً فى إحدى البلاد العربية أستطاع أن يحقق بعملية سلاح واحدة أضعاف ما كسبته صحافة بلده - كصحافة - فى عشر سنوات .. وآه لو استطعت أن أصل إلى عملية سلاح واحدة .. تكفينى عملية واحدة وبعدها أتوب إلى الله .. وجوانا كانت تعرف فهمان البارجى ، ولابد أنه استخدمها فى بعض عملياته .. أى أنها مرت بتجارب وأصبحت خبيرة فى فن العلاقات العامة ، وفهمان البارجى لا يمكن أن يستخدم أحداً سواء كان رجلاً أو امرأة إلا وهو واثق أنه يستطيع أن يحقق ما يريد منه ..

وبسرعة انقلب تفكيرى كله وانحصر فى موضوع واحد حتى أنى لم أجد أرى جسد جوانا العارى من خلف ثوبها الشفاف إنما عيناى مركبتان فوق جبينها كأنى أحاول أن أقيس ذكائها وأحاول أن أقنع نفسى بالاطمئنان ، ثم قلت لها :
- جوانا .. لقد كذبت عليك .. فأبى لست هنا فى طوكيو بناء على دعوة ..
إنى فى جولة حرة .. وأنا وزير مقوض فى السلك الدبلوماسى فى بلدى .. والأهم من ذلك إبنى رجل أعمال ..

ولم تدعش جوانا وهى تسمع اسم بلدى رغم أنى كنت قد ادعيت أمامها أنى مصرى حتى لا تعتبرنى من أبناء البترول ، وكأنها كانت تعرف الحقيقة ، وقالت وكأنها تربت على خدى بابسامتها الحلوة المترفة :

- ولماذا كذبت ؟

قلت ضاحكاً :

- كنت أريد أن تقبلى فى حبنى لا فى ثرائى ..

قالت :

- وهل الحب لا يكون إلا مع الفقر ..

قلت :

- لا .. ولكنه لا يشتري .. والرجل الغنى كالفتاة الغنية كل منهما يعانى من عقدة الإحساس بأن لا أحد يحبه ولكن كل الناس تحب أمواله ..

قالت :

- إن الحب يفرض أن يعيش الرجل والمرأة فى مستوى واحد ، فإذا كان فقيراً جمعهما الفقر ، وإذا كان مليونيراً فيجب أن يرفعها إلى مستوى المليونيرات ..
هل أنت مليونير ؟

قلت :

- على وشك أن أكون ..

قالت :

- ولماذا قررت أن تصارحنى بالحقيقة .. حقيقتك ؟

قلت وأنا أنظر إليها كأنى أغريها :

- لأننى فى حاجة إليك ، وقد استطعت بسرعة أن تقنعنى بنفسك .. وأنت تعلمين أن كل رجل أعمال فى حاجة إلى من تساهم معه فى مسئولياته الاجتماعية .. وأريد أن أعرض عليك أن تنترغى لى .. أقصد للعمل معى .. ونظرت إلى كأنها تحاول أن تعرفنى أكثر وقد نسبت هى الأخرى جسدها العارى

تحت ثوبها الشفاف ، وقالت :

- كيف .. كيف أنفرغ لك .. لعلك تقصد ألا أكون لرجل آخر ..

وأجبتها كأني أني تهمة :

- لا .. قلت إنى أريدك أن تنفرغ لى فى العمل لا أن تنفرغ لى فى الفراش ..

وعادت تنظر إلى صامته نظرة طويلة ثم قالت :

- موافقة .. إنها فكرة تستحق التجربة ..

قلت فرحاً :

- والتجربة تبدأ بأن تعتبرى كل تكاليف إقامتك فى طوكيو على حسابى

الخاص ، أقصد على حساب مكبى ..

قالت وهى أيضاً فرحة :

- هذا يعينى من البحث عن أى رجل آخر .. أستطيع أن أنفرغ لك فعلاً ..

فعلاً ..

قلت :

- وبعد يومين سأعود إلى مقر عملى ، وتعودين معى لتقضى هناك ..

قالت :

- ولكنى كنت قد قررت أن أسافر إلى هونولولو ..

قلت :

- أسافر معك ..

قالت :

- لا .. إنى مرتبطة هناك بمواعيد سبى أن حددتها قبل أن نتعارف ..

قلت :

- المهم أن أكون معك فى بلد واحد ..

قالت :

- الأفضل أن ألحق بك فى أى بلد تكون فيه .. ولن أغيب فى هونولولو

أكثر من ثلاثة أيام ..

ونظرت إليها كأني أشك فيها حائراً فى نواياها ثم قلت :

- موافق ..

وأقنعت نفسى بأنه لا يهم أن تغيب وحدها بعيداً عنى فى هونولولو فالخطة

كلها لا تزال مجرد تجربة بالنسبة لى كما أنها تجربة بالنسبة لها ..

وقلت وأنا أنزك مقعدى وأقرب منها وأشدّها إلى صدرى وأصل بكفى إلى جسدها

العارى من تحت ثوبها الشفاف :

- دعينا نوقع عقد الإنفاق ..

وأخذت شفتيها .. أول شفاه أمريكية أندوقها .. إن الشفاه الأمريكية لها طعم

مفر جذاب يتغلب على طعم الاحتراف .. وأعطينى جوانا ليلتها أضعاف

الأحاسيس التى كانت تعطينى لى مهاياى ..

إن ما تعطينى تابيلاند شيء وما تعطينى أمريكا شيء آخر ..

وفى صباح اليوم التالى ونحن لا نزال فى الفراش قالت لى جوانا :

- لقد تذكرت شيئاً ربما يهيك ، فقد كنت جالسة منذ أيام مع بعض

الرجال الأمريكان وأعتقد أنهم يمثلون شركات لا أدري ما هى ، وكانوا يتحدثون

عن مشاكل يواجهونها فى بلدك بخصوص إحدى العمليات ..

قلت وأنا مازلت أتمطى :

- أى نوع من العمليات ؟

قالت وقد اكتشفت أنها من النوع الذى يشتعل نشاطاً بمجرد أن يفتح عينيه :

- لا أدري . . ولكنى أستطيع أن أدعوم الليلة هنا على كأس شراب وأقدمهم لك وتفهم مشكلتهم .

إنها تبدأ العمل منذ اليوم الأول ، لا شك أنها تلميذة ناجحة من تلاميذ فهران البارجى . .

وقد تركتها فى الصباح وعدت إليها بهدية عبارة عن طاقم كامل من اللؤلؤ . . عقد وسوار وخاتم وحلق . . كلفنى حوالى عشرة آلاف دولار . . كان يجب أن أجدها بأقوى خيوط الإغراء . . وفى المساء عرفنى فى جناحها الخاص بالذين حدثنى عنهم من رجال الأعمال الأمريكان ، وقدمتنى إليهم كأنى أملك كل مصير بلدى . . وكانت مشكلتهم خاصة بعملية توريد مجموعة أنايب ومعدات خاصة بآبار البترول تكاد شركة أخرى تفوز بها عليهم ، برغم أن شركتهم معروفة عالمياً بارتفاع مستوى إنتاجها ورغم أنهم قدموا عرضاً أقل تكلفة . . و . . إنها عملية تساوى ثلاثة ملايين دولار ، وعمولها تصل على الأقل إلى مائتين وخمسين ألف دولار . .

واتفقت معهم على أن أتحمّل مسئولية إتمام هذه العملية لحسابهم ، وأن يلتقوا بى بعد خمسة عشر يوماً فى مقر السفارة ، وقلت ضاحكاً كأنى ألقى مجرد نكتة :

- لقد ظلمت نفسى عندما قبلت منصب وزير مفوض ، فإن عملى فى الواقع هو تحقيق مثل هذه العمليات ولذلك فإنى أعتبر أن حتى يضع عندما لا أحصل على العمولة كاملة . .

وقالوا فوراً :

- طبعاً . . طبعاً . . هذا حقك . .

وقد قلت هذا الكلام لأن العادة جرت على الاحتفاظ بالعمولة الكاملة لوكلاء الشركة بينما يعتبر أصحاب المناصب من الوزراء وكبار رجال الدولة من العناصر المساعدة فلا يتألم إلا جزء من العمولة .

وقد تفرغت لى جواناً فعلاً خلال الأيام التى قضيتها فى طوكيو ، وكنت فى كل يوم أكتشف أنها ليست مجرد امرأة تحترف ليالى الجسد ، إن فى داخل رأسها ثقافة كاملة ومعرفة واسعة بفن العلاقات العامة ، وبلغت فرحتى بها إلى حد أن أقنعت نفسى بأنى لست بالنسبة لها مجرد رجل بل إنها تحبى ، أو على الأقل تميزنى عن باقى الرجال الذين تستطيع أن تحصل منهم على أكثر مما تعطيم . . ولم يكن يبدو عليها أبداً افتعال أى شئ . . إنها حتى وهى تحدثنى فى مجالات العمل لا تتباهى بمعلوماتها ولا تبدو كأنها تلقى على درسا بل تبدو كأنها مجرد امرأة عادية تقول رأياً عادياً ، ثم وهى تعطينى . . إنها لا تفتعل . . لى أنى أحس بها أبداً كأمرأة مأجورة ، كما أنها لا تفتعل التظاهر بحبى . . ولكن البساطة التى تعطى بها هى التى تجعلنى أحس بأنها تريدنى كما أريدها . . إلى أن سافرت إلى هونولولو فى هذه الرحلة الغامضة التى فضلت أن تقوم بها وحدها . . ربما خطر على بالك أنها قد تكون جاسوسة أو إحدى بنات المخابرات الأمريكية « لا بهم » فإنى لا أملك من أسرار بلدى السياسية أو الاقتصادية أكثر مما يملكه أى شخص فى الشارع ولا أكثر مما ينشر فى الصحف . . لا يمكن أن يكون لبلد مثل بلدى أسرار ، إن الأسلوب الذى نتعامل به لا يترك مجالاً للأسرار . . لا أسرار داخلية إنما فقط الأسرار الشخصية . . أسرار الفرائش .

لذلك ، فإنى لست مستعداً أن أنخلي عن جوانا حتى لو كانت جاسوسة . .
وقد تركت طوكيو وعدت إلى السفارة وكان أول ما فعلته أن استأجرت شقة فاخرة في
أفخر أحياء البلد لتقيم فيها جوانا عندما تصل وساهمت ميزانية العلاقات العامة في
تحمل تكاليف إستئجار هذه الشقة . . وقد تولى شفتيك إمتعاضاً وأنت تسمع منى أنى
أنفق أموال الدولة على مشاريع خاصة . . يا أستاذى العزيز إن ميزانية العلاقات
العامة ليس لها مقاييس ولا يمكن أن تحدد فيها ما يجب وما لا يجب ، وهذا في كل بلاد
العالم حتى عندكم . . قد يأتى إليكم زائر أجنبي صغير . . وكيل وزارة مثلاً . .
وتضطر الحكومة أن تقيم له حفل عشاء ، فمن تدعو إلى هذا الحفل ؟ إنها تدعو على
الأقل مائة من الموظفين والصحفيين لا علاقة لهم بالضيف ولا يهمهم شيء من زيارته ،
ولا يجد فيهم الضيف نفسه شيئاً يهمه ، إن كل ما يهمهم هو مظهر الدعوة
 وأنواع الأطعمة والمشروبات التى تقدم لهم مجاناً ، وكل ذلك تتحمل تكاليفه الدولة
 من أجل لا شيء عملى سوى صورة فوتوغرافية تؤخذ لهذا الحفل وتنتشر فى الصحف
 وترسل إلى حكومة الضيف كمجرد مظهر للتكريم وحسن العلاقة بين البلدين . .
إن المظاهر لها تأثير كبير حتى لو كانت مظاهر كاذبة كمظاهر الاستقبالات
 الرسمية والشعبية التى تعد لرؤساء الدول . . المظهر له تأثيره وتكاليفه حتى فى تصرفات
 الفرد بالنسبة لنفسه « إنه قد يذهب إلى مطعم راق ليأكل طبق لحم يكلفه عشرة
 جنيهات فى حين أن نفس الطبق ونفس اللحم يستطيع أن يأكله فى مطعم آخر
 ويكلفه خمسين قرشاً . . المظاهر لها ثمن . . وميزانية العلاقات العامة هى كلها
 ميزانية المظاهر الكاذبة والتودد المفتعل . . إنك لو ذهبت فى زيارة رسمية إلى اليابان
 فإن الحكومة ستدعوك إلى بيت من بيوت الجيشا وستنجز عشرة على الأقل
 من رجال وزارة الخارجية اليابانية فرصة زيارتك ويدعون أنفسهم معك إلى هذا

البيت . . ليست الحكومات فقط . . حتى الشركات الكبيرة تخصص ميزانيات
 واسعة لهذه المظاهر ، وأنا لا أخذ شيئاً من مشروعات هامة تخص بلدى ولكنى
 أخذ من ميزانية المظاهر لأنفقه فيما أعتقد أنها مظاهر هامة . .
 وجاءت جوانا . .
 واتفقنا على أن تعيش كسيدة أمريكية ثرية جاءت سائحة وتمد إقامتها
 بحكم أن البلد أعجبها . . وكانت أول عملية بدأنا الاهتمام بها هى عملية مشروع
 معدات آبار البترول ، واستطعت بسرعة أن أغرى المسئول فى بلدى عن هذه العملية إلى
 زيارتنا زيارة رسمية ، وفى خلال ليالى الزيارة الرسمية قدمته لجوانا على أنها السيدة
 الثرية التى التقيت بها مصادفة وأصبحت صديقة محترمة . . وأنت قد لا تدري
 مدى الإنبهار الذى يصيب مسئولاً غريباً عندما يجد نفسه مع امرأة أمريكية
 جميلة ويخيل إليه أنه يستطيع أن يصل إليها فى الفراش . . إنه يحس كأنه يحاول
 أن ينتصر على أمريكا . . كأنه يهتك عرض العلم الأمريكى . . كأنه اعتدى على
 شرف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . . إنه الإحساس الشرقى القديم الذى
 يعطى جسد المرأة قيمة وأهمية لا وجود لها . . كأن فى هذا الجسد يتجمع كل
 كيان الأمة . . وكأن الاستعمار هو مجرد أن تستولى على جسد امرأة من بلد آخر . .
 وربما كانت جوانا قد درست هذا الإحساس للرجل العربى . . أو الرجل
 الذى ينتمى . . لدولة صغيرة بالنسبة لامرأة من دولة كبيرة ، فقد ظلت تبخل
 عليه مع الاحتفاظ له بأحلامه حتى اضطر أن يمد فترة زيارته أسبوعاً . . وعندما
 أعطته كنت أنا قد حصلت على موافقته على مشروع معدات الآبار . . إن الشركات
 كما تعرف تعطى للمسئولين دائماً عمولات - أو سمها رشاشى - فى شكل هدايا
 قيمة غالبية قد تشمل فصوصاً من الماس ، وأنا أعطيت هذا المسئول رشوة من نوع

آخر .. أعطيته جسد جوانا ..

وتسلمت فعلاً عمولة الصفقة .. أى أخذت مائتين وخمسة وعشرين ألف دولار .. واشترت لجوانا خانم سولثير ، فصا واحداً من الماس حجمه ثلاثة قراريط كلفني عشرين ألف دولار ، وتعمدت ألا أعطيها هديتها نقداً بالدولارات حتى لا تعتبر نفسها شريكة معى فى الصفقة وتتعود أن تطالبني بنصيب محدد .. والدنيا تفتح أمامى ومعى جوانا .. والجديد أن شخصيات أمريكية كثيرة بدأت تسعى إلى وبدأت أكتسب صداقتها ، وكنت أجتمع بهم فى شقة جوانا كأنهم أصدقاءها لا أصدقاءى حتى لا أكشف نفسى أمام السفير .. زوجة السفير وحدها .. السيدة التى أقدرها وأحترمها هى التى تعرف كل شىء .. إنها تعرف حتى قصة موظف السفارة الأمريكية الذى كنا نعتبره موظفاً صغيراً إلى أن كشف لى عن حقيقته عندما اجتمعت به فى ليلة من ليالى جوانا .. واعدتلى .. لن أحكى لك هذه القصة ..

المهم ..

إلى الآن لم أصل إلى تحقيق صفقة سلاح .. وأعتقد أنه يجب أن أستقيل من وظيفتى حتى أستطيع أن أتفرغ وتكون لى حرية أكبر للوصول إلى صفقة سلاح .. ولو استطعت فربما استطعت ونصوصاً وأنا معتمد على أصدقائى الأمريكان أن أكون وزيراً أو رئيس وزراء أو أن أقوم بانقلاب لصالحى ، ولكنى أفضل أن أصل إلى صفقة سلاح .. إذا وصلت فسأكتب لك مرة أخرى ..

❖ البحث عن الطريق الآخر ❖

مقدمة القصة :

عندما يكون الأب رئيساً . . هل يظلم أبناءه
أو يظلمه أبناؤه ؟

هذه القصة خطرت لى عندما كنت منذ شهور فى زيارة الهند . . فوجئت هناك بحملة عنيفة ضد سنجاي غاندى ابن السيدة أنديرا غاندى رئيسة الوزراء . . وكان سنجاي متهماً بأنه يستغل مركز ونفوذ أمه فى تحقيق مصالح خاصة ، منها إنشاء مصنع للسيارات ، كما أن الأم تفرض ابنها على المجتمع السياسى الهندى بدليل ، أنه أصبح رئيس وقائد حركة الشباب . . وقد كتبت أيامها فى جريدة « الأهرام » تفاصيل كل ما يقال هناك كما نشرت حديثاً جرى مع سنجاي يدافع فيه عن نفسه ويعلن أنه ليس فى حاجة لاستغلال مركز والدته بل إنه يعارضها فى كثير من آرائها ، وإنما هو يعتمد على حريته وجهده الخاص كأى واحد من أبناء الشعب بدليل أنه له أخ هو ابن أنديرا غاندى أيضاً ولكنه مبتعد ابتعاداً كاملاً عن المجتمع السياسى الهندى . . ورغم هذا فقد قبل إن سبب سقوط أنديرا غاندى وحزب المؤتمر فى الانتخابات هو تصرفات ابنها سنجاي وإنه هو الذى دفعها إلى إعلان حالة الطوارئ التى أدت إلى سقوطها . .

ومشكلة أبناء الرؤساء أو أبناء أصحاب السلطة مشكلة فى كل بلد من بلاد العالم ، وقد كان طوفى فرنجية ابن الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجية

متهماً بأنه يحكم لبنان باسم ابنه ، وأنه هو - لا أبيه - سبب كل ما حدث للبنان .. كما أن كارتر الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية كان قد أعلن بعد انتخابه أنه سيستعين باثنين من أولاده في تحمل مسئوليات البيت الأبيض ، فثار ضده حملة من معارضيه وكانت حملة خفيفة تعتمد على إطلاق التكات ، ظل كارتر بعدها مستمراً في الاستعانة بأولاده في تحمل مسئولية الحكم ..

وفي مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعى عندما رشح نفسه لرياسة مجلس الشعب متهماً بأنه اعتمد على أنه ناسب الرئيس أنور السادات بزواج ابنه من ابنة الرئيس ، وأذكر أنه بعد أن أعلنت الخطبة أن التقيت مرة والصدديق سيد مرعى وقتل له :

- على قدر فرحتي بخطبة حسن إلى ندى فأني أشفق عليك من هذا الزواج .. ولم أكن في حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعى فأني أعلم أن شخصيته السياسية بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب ، ولكني كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط أسرى مع رئيس الدولة سيثير حوله متاعب كان في غنى عنها ، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المتاعب .. وهو ما حدث فعلاً ..

وحتى في المستوى العادى لا مستوى الحكام ، فإن رياسة الأب لأى عمل يجعله محرجاً مع أولاده بالنسبة لهذا العمل .. فأنى رئيس مؤسسة يرفض غالباً أن يعين أبنائه في نفس المؤسسة حتى لا يتهم بالمحاباة أو باستثناء ابنه عن باقى المتقدمين إلى العمل ، فإذا عين الرئيس ابنه فعلاً فإنه يصبح في حرج كلما استحق هذا الأبن مكافأة أو كلما أراد أن يكل إليه القيام بمهمة ما ، حتى قيل إن بعض رؤساء المؤسسات في مصر اتفقوا فيما بينهم على أن يتولى كل منهم استخدام أبنائه

الأمر حتى لا يتهم باستثناءهم أو بمحاباتهم ..

وقد تعرضت أنا شخصياً لهذا الوضع المتعب ، فأنى ابن صاحبة المجلة التى بدأت العمل بها .. ابن السيدة روزاليوسف .. ومضت فترة كنت لا أعرف فيها بين الناس إلا بأنى ابن روزاليوسف وكان كل مجهود صحفى أبذله ينسب إلى أمى .. وكانت مشكلتي الرئيسية هى أن أثبت لنفسى شخصية قائمة بذاتها بعيداً عن شخصية أمى .. وكنت أتعهد أن أترك مجلة روزاليوسف وأعمل في صحف أخرى ، رغم حاجة العمل إلى .. لمجرد أن أحرر نفسى من اسم أمى ، وفى الوقت نفسه كانت أمى تعاملنى بحزم لا تعامل به بقية المحررين وتحدد لى دائماً أقل أجر حتى لا يعرف عنها أنها تحاببنى أو تستثنى من بين بقية الزملاء لمجرد أنى أبنها .. وهكذا ظلمت أمى وظلمتلى أمى ..

وبعد ذلك أصبحت أنا ابناً لابن يصير على أن يكون صحفياً .. وقد كنت أتمنى ألا يكون صحفياً فأنى أب يخيل إليه أن عمله هو العمل الوحيد الذى يجلب المتاعب والمخاطر ويتنى أن يبعد أولاده عن مثل هذا العمل .. ولكن ابنى محمداً أصر على أن يكون صحفياً ، فأصررت على ألا يعمل فى أى جريدة أعمل بها وخصوصاً إذا كنت أتولى فيها منصباً رئيسياً سواء كرئيس تحرير أو كرئيس مجلس إدارة .. وجاءت فترة كنت أنا أعمل فى مؤسسة أخبار اليوم وابنى محمد يعمل فى مؤسسة الأهرام ، إلى أن جاءنى يوماً وقال لى إنهم فى الأهرام يعاملونه ويحذرونه كأنه جاسوس لى .. فاضطرت أن أسمع له بأن يعمل معى فى أخبار اليوم ، وعهدت به إلى مدير التحرير الأستاذ سعيد سنبل دون أن أسمع له بالاتصال بى فى كل ما يخص العمل ولم أكن أوافق على أى إجراء به إلا إذا وافق سعيد سنبل ..

أتعبت ابني وأتعبني . . ولم يجد محمد حريته ولم يتقدم في عمله بأخبار اليوم إلا بعد أن تركها أنا . .

إنه موضوع طويل سبق أن كتبت فيه كثيراً وأنا أتساءل عن أبناء الرؤساء والشخصيات القيادية ، هل هم مظلومون بآبائهم أو أنهم يظلمون أباءهم ؟
وهذه القصة من وحي هذا الموضوع . .

إحسان . .



١

إننا في عز النهار . . الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً . . والشوارع كلها مزدحمة كالعادة بما فيها الشوارع الجانبية ، والسيارات مركونة بجانب الأرصفة وبعضها فوق الأرصفة في انتظار أصحابها . . وكان يسير في شارع رشيد عصر الجديدة ، وتوقف عند سيارة مرسيدس واقفة أمام باب عمارة ، ولم يلفت حوله ولم يحاول أن يرقب بواب العمارة الجالس على مقعد فوق الرصيف ، ومد يده يحاول أن يفتح باب السيارة وعندما وجده مغلقاً بالمفتاح . أخرج من جيبه لفافة من الشمع الطي الذي تلتصق به الضادات ، ولصق قطعة منها فوق النافذة الصغيرة الجانبية للسيارة ، ثم أخرج من جيبه « أجنة » حديدية صغيرة مما تستعمل في فك وربط الصواميل ، وضرب بها اللوح الزجاجي الصغير ضربة قوية فتحطم دون صوت ودون أن يتناثر الزجاج في الشارع ملتصقاً بقطعة الشمع ، ومد يده من خلال الزجاج المحطم وفتح باب السيارة من الداخل وقفز جالساً أمام عجلة القيادة . وانحنى ومد يده خلف لائحة العدادات . والنقط سلك البطارية وسلك « الكونتاكس » وأخرج من جيبه قطعة من ورق الشيكولاتة المضض وجمع به السلكين فدار موتور السيارة فوراً . . كان يتصرف بسرعة وخفة كأي لص محترف من لصووس السيارات . .

تأريلا

وتنبه بواب العمارة وجرى إلى السيارة صائحاً :

- بتعمل إيه يا جلع انت ؟ .

وقبل أن يصل البواب إلى السيارة كان اللص قد انطلق بها فأخذ يصيح :

- حرامى .. حرامى !!

وكأن في الشارع سائق تاكسي تطوع وجرى بسيارته يلاحق السيارة المسروقة وهو الآخر يصيح :

- حرامى .. حرامى !!

وتطوعت عدة سيارات أخرى لمتابعة اللص ، وكان الخير قد أبلغ للبويس فأطلق سيارة مجهزة بآخر ما وصل إلى البوليس المصرى من أجهزة ..

واللص يقود السيارة المسروقة بمهارة عجيبة ويدخل ويخرج بين شوارع مصر الجديدة كأنه في استعراض لسباق السيارات ، ولم تستطع أى سيارة أخرى أن تلحق به ، بل إنه من كثرة مفاجاته في اللف والدوران تسبب في تصادم سيارتين من السيارات التي تتبعه تماماً كما يحدث في أفلام السينما الأمريكية .. وبعد أن مضى أكثر من نصف ساعة على المطاردة لاحظ جميع المطارين

أن اللص بدأ يهدئ من سرعة سيارته واشتدت دهشتهم عندما قادهم إلى الشارع الذى يقع فيه مركز بوليس مصر الجديدة ، وعندما وصل إلى باب المركز كاد يتوقف بالسيارة ، وأحاطت به السيارات المطاردة وأجبرته على التوقف تماماً ، ونزل السائقون من سياراتهم واندفعوا إليه ، وربما هم بعضهم بأن يعتدى عليه بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شاباً وسياً هادئاً يتسم لهم فترددت الأيدي التي كانت تهم بالضرب ، وبدأوا يكتفون بالصراخ من حوله ، وامتدت يد الباشاويش وقبضت عليه من كتفه ثم شدته في عنق خارج السيارة ودفعته إلى داخل مركز

البوليس ، وهو مستسلم هادئ لا يقاوم ولا ينطق بكلمة ..

وأمام ضابط البوليس رفع الباشاويش يده بالتحية وهو يدق بقدمه على الأرض كأنه يطلق زغرودة الفرح وصاح :

- قبضنا عليه يا أفندم .. لص سيارة رشيد !!

ورفع الضابط رأسه من بين أوراقه في تكاسل وملل ، ولكنه ماكاد يلتقي بوجه اللص حتى انتهت كل خلجات وجهه وأخذ يطل النظر إليه كأنه لا يصدق عينيه ، ثم التفت إلى أفراد فريق المطاردة الذين ازدحمت بهم الغرفة وصاح :

- لا أريد أن أرى أحداً هنا .. يا شاويش .. خذهم لينتظروا في الخارج .. ودفع الشاويش بكل من في الغرفة إلى الخارج ، ولم يبق إلا الباشاويش وهو لا يزال قابضاً بيده على كتف اللص ، وقال الضابط :

- انتظرني أنت أيضاً في الخارج يا باشاويش .. أتركه لى ..

وتردد الباشاويش برهة ثم رفع يده بالتحية بلا حماس ولم يدق بقدمه على الأرض وخرج وكله دهشة ساخطة على تصرفات حضرة الضابط ..

ونظر الضابط في رفق إلى اللص وقال في صوت خفيض :

- اسمك ؟

وقال اللص وهو يتململ كأنه لا يريد أن يبقى وحيداً مع حضرة الضابط :

- أشرف ..

وابتسم الضابط وعاد يقول :

- وبقية الاسم ؟ . قل .. إني أعرفك !!

وقال اللص في زهق :

- أشرف عبد الصبور ..

وقال الضابط مبتسماً :

- تقصد أشرف إسماعيل عبد الصبور ..

وقال اللص في حدة :

- إن من حق أن أحدد اسمي .. هذا أقل حق لي حتى لو كنت لصاً ..

واسمى أشرف عبد الصبور !!

وقال الضابط وهو لا يزال يبتسم :

- لا يهم .. طبعاً أنت لم تسرق السيارة ؟ !

وصرخ المتهم :

- طبعاً سرقها .. ما هي السرقة إذا لم تكن هذه سرقة ؟ . إنني أعترف بأني

سرت .. لا تحاول أن تزور اعترافي ..

ونظر الضابط إليه في دهشة وقال :

- يا أشرف أرجوك أن تهدأ ، كل شيء يمكن إصلاحه ..

وصرخ أشرف :

- لا أريد إصلاح شيء .. أريد أن يكون نصيبي هو نصيب غيري ..

القانون ..

وازداد تعجب الضابط ونظر إلى أشرف نظرة جديدة وكأنه ينظر إلى مجنون

ثم قام من وراء مكتبه وهو يصرخ منادياً بالباشاويش وقال بمجرد أن دخل

إليه :

- إبقى معه إلى أن أعود ..

ورفع الباشاويش يده وأطلق زغرودة الفرح بقدمه التي يدق بها على الأرض ..

ونخرج الضابط مسرعاً ودخل إلى مكتب مأمور المركز .. وبعد لحظات عاد

والمأمور يهرول أمامه ونظر إلى أشرف كأنه لا يصدق عينيه ثم قال في حيرة

مفتعلة :

- لماذا يا ابني .. لماذا لا ترحموا آباءكم من « بلاويكم » ؟

وصرخ أشرف :

- أنا سرت .. افتح المحضر واستدع الشهود ..

وقال المأمور في لهجة خطيب الجمعة :

- ولأنك سرت لا يهلك أن تضعي البلد

وقبل أن يرد أشرف خرج المأمور وعاد إلى مكتبه وأجرى عدة اتصالات

تليفونية وبعد مدة نادى الضابط ليأتي إليه في مكتبه ومعه أشرف ، وقال وهو

يبتسم لأشرف ابتسامة يتوسل بها إليه حتى لا يتعبه :

- اتبينا يا أشرف اعتبر الموضوع كأن لم يكن .. تستطيع الآن أن تعود

إلى البيت ..

وصرخ أشرف :

- لن أخرج من هنا إلا بأمر النيابة ..

وقال المأمور وهو يشد أنفاسه كأنه يستغيث :

- لا داعي للنيابة ولا حتى لمحضر تحقيق فقد تنازل صاحب السيارة عن

دعواه وهو راض عما فعلته ..

وقال أشرف ساخراً :

- طبعاً نظير رشوة ؟

وقال المأمور :

- لا أعتقد أنها رشوة إنما طبعاً من حقه أن يأخذ حق إصلاح العطب الذي

حدث لسيارته ، ولم يعد هناك شهود فقد انصرفوا بعد أن اكتشفوا أنها شقاوة شباب ..

وقال أشرف محتدًا :

- تقصد شقاوة عيال .. لا يهم اعتبرى كما تريد أن تعتبرى - ولكنك لا تستطيع أن تفرج عني حتى لوتنازل صاحب السيارة .. إنها جريمة .. وصاحب السيارة ليس إلا مدعيًا بالحق المدنى إنما الخصم هو المجتمع ، والذي يعبر عن المجتمع هو القانون والذي يطبق القانون هو النيابة .. ولن أخرج من هنا إلى بعد استكمال كل إجراءات التحقيق وإذا رأت النيابة بعدها أن تطلق سراحى .. وقال المأمور فى (قرف) .

- إنى أرحب بك فى ضيافى وتستطيع أن تبقى هنا كما تريد .

ومال المأمور وهمس فى أذن الضابط وخرج الضابط من الغرفة مسرعاً ، ثم مال المأمور على أوراقه كأن موضوع أشرف الذى لا يزال جالساً أمامه قد انتهى ، وقال أشرف فى حنق :

- إنك تحل بمسئولياتك .. البوليس يجب أن يكون منتهزاً من مراكز القوى ..

ورفع المأمور رأسه إليه وقال كأنه يلقى عليه درساً .

- إن مسئوليتى هى منع وقوع الجريمة ..

وقال أشرف :

- الجريمة وقعت والسيارة سرقت ..

وقال المأمور :

- ليست هذه هى الجريمة التى كنت تقصدها .. الجريمة الأخرى لم تقع

بعد .. وأرجوك ، إجلس صامتاً فإن أمامى عملاً كثيراً ..

وقال أشرف وهو ينظر إلى المأمور فى غيظ :

- ضعنى فى زنزانة !!

- إن أى مكان هنا يمكن اعتباره زنزانة بما فيه مكتبى .. وأرجوك .. دعنى

لعملى ..

وسكت أشرف وقد بدأ يستسلم لليأس ..

والمأمور يدعى أنه غارق فى مراجعة أوراقه بينما يتسلل بعينه بين الحين والآخر إلى أشرف كأنه ينتظر منه مفاجأة ، وبعد أكثر من نصف ساعة دخل الضابط وهمس فى أذن المأمور ، وانتفض المأمور واقفاً وهو يقول لأشرف :

- يا أستاذ أشرف .. إن والدتك تنتظرك فى الخارج .. وأرى أنك توافقنى

على أن تذهب إليها بدلاً من أن تعرضها للدخول إلى مكاتب البوليس ..

وقام أشرف وقال وهو يزم شفتيه فى (قرف) :

- سأذهب إليها ..

وخرج من الغرفة دون أن يحيى المأمور أو الضابط ، والمأمور يجرى وراءه إلى أن أوصله إلى داخل السيارة التى تنتظره وانحنى إنحناءة كبيرة تحية لأمه ..

وانطلقت السيارة الفخمة وهو جالس بجانب أمه ، وهمت الأم بأن تتكلم ولكن أشرف قال وهو غارق فى الانهيار :

- دعبنى الآن يا ماما ..

ثم أمسك بيدها وقبلها واحتفظ بها فى يده ودموعه تكاد تطفر من عينيه كأنه يهم بأن يبكى نفسه ..

فطيلة حياته وهو يعيش هذه المعاناة .. معاناة الابن الذى ولد لأب

ناجح مشهور ويضع هو وراء هذا النجاح وهذه الشهرة .. ومنذ تنبه وعيه إلى الحياة وهو يجد على الباب رجال البوليس يرفعون له أيديهم « تعظيم سلام » إلى أن بدأ يتنبه إلى أن هذا « التعظيم سلام » ليس تعظيماً له إنما هو تعظيم لوالده .. هو وحده لا يستحق أى تعظيم .. ومنذ دخل المدارس وهو متنبه إلى أنه يعامل معاملة خاصة تختلف عن معاملة زملائه الطلبة .. وناظر المدرسة يستدعيه إلى مكتبه بين الحين والآخر ويسأله أسئلة سخيفة وينصحه نصائح تافهة ، ثم يقول له « تحيأتى للسيد الوالد إنه رجل عظيم » .. وكان يعلم أن كل ما يريد به الناظر هو إبلاغ تحياته لوالده ، لا شئ آخر ، ولولا والده لما استدعاه أبداً ولا عرف بوجوده .. والمدرسون أيضاً إنهم يعاملونه كأنهم موظفون عنده وحده .. ويحس أنهم يجاملونه فى الدرجات ، ومدرس اللغة العربية يكرر أمام بقية الطلبة فى كل مناسبة تافهة « يا سلام .. إنك سترث والدك فى عبقرية » أو كلاماً آخر فى هذا المعنى .. وحتى الطلبة .. إنهم يضعونه فى ركن بعيد عنهم ، ويعيشون معه كأنه ليس منهم ، وعندما يجتمع بهم يلتفتون حوله كأنهم يتفرون عليه ، وعندما يتكلم يستمعون إليه كما يستمعون لمسرحية تذاع فى الراديو ..

وأخذت كل هذه الأحاسيس تتعقد داخل نفسه ، وبدأ يحاول أن يثور عليها .. أن يتحرر من ضغط شخصية والده عليه .. يريد أن تكون له شخصية قائمة بذاتها .. يريد أن يعرفه الناس ويعاملوه على أنه الطالب أشرف ، لا على أنه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور .. ومنذ أن كان صغيراً وهو يعتمد أن يهرب من رجال البوليس الواقفين على الباب حتى لا يواجهونه بـ « تعظيم سلام » ، بل إنه بعد أن ضاق بهم صاح فى واحد منهم :

— عندما ترى أبى ارفع يدك بالسلام .. هذا السلام ليس مخصصاً لى .. إياك أن ترفع يدك بالتحية لى .. فاهم ؟
وأجاب الشاويش وهو يتشم فى ثملى :
— يا سلام يا أشرف بيه .. إنك تستحق ألف سلام .. إنك سيدنا وابن سيدنا ..

ولم يستطع أن يتخلص حتى اليوم من الـ « تعظيم سلام » ..

ودفعته العقدة التى يحس بها وهو مع زملائه الطلبة إلى أن أصبح يبدو بينهم كأنه إنسان شاذ .. كان يجلس بينهم فى ركن بعيد وهو صامت بينما هم يتصاحكون ويهزجون ويلعبون ، ثم فجأة يقوم من بينهم بعمل شاذ لا ينتظرونه .. كان يرقص رقصاً بلدياً وهو يصيح فيهم فى لهجة أولاد البلد :
— (سق) انت وهو .. ياللا باجدعان ..

ويصفقون وهم ينظرون إليه فى دهشة ، ويشعر أنهم يستقلون دمه فيتوقف عن الرقص فجأة — كما بدأه فجأة ويخرج من بينهم مبتعداً وهو صامت .. ناله مع نفسه كما أنهم تائهون فيه ..

وفى مرة كان جالساً بينهم وهم يلعبون أحدهم الآخر باسم الأب .. وهو منذ وعى وهو يسمع زملاءه يتلاعبون باسم الأب والأم كنوع من أحداث المداعبة ورفع الكلفة ، ما عدا هو .. هو وحده الذى لم يلعب أحد من زملائه أباه .. حتى ولا من باب الخطأ .. وكأن أباه شخصية مقدسة ليس من حق أحد أن يلعبها أو يتجرأ عليها أو يتخذها موضعاً للمزاح .. فقام بين زملائه وقال وهو يضحك كأنه يفرحهم برفع الكلفة بينهم وبينه :
— وأنا كمان يلعب أبويا ..

وسكت كل من حوله كأنهم شلوا من هول المفاجأة ، ثم انطلق واحد منهم وكأنه قرر أن ينتهز الفرصة وصرخ في وجه أشرف لا عناية أباه .

وانطلق بقية الطلبة يضحكون ويرددون الشتام على أبي أشرف ، وهو يحاول أن يضحك معهم ويرد على شتامهم وهو يحس أنه لا يستطيع أن يحتفظ بضحكته لا يستطيع أن يحتمل مزيداً من اللعنات التي تقع على رأس أبيه حتى ولو كانت لعنات على سبيل المداعبة والمزاح .. إنه يحب أباه ، ويقدره ، ويغار عليه ، ر حتى على صورته العامة التي تتمثل في احترام الناس له ورهبتهم منه .. رغم كل ما يعانيه أشرف من عقد في مواجهة أبيه فهو يحبه ويغار عليه حتى لو ثار ضده .. وكل هذا دفعه إلى أن يسكت مرة واحدة داخل حلقة اللعنات والشتائم ، ويسحب ضحكته ، وبدأ يسير مبتعداً عنهم ، وهو يسمع أحدهم يقول :

- حانروح في داهية ..

ويقول الآخر :

- أنت اللي ابتديت :

ويقول الثالث :

- دى فيها رفت ..

ويقول الرابع :

- استعدوا يا اولاد .. كلنا حاندخل السجن ..

وربما شعر بما سمعه بإحساس من الرضا كأن أباه قد استرد مكانته بين الطلبة ، ولكن العقدة التي يعانيها عادت تغلب عليه .. لماذا يكون أبوه دون بقية الآباء هو الذى يخاف الناس أن يداعبوه باللعنات .. وما ذنبه هو حتى يوضع

في ركن اجتماعي لا يختاره بنفسه إنما لمجرد أنه ابن أبيه .. وقد حاول أن يخرج بعيداً عن هذا الركن فسعى إلى أن يصادق طالباً كان يعلم أنه ينتمى إلى أدنى الطبقات الشعبية ، ويقم في حى الباطنية وراء جامع الأزهر ، وأبوه صاحب مكان سجاجير صغير ، ووصل بالاحاحه في صداقة هذا الطالب إلى أنه ذهب لبروره في بيته داخل حارة الطناش وما كاد يدخل الحارة بعد أن ترك السيارة التي جاء بها في ميدان الأزهر حتى استقبل كأنه زعيم شعبي ، فكل أهل الحارة جاءوا بفرحون عليه ويصافحونه ، ووالد زميله أخذه من يده وطاف به على دكاكين الحي وهو يقدمه متفخراً :

- ابتنا أشرف بيه .. ابن سيادة إسماعيل عبد الصبور .. صاحب ابني في المدرسة .. أمال ابن أكابر ..

وبدأ يحس أن أباه يلاحقه حتى في أصغر حارة في القاهرة ، بل أحس أنه يزداد تعقيداً وهو بين أبناء الطبقة الشعبية .. يحس بمسئولية يريد أن يهرب منها .. مسئولية تمثيل والده .. علاوة على أنه اكتشف أنه يكلف صديقه غالباً كلما زاره ، فإن أهله يقيمون شبه وليمة كلما جاء إليهم .. إلى أن مال عليه والد صديقه يوماً وقال كأنه بهمس في أذنه :

- عايزك في خدمة ياسى أشرف .. أصل مأمور الحنة تابعنا وما حدثش عارف يلمه .. يمكن كلمة منك للسيد الوالد توقفه عند حده ..

ومضى والد الصديق يروى قصة طويلة لأشرف عن تصرفات المأمور ورغم أن أشرف لم يكن أيامها قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفهم كثيراً مما يسمعه .. كل ما فهمه أن ليس له قيمة إلا بوالده حتى وهو بعيد في حارة طناش بحي الباطنية ..

وقال لوالد صديقه :

- حاضر . .

ولم يبلغ والده بشئ لكنه شطب من حياته صداقة هذا الصديق . .
وظل يحاول إثبات شخصيته بعيداً عن أبيه . . حتى أنه وهو في هذه السن . .
سن الثالثة عشرة . . أراد أن يثبت لزملائه الطلبة أنه « ولد شقى » ولا يقل عنهم
تطاولاً على المدرسين ، فاتفق معهم على أن يربط حبلأ رقيقاً فى مقعد مدرس
اللغة العربية . حتى إذا جاء ليجلس عليه شده فسقط المدرس على الأرض . .
وقام المدرس صارخاً يكيل الشتائم للتلاميذ ويصيح :

- من هو ابن الـ . . الذى دبره هذه الجريمة ؟ ! !

وقام أشرف وهو بمسك بطرف الخيط فى يده :

- أنا يا أستاذ . .

وسكت صراخ المدرس ونظر إلى أشرف فى حيرة وتردد :

- معقول يا أشرف . . لا بد أنهم سلطوك وضحكوا عليك . .

وحاول أشرف أن يثبت أنه المسئول ، وأن ينال عقاباً ، ولكن لا أحد يريد
أن يستسلم لاعترافه . . وأمر الناظر بإجراء تحقيق ، ونام التحقيق .

وأحس زملاؤه بأنهم يستطيعون أن يرتكبوا كل الآثام فى حمايته ، وحاولوا
أن يحرضوه على مؤامرات طلابية أخرى ، ولكنه كان يرفض ، لأنه اكتشف
أن هذه المؤامرات أو المداعبات لا تحرره من شخصية والده بل تزيد خضوعاً
لها ، وتزيد شخصيته الخاصة ضياعاً . . لو أنه كان قد عوقب كأي تلميذ عادى
فربما كرر هذه المداعبات لكنه لم يعاقب لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . .
فلا أمل . .

ويكبر والعقدة تتضخم فى صدره ، وتلف أعصابه ، وتسيطر على عقله ،
ويحس دائماً بأنه ضائع وأنه شهيد أبيه الذى أخذ منه كل شئ . يمكن أن يكون
ملكاً خاصاً له . . حتى عندما أحب . . وكان قد التى بعفاف وهو فى الخامسة
عشرة من عمره . . التى بها صدقة بعيداً عن عائلته وعائلتها . . وهى تعرف أنه
ابن إسماعيل عبد الصبور ، وهو يعلم أنها ابنة محمود رفعت موظف كبير
بدرجة مدير عام . . ومع الأيام بدأ يلاحظ أن عفاف تعطيه كل ما يريد وأكثر . .
إنه يستطيع أن يحادثها بالتليفون كلما أراد ، ويستطيع أن يخرج معها كلما أراد ،
بل إنه حاول مرة أن يدعوها إلى الخروج بعد الساعة الثامنة ، واحتج بأنه تعب
 ويفكر فى الانتحار ، وقالت له عفاف فى التليفون :

- انتظر حتى أسأل ماما . .

واقفت ماما على أن تخرج عفاف للقائه فى الليل . وهو دهش . . كيف
لواقى أى أم على أن تترك ابنتها التى لم تتجاوز الثالثة عشرة للقائى ليلاً . . هل
هى عائلة من هذا النوع ؟ . وقد حرص على أن لا يدعوها لبيتها أو يقدمها لأمه . .
إنه يريد أن يبتعد بها عن مظهر عائلته . . عن أبيه . . يريد أن يكون بالنسبة لها
شخصية قائمة بذاتها . . ولكن عفاف تلح عليه أن تقدمه لعائلتها ، وتدعوه إلى
زيارتها فى البيت ، وتغريه قائلة :

- إذا تعرف إليك بابا وماما سهل علينا اللقاء . .

وكان عندما يطلبها بالتليفون ترد عليه الأم أحياناً فى ترحاب شديد :

- من . ؟ أشرف ؟ أهلاً يا بنى . . دقيقة واحدة لأدعوك عفاف . .

وكان يتعجب لهذا الترحاب الكبير . . هل يطمعون فى زواجه من عفاف . .
ولكنه لا يزال فى الخامسة عشرة ، ولم يصل إلى التوجيهية بعد . . لم يحن الوقت

لمجرد التفكير في الزواج .. وبرغم تردده لم يستطع إلا أن يستسلم للإلحاح عفاف
وذهب إلى لقاء عائلتها كأنه يستسلم لحكم الإعدام فإن ما حدث حتى الآن بينه
وبينها يجب أن يبقيه بعيداً عن عائلتها .. فكيف يواجه أباه أو أخاه ؟ !
وذهب ..

واستقبلوه بترحاب كبير وفي شبه وليمة رسمية ، وأخذوا يدعون الجيران
ليتفرجوا عليه ويتعرفوا به .. نفس ما حدث له مع صديقه في حارة الطناش
بحى الباطنية .. واحتمل .. ولا يزال يأخذ من عفاف ما يريد وأكثر .. إلى
أن كان هناك يوم استدعاه فيه والدها إلى جلسة خاصة وقال وهو يرفع من درجة
حنانه وجهه له :

- إنى لم أتعرف بالسيد الوالد حتى اليوم .. ربما لم تأت المناسبة بعد ..
ولكني أقدر أن هناك تفاصيل هامة كثيرة لا تصل إليه .. لذلك أعددت مذكرة ..
أقصد خطأياً .. أعتقد أنه يجب أن يصل إليه .. والواقع أنى أستحق درجة وكيل
وزارة منذ سنتين ولكن ما يجري في الوزارة مما لا يعرفه السيد الوالد كان السبب
في أنهم يخطئون ..

وأخذ السيد محمود رفعت المدير العام يروي تفاصيل كثيرة دون أن يقدر أن
أشرف وهو في الخامسة عشرة من عمره لا يمكن أن يعي شيئاً مما يسمعه .. وقال
أشرف :

- حاضر ..

وأخذ المذكرة على أن يسلمها إلى أبيه ، وقبل أن يصل إلى آخر درجات سلم
الخروج كان يمزق فيها .. إنه يرفض أن تكون كل قيمته هو أنه ابن إسماعيل

عبد الصبور .. وهذه العائلة تخفى به كل هذا الاحتفاء لأنه ابن إسماعيل عبد
الصبور .. الذى يستطيع أن يمنح الترقية إلى درجة وكيل وزارة .. وربما كانت
عفاف لا تحب فيه إلا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور .. ومضت فترة كان أشرف
يكذب فيها ويدعى أنه سلم المذكرة إلى أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يستمر في الكذب ..
فبدأ يبتعد ويهرب من عفاف ، إلى أن شطها من حياته ، وأقنع نفسه أنه لم يكن
عليها فهي لم تكن تريده ولكنها كانت تريد أباه إسماعيل عبد الصبور ..

والعقدة التي يعانها تشتد به وتزيد ضياعاً .. إنه لا يستطيع أن يساهم
في أى نشاط سياسى ، فشح أبيه يسيطر على كل تحرك له .. لو اشترك في
حركة تؤيد سياسة أبيه فهو منافق لا يفكر بعقليته ولكن بعقلية أبيه وإذا قال
رأياً معارضاً لرأى أبيه فإن المعارضة ترحب به لا لأنه رأى له قيمته ولكن لأنه
رأى لابن إسماعيل عبد الصبور ويمكن استغلال الابن عند أبيه .. بل إنه
كتب يوماً مقالاً سياسياً وسلمه بيده إلى رئيس تحرير الصحيفة وما كاد يعود
إلى البيت ويلتقى بأبيه حتى قال له في لهجة الهادئة العاقلة :

- دعك من المقالات السياسية الآن يا أشرف .. إن ما تكتبه سينسبه
الناس إلى .. فإذا صممت فلتنفق أولاً على ما ينشر وما لا ينشر ..

إن أباه على حق .. هذه هي الحقيقة .. كل ما يكتبه سينسب إلى أبيه ..
ولكن الحقيقة التي لا يريد أن يعترف بها أبوه هي أنه ضحية .. شهيد .. ما ذنبه
حتى لا يكون من حقه رأى خاص به ..

وقد حاول بعد ذلك كثيراً أن يتفوق في شيء ينسب إليه وحده ..
حاول أن يتفوق في الرياضة .. لعب التنس .. والشيش .. وأيضاً
المصارعة والملاكمة .. لكنه لم يستطع أن يتفوق في شيء .. وكانوا ينظرون إليه

وهو يلعب على أنه ابن ذوات يتسلى . . ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وحاول أن يتفوق في دراسته . . وقد تفوق فعلاً ولكن تفوقه ضاع في زحمة الإشاعات التي تثور حوله بعد كل امتحان . . إنهم يقولون إنه يحصل على كل الأسئلة قبل الامتحان . . ويقولون إنه يضع إشارة خاصة على ورقة الإجابة حتى يعرفها المصحح فيعطيه الدرجة القصوى . . وعندما التحق أخيراً بكلية الهندسة قيل إنه استثنى من شرط المجموع . .

وهو دائماً . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور .

أشرف وحده لا يساوى شيئاً . .

إلى أن أدت به عقده إلى التفكير في ارتكاب جريمة . . سرقة سيارة . . ربما تأكد الناس بعدها أن شخصيته تختلف عن شخصية أبيه . .

ووقفت السيارة الفخمة أمام باب البيت ، وفتح السائق الباب ، وضغطت

أمه على يده وقالت في توسل :

— أشرف . . من أجل خاطري . . تحمل أباك . .

وهز رأسه بطمئنها في صمت ، ودخل البيت وراءها ، ولم يتجه إلى غرفته هرباً من لقاء أبيه ، ولكنه اتجه إلى الغرفة التي يعتقد أن أباه ينتظره فيها . . ووقف أمامه صامتاً وهو ينظر إليه بكلتا عينيه كأنه يريد أن يؤكد له أنه ليس نادماً على ما فعل ولا خجلاً . . وأبوه ينظر إليه في حسرة . . ليست نظرة ثورة على هذا الابن ولا حتى نظرة غضب ولكنها نظرة حسرة وألم عاطفي كأنه ينظر بها إلى ابنه المريض . . وقال إسماعيل عبد الصبور في لهجة اليائس :

— ما هذا الذي فعلته يا ابني ؟

قال أشرف في جمود :

— سرقت . .

قال الأب في تأفف :

— وهل كنت في حاجة إلى السرقة ؟

قال أشرف ولمجته لا تخلو من السخرية ؟ :

— طبعاً لا . . ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن ينقصه شيء حتى يسرق . .

إشارة واحدة من أصبعي تجعل سيارات الدولة تحت أمري . . ولكني سرقت

لإجراء تجربة اجتماعية . . كنت أريد أن أكتشف هل أنا بنى آدم أم أني مخلوق

من نوع آخر . . نوع من الملائكة أو من الشياطين . .

وزم عبد الصبور شفتيه امتعاضاً ثم شد نفسه كأنه يتحامل ويستعين

بالصبر وقال :

— وماذا اكتشفت ؟

قال أشرف وابتهامته الساخرة تتسع :

— طبعاً لا يمكن أن أكون مجرد بنى آدم . . أنا ابن إسماعيل عبد الصبور . .

أما

إبن البنى آدم إذا سرق يقبض عليه ويقدم للمحاكمة ويدخل السجن . . أما

النوع الآخر من المخلوقات الذي أنا منهم فإنه إذا سرق فإن رجال البوليس

يصطفون قرة قول شرف تحية له ، والنيابة تنحني إحتراماً ، والحكام تعتبر

نفسها في عطلة رسمية كأنها في يوم عيد وطني . .

وقال عبد الصبور وقد بدا كأنه قرر أن يكون مازحاً :

— اسمع يا ابني و . . .

وصرخ أشرف مقاطعاً :

- اسمع أنت يا بابا .. إذا لم تحقق معي النيابة في الجريمة التي ارتكبتها فلن أسكت .. ولن يهمني شيء .. سأخرج في الشوارع وأصرخ حتى يعرف الناس أن ابن عبد الصبور لص أو يتصوروا أن ابن عبد الصبور مجنوناً .. وارتفع صوت عبد الصبور محتداً :

- اسكت يا ولد .. إن أقل حق لأبيك عليك هو أن تستمع إليه .. وإذا كنت تعتقد أني أحملك حماية لسمعتي ومصالحي فأنت جاهل .. أحمق .. وما يعذبني أنك وقد بلغت العشرين من عمرك تزداد جهلاً .. إن مصالحي كانت تفرض على العكس .. تفرض على أن أقدمك للنبيأة وأن أوصي بتشديد العقوبة عليك حتى أخلص ذمتي أمام الناس الذين يتقون في ، وحتى أثبت لهؤلاء الناس أني في سبيل العدالة أضحي حتى بابتي ..

واهتزت جفون أشرف وهو يستمع لأبيه كأنه اكتشف شيئاً جديداً كان غائباً عنه ، واستطرد الوالد قائلاً :

- إن القبض عليك كان يشرفني كرجل مسئول .. ولو كنت متأكداً من أنك فعلاً قد وصلت إلى حد الإجرام ، لما ترددت .. ولكني واثق أنك لست مجرمًا ولن تكون ، ولكنك تعاني حالة نفسية أعرفها و .. وقاطعه أشرف كأنه يقاوم اقتناعه بمنطق أبيه :

- طبعاً أنت تعرف كل شيء .. أنت خير في الاقتصاد .. وفي السياسة وفي القانون ، وفي الدين .. وأنت الآن خير في علم النفس أيضاً ..

وقال الأب دون أن يغضب كأنه يعذرائته في كل ما يقول :

- فعلاً أنا خير في علم النفس وإلا لما نجحت .. وأنت تعاني عقدة .. عقدة هي أنا .. وهي ليست عقدة غريبة إنها عقدة التطور الطبيعي للأبناء

إلى أبعد مما وصل إليه الآباء .. وقد كنت معقداً من أبي لأنه كان فقيراً لم يستطع أن يتقدم بنفسه وهي عقدة دفعتني إلى أن أعمل أضعاف ما كان مقدراً لي أن أعمل وأن أكتشف بنفسى طريقاً لم يكتشفه أبي .. ومنذ وصلت إلى العشرين والناس تتحدث عني دون أن تنسبني إلى أبي ، بل إن أبي كان ولا يزال ينسب إلي .. لم أكن أوصف بأبي ابن فلان بل كان أبي يوصف بأنه أبو فلان .. وأنت .. إن عقدة عكسية .. لقد ولدت لتجد أباك قد حقق شيئاً كبيراً ، وكان يمكن أن تكني بما حققه أبوك وتعيش راضياً فخوراً به ، ولكنك ورثت عني الطموح الشخصي فحاولت منذ صغرك أن تخلق شيئاً مميزاً ينسب إليك وحلك .. وكان هذا يسعدني .. أنا أيضاً أريدك أن تنجح في شيء ليس لي فضل فيه .. إن المزارع الناجح يتمنى أن يكون ابنه طبيباً ناجحاً حتى لا يكون له فضل في نجاحه فيحس أنه أنجب شخصية كاملة تستطيع أن تخلق نفسها بنفسها .. وكذلك أنا .. إني أتمنى أن تكتشف لنفسك طريقاً غير طريق .. أحياناً أتخيل أنك عالم في الذرة .. ولكن عقدة كانت أقوى منك فلم تستطع أن تتحمل الوقت الطويل الذي يتطلبه بناء شخصية قوية في مواجهة شخصية أبيك .. إني أثبت وجودي أمام أبي وأنا في العشرين ، أما أنت فربما تحتاج إلى أن تنتظر وتحتمل إلى سن الأربعين ..

وسقط أشرف جالساً على مقعد ورأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم منطق أبيه ، وقال وصوته يهدهج كأنه على وشك البكاء :

- إن الناس لا تترك لي مجالاً للإحساس بنفسى .. لإثبات وجودي .. للثقة في أني أستطيع أن أكون مستقبلاً .. إني دائماً صورة للماضي .. دائماً ابن إسماعيل عبد الصبور .. حتى وأنا ألعب وكأنني أنفذ قراراً رسمياً أصدره إسماعيل

عبد الصبور باللعب . .

وقال الأب وهو يقترب من ابنه ويمد يده يربت بها على كتفه :

- تسافر إلى الخارج . . وتم تعليمك هناك بعيداً عن الناس هنا . .

وابتسم أشرف في مرارة قائلاً :

- حتى في الخارج . . عندما كنت أسافر في الصيف كنت أبقي حبيساً

داخل شخصيتك ، وعندما كنت أذهب إلى أحد الكاباريات لأرقص كانت

السفارة كلها تلحقني وترقص معي . .

وقال الأب في رجاء :

- إن ملاحقة شخصية الأب لشخصية ابنه لا يمكن أن تعوقه عن بناء

نفسه و . .

وقاطعه أشرف وهو يهب واقفاً :

- أرجوك يا بابا . . دعني أفكر لنفسى . . أنى سأحاول أن أعيش بعيداً

عنك ولكن لا تسألني أين ولا كيف . . وثق انى لن أكرر خطئى . . لن أرتكب

جريمة تمسك . . لن أفكر في مستقبل على حساب الماضي . .

وقال الأب وابتسامة ضعيفة بين شفتيه :

- أنا لست الماضي يا أشرف . .

فقال أشرف :

- أريد أن أحس بك كماض حتى أحدد مستقبلى . .

وهز الأب رأسه في أسف قائلاً :

- لقد تركتك حراً دائماً . . المهم لا تضطرنى أن أثبت للناس حرصى على

الحق حتى لو ضحيت بابنى .

قال أشرف :

- لن يحدث . . فقط دعنى وحدى . .

قال الأب :

- لا تحرمنى من طبيعة الأب . . أريد أن أطمئن دائماً عليك . .

وقال أشرف :

- سأطمئن ماما دائماً . . أرجوك . . اكتف بماما للاطمئنان على ولا تعتمد

على أى وسيلة أخرى . .

ونظر إسماعيل عبد الصبور إلى ابنه طويلاً ، وقال وهو يشهد كأنه في موقف

وداع :

- إنها تجربة سأتركك لها . .

كلان القرار الذى اتخذته هو أن يتعد عن أبيه . .

ولكنه لا يدري أين يتعد . .

وكان القرار هو أن يخلق لنفسه شخصية جديدة قائمة بذاتها منفصلة عن شخصية أبيه الرجل الناجح المشهور .

ولكنه لا يدري كيف تكون هذه الشخصية الجديدة . .

وفكر أن يهاجر إلى أمريكا . . لا . . أمريكا مزدحمة بالعرب ووالده على صلات قوية بمراكز القوى هناك ، ولن يستطيع أن يكون شخصية منفصلة . . فليهاجر إلى أستراليا . . ولكنه كى يهاجر يجب أن يقدم أوراقه إلى مكاتب الهجرة . . أى يكشف نفسه . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . وأى سفارة يقدم لها أوراقه ستستصل بوالده فوراً . . ثم ماذا يعتمد عليه فى هجرته . . إنه لم يتم تعليمه . . لا يزال فى السنة الأولى بكلية الهندسة ، ولا يجيد أى عمل ، ولم يتعلم بعد الاحتراف ولا حتى احترام أن يكون سائق تاكسى . . إنه فى أى مكان فى العالم مضطر أن يبقى معتمداً على شخصية أبيه . . على نفوذ أبيه أو على أموال أبيه . . إنه حتى قبل أن يخرج من البيت أخذ من أمه مائة جنيه . . لم يخرج إلا وشخصية أبيه فى جيبه . . الشخصية التى تستطيع أن تعطى . . وربما كان الأفضل أن يستسلم لرأى أبيه ويقرر أن يسافر ليتم تعليمه فى الخارج على حساب الدولة أو على حساب أبيه . . ولكن لا . . إن ما يعذبه ليس وجوده فى مصر إنما وجوده داخل شخصية أبيه سواء فى مصر أو خارج مصر . . ثم إنه لا يريد

أن يتم تعليمه . . إنه يستطيع أن ينجح فى كلية الهندسة ويحصل على البكالوريوس بسهولة ، ولكن الحياة لم تعد تعتمد على الشهادات الجامعية . . الشهادة قد تكون شرطاً للحصول على وظيفة ولكنها ليست شرطاً للنجاح فى الحياة . . معظم الناجحين فى الدول المتقدمة لا يحملون شهادات جامعية . . وهو يحس أنه يملك إمكانيات يمكن أن تحقق له النجاح حتى لو بدأ كبائع ترومس . .

ربما كان مجنوناً . .

وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة حزينة . . إن عليه أن يكشف أيضاً هل هو مجنون أم عبقري . .

وقرر أن يسافر إلى شاطئ العجمى . . ونحن فى الشتاء والشاطئ خال يستطيع أن يختبئ فيه من شخصية والده ويترك نفسه هناك لفكره إلى أن يقرر مصيره . . وقد اختار شاطئ العجمى لأنه منذ سنوات شبابه الأولى تعود أن يهرب إليه فى ليل الصيف بعيداً عن مجتمع أبيه الذى كان يحتل شاطئ المنتزه حيث أعلن - هذا المجتمع - أنه الوريث الشرعى لأستقرطية العائلة المالكة . .

وفى العجمى أستأجر بيتاً صغيراً على شاطئ « بيانكى » لا يعرف صاحبه ، فقد استأجره من الخفير ، وربما كان الخفير يحتفظ بقيمة الإيجار لنفسه لأنه لساهل جداً فى تقديرها . . عشرون جنيهاً فى الشهر . . بيت مؤسس مفروش وضحك . . إن الخفير حارس ومن حقه أن يطبق نفس لوائح هيئة الحراسات التى فرضت على بيوت الناس . .

ومنته اليوم الأول قرر أن يطلق شعر رأسه وذقنه لينتفى . . لا يمكن أن يتصور أحد أن هذا الشاب أطلق شعر رأسه حتى كتفيه وأطلق ذقنه وهذبها على الطراز المودرن يمكن أن يكون ابن إسماعيل عبد الصبور . . إن ابن إسماعيل

عبد الصبور لا يمكن أن يكون كبقية الشبان .. إنه نوع آخر .. صنف آخر ..
 وابتسم في فرح وأنطلاق .. إنه منذ سنوات وهو يتمنى فعلاً أن يطلق شعر رأسه ..
 كان مقتنعاً أن إطلاق الشعر هو نوع من إثبات شخصية الجيل الجديد ..
 وكل جيل من حقه إثبات شخصيته وفرض مزاجه .. وقد قرأ أن الجيل السابق ..
 جيل والده .. عاش أيضاً في تقليعة يرفضها الجيل الذي سبقه .. تقليعة
 البطولات الواسعة التي كانت تسمى شارلستون ، وتقليعة إلصاق شعر الرأس
 بدهن « البريانتين » و « الفازلين » ، وكان الجيل الأسبق يهتمهم بالخوذة والميعة
 وأنهم ليسوا رجالاً .. من يدرى ربما كان أبوه قد لبس البطولات الشارلستون ودهن
 شعر رأسه بالبريانتين ، ولكن كل جيل ينسى شبابه بمجرد أن يتعداه إلى الشيخوخة ..
 ولكن الواقع أن أباه لم يحذره أبداً من إطلاق شعر رأسه وذقنه إنما هو نفسه كان
 مقيداً بشخصية أبيه إلى حد أنه كان يحرم على نفسه أن ينطلق مع تقاليع الشباب ..
 وربما كان أول ما بدأ يحس به من مسئولية كاملة هي مسئوليته عن نفسه وعن
 حياته العادية .. إنها المرة الأولى التي يعيش فيها وحيداً .. وهو المسئول عن إعداد
 إفطاره وغدائه وعشاءه .. وتنظيف البيت وإعداد فراشه وغسل ثيابه .. وقد احتار
 أمام مطالب صغيرة لم يكن يحس من قبل بأهميتها ، وكان يضحك ويسعى إلى
 مطالبه كأنه كريستوف كولومبوس يسعى إلى اكتشاف عالم جديد .. وعندما
 تشدد به الحيرة كان يلجأ إلى الخفير وزوجة الخفير ، ولم يحاول أبداً أن يكون له
 خادم .. إنه يريد أن يكون نفسه .. ولكنه يفتح عينيه مفكراً في مصيره .. ويسعى
 إلى مطالب حياته اليومية مفكراً .. ويخرج إلى الشاطئ يجري ويسبح وهو يفكر ..
 وكان يترك العجى أحياناً في الليل وبعد أن طال شعر رأسه ويتجول في حي المكس
 أو يصل إلى حي محرم بك في الإسكندرية .. ودائماً على قدميه أو في أتوبيس

وأحياناً في تاكسي ، فقد كان من بين القرارات التي اتخذها ألا يأخذ سيارة من
 بيت أبيه .. ويتناول العشاء في مطعم شعبي وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يعرفه
 ولن يكتشفه ، وعلى كل حال فهو لم يكن معروفاً خارج مجتمع أبيه ومجتمع
 زملائه في المدرسة أو الجامعة ، فلم تكن صورته تنشر في الصحف ، ولم يكن
 قد قام بعمل بلغت نظر الناس إليه .. وهو دائماً يفكر .. وعندما يريد أن
 يستريح من التفكير يقرأ .. وكان يختار كتباً متعددة الموضوعات .. لا يستقر
 على موضوع واحد .. وكان يجيد اللغة الإنجليزية ، ويخطر على باله مرة أنه يمكن
 أن يكون عالماً فلكياً فيشتري كتاباً في الفلك ولا يتم قراءته .. وأحياناً يخيل إليه
 أن في داخله نزعاً إلى الأدب فيقرأ في القصص .. أو في التاريخ .. أو في
 الهندسة الميكانيكية .. ولكنه لا يتم كتاباً أبداً .. والجديد الذي طرأ عليه أنه
 بدأ يقرأ إعلانات الوظائف الخالية التي تنشر في الصحف .. كان من بين
 ما يخطر على باله أن يبدأ مصيره بوظيفة صغيرة على أن يبقى مجهولاً لا يعرف أحد
 سر أبيه ..

وكان يحرص على أن يتصل بوالدته بالتليفون مرة كل أسبوع ليطمئنها ،
 ووالدته تستمع إليه في فرحة ، وأيضاً في استسلام .. فهي لا تسأله عن أكثر
 مما يريد أن يقوله لها .. تخاف إن سألت أن يهرب منها هي أيضاً كما هرب من أبيه ..
 وكانت تعلم أنه يقيم في الإسكندرية ولكنه لم يقل لها في أي مكان من الإسكندرية ،
 ولم تسأله .. يكفى أنه يطمئنها على نفسه ، وكانت كل مرة تعبر عن لطفها إليه
 أن تسأله في نهاية كل مكالمه :

— ألا تريد شيئاً يا أشرف ..

ويرد في صوت مرح متفائل :

- أبدأ يا ماما ..

وقد مضى حوالى شهر على غيبته ، والمائة جنيه التى خرج بها على وشك أن تنهى .. وهى معجزة فى تقدير أمه أن يعيش كل هذه الأيام بمائة جنيه فقط .. وتصورت أنه وجد عملاً يتكسب منه أو ربما يعيش فى رعاية بعض أصدقائه .. ودائماً قلقة كيف يستطيع أن يعيش بمائة جنيه فقط .. ودائماً تخاف أن تسأله .. إن ابنها ليس طبيعياً وقد يثيره السؤال ..

ولم يكن أشرف يعتمد التوفير .. ولم يعتمد أيضاً النزول عن مستوى الحياة التى كان يعيشها والتى لا يمكن أن تكفيها مائة جنيه خلال شهر .. ولكن هذه هى الحياة التى يعيشها دون تعمد ولا يحتاج فيها لأكثر مما ينفقه .. ولكن المائة جنيه انتهت .. والخفير فى انتظار العشرين جنيه قيمة الإيجار .. ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى أمه .. ولكن كيف يلتقى بها ليأخذ منها ما يريد .. ووضع الخطة .. سيطلب منها أن تأتى إلى الإسكندرية وتقيم فى بيتهم هناك .. ويقابلها خارج البيت حتى لا يكتشفه العسكرى الواقف على الباب .. يقابلها فى المساء وفى سيارة تاكسى حتى لا يعرف أحد أن ابن إسماعيل عبد الصبور قد أطلق شعر رأسه وذقنه .. لا .. لن يقابلها فى الطريق .. داخل حدائق المنتزه .. واستقر على الخطة وقال لأمه فى التليفون وهى تسأله :

- ألا تريد شيئاً يا أشرف ؟

وقال ضاحكاً :

- أفلسيت يا ماما .. أفلسيت قبل أن أصل إلى رأى ..

وقالت فى دعر :

- أطلب يا أشرف .. اطلب .. كم تحتاج يا حبيبى ..

وأصر على أنه لا يريد أكثر من مائة جنيه أخرى ، وحدد لها خطة اللقاء ، وأسلمت للخطة بلا مناقشة .. إنها على الأقل سترى ابنها الوحيد ..

وهناك .. بين أشجار مدينة المنتزه .. وقفت أمامه تنظر إلى شعره الطويل وذقنه المبهذه نظرات حائرة كأنها تبحث عن ابنها الذى تعرفه .. ثم ألقت نفسها فوق صدره تبكى ، وقالت من خلال دموعها كأنها تخاف أن تغضبه بدموعها :

- إبنى أبكى فرحاً يا أشرف .. أوحشتنى يا ابنى ..

وهو يقبلها فى كل مكان من وجهها ويرفع يدها ويقبلها .. وهى تنظر إلى شعره الطويل وتضحك ضحكة خافتة وتشد خصلة منه وتقبلها ، ثم تمسح بأصابعها فى ذقنه قائلة :

- هذه الذقن تجعل من أمك امرأة عجوزاً ..

ويتضاحكجان .. ويسيران تحت الأشجار كأنهما عاشقان .. ويرى لها كل حياته .. أين يعيش وكيف .. وتضحك حتى تخفى حشرتها وجزعها عليه .. وتسأله فى تردد خشية أن يفسر تساؤلها كأنه لوم :

- هل أنت سعيد بهذه الحياة ..

وقال ضاحكاً :

- على الأقل أصبحت لا أستطيع أن أنسب شيئاً مما يضيقنى إلى أبى .. أنا المسئول وحدى عن نفسى .. وكل ما ينقصنى هو أنت ..

واستمر لقاءهما طويلاً ، وربما تعمدت الأم أن تطيل فيه لعله يرضى فى النهاية أن يعود معها إلى البيت .. لقد تجاوز الليل منتصفه وقد لا يرضى أن تعود أمه وحيدة .. ولكنه تركها تعود وحدها وقالت وهو يصحبها إلى قرب سيارتها التى جاءت بها وهى تقودها بنفسها تنفيذاً للخطة التى وضعها :

- هل أراك غداً ..

قال وهو يسحب ابتسامته ويبدو جاداً :

- لا ..

قالت فى استجداء :

- إني سأبقى بضعة أيام فى الإسكندرية ..

قال وهو أشد حزماً :

- أرجوك يا ماما .. عودى غداً إلى أبى ..

قالت ودموعها تكاد تطفرف :

- ولكنى لم أشيع منك ..

قال :

- لنعود .. إنها حياة جديدة .. لا تضطربنى أن أختنى فى بلد آخر ..

واحتضنها بسرعة وقبلها ، ثم تركها مبتعداً وجرى وراء أنوبيس وتعلق به ..
ودخلت الأم إلى سيارتها وألقت رأسها فوق عجلة القيادة وبكت ..

وعادت إلى القاهرة فى اليوم التالى إطاعة لأمر أشرف وحتى لا يفر إلى بلد لا تعرفه ، وعندما التقت بزوجها إسماعيل عبد الصبور قالت وهى تحاول أن تتغلب بفرحتها على حسرتها :

- عرفت أين يقيم أشرف .. إنه فى العجمى ..

وقال إسماعيل عبد الصبور فى برود :

- أعرف ..

وقالت فى دهشة :

كيف عرفت ؟

قال كأنه يتهمها بالغباء :

- طبعاً أستطيع أن أعرف كل شىء ..

قالت :

- ولماذا لم تقل لى ..

قال :

- فضلت أن تعرفى منه هو .. إنها إحدى وسائل العلاج النفسانى ..
أن يتأكد من أنه أصبح أقوى منى إلى حد أنى لا أعرف مكانه .. وقد خشيت
أن يعرف منك أنى أعرف .. أعرف كل شىء ..

وتهدت فى ألم وقالت فى بأس :

- لعلك تكتشف لى علاجاً أنا الأخرى ..

وفى العجمى .. فى يوم من أيام الشتاء والشاطئ يكاد يكون خالياً من
الناس تعرف أشرف إلى دينوس وعائلته .. إنها عائلة يونانية تقيم فى الإسكندرية
وتملك بيتاً فى العجمى قريباً من البيت الذى استأجره أشرف ، تقضى فيه
عادة إجازة نهاية الأسبوع .. يومى السبت والأحد .. وكان أشرف جالساً
أمام بيته ينظر إليهم من بعيد .. ويتسم وهو يتتبع صياحهم ورقصاتهم .. إن
عددهم كبير .. شيوخ وشبان وأطفال .. وكانت ابتسامته تنبض بالحسرة
على نفسه .. إنه لم يعيش أبداً مثل هذه الحياة العائلية المرحية .. ولم يجرب
إجازة نهاية الأسبوع .. الخميس والجمعة .. إن عائلته فى يوم الجمعة
تعودت أن يهرب كل واحد فيها من الآخر .. وأبوه يصبح يوماً ودمه أثقل من
أى يوم آخر ، كأنه لا يحاول أن يستريح من متاعب الأسبوع الذى مضى ولكنه

يجمعها فوق رأسه ..

وخرج دينوس من بين الشلة واقترب من أشرف وقال وهو ينطق بالعربية
في لهجة تتراقص فيها الموسيقى اليونانية :

- من فضلك .. هل تعرف أحداً نستأجر منه أنبوبة بوتاجاز .. اكتشفنا
أن الأنبوبة عندنا فارغة ..

وقال أشرف :

- إن الخفير يعرف كل شيء هنا ..

وقال دينوس :

- إذن لأبدأ البحث عن الخفير .. شكراً ..

وقبل أن يتعد استوقفه أشرف قائلاً :

- تستطيع أن تستعمل البوتاجاز الذى عندى .. إني لست فى حاجة إليه
اليوم .. والخفير قد لا تجده الآن ..

وتبادلا كلمات سريعة ثم دخل دينوس مع أشرف إلى المطبخ وحملوا
أنبوبة البوتاجاز ، كل منهما من ناحية ، وعادا بها إلى البيت الآخر ..
واستقبلتها العائلة بالتهليل المرح ، وعزف واحد منهم على « البازوكا » لحن السلام
الملكي القديم تحية لأنبوبة البوتاجاز .. ووقف أشرف بينهم ضاحكاً حائراً ..
إلى أن تقدم إليه الرجل الكبير .. لعله الأب .. يقدم له كأساً من نبيذ الريتسينا
صائحاً :

- فى صحة البوتاجاز .. وفى صحتك ..

وشرب الكأس ضاحكاً ، وفى لحظات أحس كأنه واحد منهم .. واللغة
اليونانية تملأ أذنيه .. كلهم يتكلمون فى وقت واحد ، وكل منهم لا يكف عن

الكلام أبداً .. وينتهون إلى وجوده بينهم فيطلقون بضع كلمات بالعربية ثم
يعودون بسرعة إلى إطلاق قذائف يونانية .. إن اللهجة الجريكية أشبه بقذائف
المبارليوز .. ويحاول أن يلتقط أسماء كل منهم .. دينوس .. بانايوتى .. بابادوبلو ..
تاكى .. مارينوس .. وأسماء البنات .. صوفياس .. جوانا .. ماريأ ..
أنى .. كاتيا .. إنه يحس وسط كل هؤلاء كأنه طار بعيداً عن مصر ..
بعيداً عن أبيه .. إنه الآن فى أثينا .. وعيناه تطوفان بشوارع أثينا ثم تتوقفان
طويلاً عند كاتيا .. شئ فى داخله يشده إليها .. خيل إليه أنها أجمل بنات
العائلة .. وأهدأهن .. على الأقل إنها أقل البنات ثرثرة .. والجميع فى حاجة
دائمة إليها .. كاتيا .. كاتيا .. كاتيا .. وهو لا يدري ماذا يطلبون منها ولكنها
تتحرك دائماً .. والتفت إليها مرة فوجدها هى الأخرى تنظر إليه من بعيد ..
وتعلقت عيناه بعينيها وبينهما ابتسامة ..

وخرجوا جميعاً إلى الشاطئ يلعبون الكرة ، ويتسابقون ، ويفقر أحدهم
فوق الآخر ، ويتحدون أحدهم الآخر من منهم يقبل أن ينزل البحر فى عز البرد ..
رهان .. وقبل أشرف الرهان ونزل إلى البحر وخرج وهو يقاوم عرشته .. وكانت
قيمة الرهان أن تسقيه كل فتاة من العائلة كأساً من الريتسينا .. وصاحت
كاتيا ، بينهم بكلمات كثيرة جريكية لم يفهم منها شيئاً ، ثم تقدمت إليه
تحمل كأساً وقالت فى لغة عربية لغة تتعثر كلماتها فوق لسانها حتى اضطريت
أن تقلبها إلى اللغة الإنجليزية :

- أخاف عليك أن تسكر .. لاشك أنك لست متعوداً على شرب
الريتسينا .. كأس واحدة تكفى .. كأسى ..
وشرب الكأس وقال ضاحكاً :

- أحس كأتى عندما ولدت أرضعوني ريتسينا ..

وضحك وقالت كأنها أمه التى أرضعته :

- قم نلعب الراكث حتى تدفأ ..

وقام يلعب معها الراكث والجمع يهللون من حولهم .. برفو أشرف ..

أشرف نرجوك لا تهزم كاتيا .. وكان قد قدم نفسه إليهم باسم أشرف إسماعيل ،

ولم يتم بقية الاسم كأنه يدارى عورته .. وترك كاتيا تغلبه .. أوهكذا أقنعت ،

ولكن الواقع أنها غلبته ..

والتف معهم حول أطباق طعام الغذاء .. وعرف أن الكباب الجريكى

اسمه سوفلاكى .. وأحس أن أطعم سلاطة ذاقها هى السلاطة الجريكى التى

يضاف إليها الجبن ..

وفى العصر .. والجميع فى راحة وقد سكنت طلقات المترليوز الجريكية ..

كان نينوس ممدداً بجانب أشرف على الشاطئ يروى له قصة عائلته .. أنهم

كلهم ولدوا فى مصر .. منذ أيام أجدادهم وهم فى مصر .. وكان أبوه وعمه

يعملان فى البورصة ويديران شركة كبيرة لأعمال التصدير والاستيراد ، ويمثلان

شركات للنقل البحرى .. ثم فى عام ١٩٦٠ شملهم التأميم .. صودر كل

ما يملكون .. واضطروا إلى الهجرة إلى اليونان ما عدا العم ، فقد أصر على

أن ينهى حياته فى مصر واستسلم لضياغ أمواله واكتفى بأن أصبح شريكاً لصديق

يونانى يملك مقهى ومطعماً فى الإسكندرية قريباً من محطة الرمل .. والذين

عادوا إلى أثينا أحسوا أنهم غرباء هناك حتى الشباب منهم .. لقد نجحوا فى أعمال

كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائماً غرباء ، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك

الوافدين من مصر غرباء ، بل يحاربونهم ويحاولون قطع أرزاقهم ، وبما أن

جريك مصر هم أمهر وأرقى من جريك اليونان أنفسهم ، على الأقل يتميزون

بإجادة اللغات الأجنبية التى أصبح العمل فى اليونان يحتاج إليها احتياجاً أساسياً ،

فى حين أن عدد الذين يجيدون اللغات هناك لا يكفى ..

واستطرد نينوس يروى القصة .. إنهم برغم نجاحهم فى بلادهم قرروا

العودة إلى مصر بمجرد أن شعروا بالأطمئنان .. وعاد معظمهم ليلطالوا

بممتلكاتهم التى ضاعت منهم ولكن لبدأوا العمل فيها من جديد ..

وضحك نينوس قائلاً :

- هل تعلم ما هو مشروعنا الجديد .. إنشاء مطعم ومقهى جديد ..

مطعم كبير فخم من المطاعم السياحية العالمية .. إن عنى بعد أن اشترك

فى إدارة المقهى الصغير أصبح يؤمن بأن المقاهى والمطاعم أكثر ربحاً من الشركات

العالمية ..

وقال أشرف فى تردد :

- وكاتيا هل ولدت فى مصر .. إن لغتها العربية ضعيفة ..

وقال نينوس وهو ينظر إليه كأنه يفهمه :

- كاتيا لم تكن قد تجاوزت عاماً واحداً من عمرها عندما أخذناها إلى

أثينا .. وبرغم ذلك فقد كبرت وكأنها تعيش فى مصر .. إن مصر فى دمتا ..

والأفكار تتضارب فى رأس أشرف كأنه وجد الطريق الذى يحدد من خلاله

مصيره .. كأنه هو الآخر مثل باقى أفراد العائلة عاد إلى مصر بعد أن ولد فيها

وغاب عنها طويلاً .. ولم يخلص من أفكاره إلا عندما بدأ الغروب وبدأت العائلة

تعود إلى نشاطها ومرحها .. وسهر معهم على نغمات البوزك .. يسمع أغاني

البوزوكا ، ويحاول تقليد رقصات الكلاماتيانوس والسيرتاكى والكاسبىو ..

ويرقب كل شيء كأنه قرر أن يتعلم كل شيء .. أن يصبح جريكياً .. وكانتيا
ترقص معه وتعلمه خطوات الرقصات اليونانية وتضحك ، ودائماً تعامله كأنها
مسئولة عنه .. كأنها أكبر منه .. إنه حائر فيها .. ولا حتى ابتسامتها تعطيها له
لتشجعه عليها .. إنما ابتساماتها كلها كأنه الأخ الأصغر أو كأنه تلميذ يتعلم
الحياة ..

وبرغم أن تينوس روى قصته لأشرف فهو لم يحاول أن يسأل أشرف عن
أى قصة .. لم يحاول حتى أن يسأله من هو .. ربما لأنه حتى الآن لم يكن يهـمه
أن يعرف ..

وعادت العائلة كلها إلى الإسكندرية في مساء الأحد ..

ولم يحتمل وحدته أكثر من يومين .. لم تعد أفكاره ولا قراءاته ولا إحساسه
بمسئوليته عن نفسه يمكن أن تشغله .. واتصل بتينوس ودعاه إلى العشاء في مطعم
المكس .. هو وماريا وكانتيا .. ثم انظرهم في شوق لقضاء إجازة نهاية الأسبوع
في العجمي .. ثم أصبح يزور تينوس في بيته في الإسكندرية .. لم يعد حريصاً
كل هذا الحرص على الاختفاء في العجمي .. يكنى شعره الطويل وذقنه لإخفاء
شخصيته .. وكانتيا تعبر عن مسئوليتها عنه أكثر وأكثر .. إنها أيضاً تشرف على
إدارة البيت الذى يستأجره وتعتمد أن تترك له كل مساء أحد كثيراً .. قطع
الجنين التى يحبها وعدداً من زجاجات النبيذ التى تكفيه بقية الأسبوع ..
لم يعد يستطيع أن يستغنى عن النبيذ مع طعامه كآى واحد من أفراد الشعب
اليونانى ..

ولم تعد المائة جنيه تكفيه .. ثم أحس بحاجة إلى سيارة .. ولم يقاوم حاجته ،
طويلاً .. اتصل بأمه وجاءته في هفة والتقت به في حداثق المنتزه طبقاً لنفس

الخطوة السابقة وروى لها عن صداقته الجديدة بالعائلة اليونانية ، وأخذ منها
ماتى جنيه لا مائة .. وعندما همت أن تودعه وتركب السيارة الصغيرة دون أن
تعرض عليه أن يأتى معها خوفاً من أن يرفض ، فاجأها بقوله :

— دعنى أقود السيارة حتى أوصلك إلى البيت وسأخذ السيارة لأتى في حاجة
إليها ..

وفرحت أمه .. فرحت لأنه سيخلص نفسه من بهدلة ركوب الأتوبيسات
والناكسيات .. وربما كانت تمنى أكثر منه أن يأخذ السيارة ، فهى سيارة
ترك دائماً في بيت الإسكندرية ليستعملها الموظفون في فترات الصيف ..
إن أشرف بدأ يفتق من جنونه .. لاشك أنه بدأ يفتق ما دام يطلب سيارة من
بيت أبيه ..

وأشرف يحدث نفسه وهو يقود السيارة عائداً إلى العجمي .. يجب أن
يعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يستغنى عن أبيه .. لا يستطيع أن يعيش
إلا بفضل أبيه .. ولابد أن أباه يعلم بما تعطيه له أمه من نقود ، ولابد أنه سيعلم
بأنه أخذ هذه السيارة .. إنه ليس مغفلاً حتى يتصور أن أمه تستطيع أن تخفى
شيئاً عن أبيه .. لا يهم .. إنه على الأقل أصبح حراً .. هو الذى يطلب أو
لا يطلب .. لم يعد عبداً للمظاهر ولا لما تعرضه عليه شهرة أبيه .. ولم يعد يتلقى
أوامر من أحد .. وتحسس شعر رأسه الطويل وذقنه المهدبة وابتسم ساخراً ..
ربما كان هذا هو كل ما وصل إليه من حرية .. أن يطلق شعر رأسه حتى لو كان
ابن إسماعيل عبد الصبور .. وسحب ابتسامته الساخرة وامتلات عيناه بنظرات
جادة وهو يقول لنفسه .. لا تياس .. إنك لم تبدأ بعد .. لم تحض سوى ثلاثة
شهور على حريتك .. والأمل كبير في أن تتحرر من أبيك تحرراً كاملاً ..

أن تعمل وتكسب .. لا تفقد الأمل ..

وكان على موعد مع كاتيا في اليوم التالي .. كان يوم سبت واتفقت معه على أن تأتي إليه في الصباح الباكر قبل أن تصل بقية العائلة ، حتى تعد معه بيته وبيتهم .. ولكنها ما كادت تصل حتى أخذها من يدها وأركبها بجانبه السيارة ثم انطلقت بها كالجنون .. وقالت تسأله في هدوء كأنه لم يفاجئها بشيء :

- إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها :

- لا بد أن نصل إلى شيء ..

وقاد السيارة بجنون حتى وصلا إلى شاطئ العلمين ، ثم توقف ونزل من السيارة ونزلت معه وانجبه بها إلى مقبرة قتلى الحرب ثم توقف بين أعمدة الصليبان التي ترتفع فوق القبور ، وواجهها قائلاً :

- كل هؤلاء شهداء .. وأنا لا أريد أن أكون شهيداً ..

قالت وهي تبسم ابتسامة هادئة :

- ماذا تقصد ؟

قال :

- إن الشهيد هو ضحية لحظة جهل أعمته عن الرصاصة التي قتله .. وأنا أعيش منذ أكثر من شهرين وأنا في جهل .. لا أدري أين أنا منك ، ولا أين أنت مني .. كل هذا وأنا لا أدري هل تحبيني كما أحبك ..

وأرخت عينيها وقالت بعد لحظة صمت كأنها تفكر فيما يمكن أن نقوله ، وكلماتها تتعثر ، بين العربية والإنجليزية :

- إني أعيش في جهل أوسع من جهلك .. إني إلى الآن لا أعرفك ..

مجرد لقاء مصادفة جمعنا داخل الشلة .. وبرغم ذلك عرفت أني أحببتك ولكنني فضلت أن أداري حتى حتى أعرفك أكثر .. إني لا أعرف عائلتك .. ولا أعرف لماذا تعيش .. ولا أريد أن أسألك .. لا أنا ولا أني ولا أمي يريد واحد منا أن يسألك .. إنها حريتك .. وصداقتك ممتعة واكتفى الجميع بهذه الصداقة .. أنا وحدي التي لا أكتفي بها ولكنني أحمي نفسي بها ..

وقال في حدة :

- لا أستطيع أن أقدم لك طلب حب على ورقة رسمية أسجل فيها اسمي واسم عائلتي والشهادة التي حصلت عليها بقيمة دخلي وأملاكي .. أنا لا أبحث عن وظيفة حبيب لك .. لقد قدمت لك شخصيتي كاملة ، فإذا أن تحبي هذه الشخصية أو ترفضها أو تكتفي بصداقتها .. وتصوري أني في حالة نفسية تدفعني أن أهرب من نفسي حتى لا أريد أن أفصح عنها أمامك .. تصوري أني مريض .. ومريض يجعلني غير قادر على أن أقول من أنا .. بل قد أكون قد أخفيت عنك إسمي .. ولكن الحب يتسع حتى للمرضى ..

ونظرت إليها طويلاً وعيناها تضانه إليها في حب وقالت كأنها تهمس :

- إنك لست مريضاً .. ولكنك في معركة لا أدري سرها .. هذا ما أحس به .. وقد قررت أن أقف معك حتى تنتهي المعركة وبعدها أعرفك كلك بعد أن ترفع عنك ثياب وأقنعة الحرب .. وأنا متأكدة أنك لن تكون شهيداً ولا أنا فتعالى نخرج من هنا .. من حديقة الشهداء ..

واستدارت وهومعها وسارا بعيداً عن قبور قتلى الحرب إلى أن أصبحا بين أشجار التين البرشومي الممتدة حتى الشاطئ ، وقال وصوته لا يزال ناثراً :

- إن الحب لا ينتظر حتى تنتهى المعركة أوحى يشق المريض ..

ومدت يدها ووضعتها فى يده وهى تهمس :

- ومن قال إنه يستطيع أن ينتظر ..

وتوقف بها عن السير ونظر إليها طويلاً وهمس هو الآخر :

- هل أستطيع ؟

وشفتاها تتطلعان إلى شفتيه .. لم يعد فيهما سوى شفاه .. وكانت القبلية الأولى بعد كل هذه الأيام التى جمعتما .. وسقطا مع قبلتهما تحت شجرة التين ..

وتحركات بين ذراعيه قبل أن تصل القبلية إلى باقى جسديهما .. وهذا ما عودته عليه دائماً أن يكتفيا بالشفاه .. وقامت تجرى ضاحكة وهو يجرى خلفها إلى أن وصلا إلى السيارة :

وقال وهما فى طريق العودة :

- لقد وجدتك .. بقى أن أجد نفسى ..

قالت كأنها تثير حماسه :

- وجدت الصعب وبقى السهل ..

...

وقد اعترفت العائلة اليونانية بأن كاتيا أصبحت لأشرف .. اعترافاً صامتاً لا يثير أى نكات حلوة يطلقونها أحياناً على تصرفات كل منهما نحو الآخر .. وهو دائماً معهم .. وقد بدأ من خلال أحاديثهم يكتشف عالماً واسعاً لرجال

الأعمال .. إنهم لا يقصرون نشاطهم فى مشروع المطعم والمقهى الكبير ، ولكنهم وكلاء عن شركة فرنسية تتطلع إلى بناء مدينة سياحية كاملة على ساحل البحر الأحمر .. إنه مشروع تصل تكاليفه إلى أكثر من ثلاثين مليوناً من الدولارات ، ولو استطاعوا تحقيقه فإن العمولة التى يحصلون عليها لا تقل عن نصف مليون .. وهو يستمع إلى كل هذا وليس له أن ينتقل بكل فكره إلى هذا العالم الجديد عليه .. بل إن كل أحاديثه مع كاتيا حتى فى خلوتها كانت تدور حول هذا العالم كأنه يحاول أن يتعلم منها مالا يستطيع أن يتعلمه من أحبا أو من أبيها .. وينام وهو يفكر .. ويصحو وهو يفكر .. إن كل هذه المشروعات التى يتحدثون عنها يمكن أن يحققها أبوه ببساطة .. ولكنه لا يريد أن يلجأ إلى أبيه .. إن مشروع المطعم يعتبر صغيراً بالنسبة لمشروع المدينة السياحية .. ، مشروع ليس فى حاجة إلى تدخل أبيه ، فلماذا لا يشترك فيه ..

وجلس مع صديقه دينوس وعرض عليه أن يدخل معهم شريكاً فى المطعم السياحي .. وعرض أن يساهم بعشرة آلاف جنيه ، وقال كأنه يفرى دينوس :

- إنى لا أريد ربحاً ، ولكنى فقط أريد أن أتعلم ..

ووعده دينوس أن يعرض الموضوع على بقية العائلة : ثم غاب أياماً .. أياماً طويلة .. وعاد يعلن أشرف بأن العائلة قررت أن تقبله شريكاً فى مشروع المطعم ..

واتصل بأمه فى التليفون ، وكان صريحاً برغم أنه يعلم أن التليفون يضم فى داخله شريط تسجيل .. وقال لها إنه يعلم أنها تحتفظ بمبلغ باسمها الخاص وهو فى حاجة إلى هذا المبلغ ليساهم فى مشروع .. وروى لها كل تفاصيل المشروع ، واتفق معها على لقاء ، وفى هذه المرة لم يتمسك بلقاء خدائق المتزة ،

إنه سيقاها في بيت الإسكندرية ..

وقالت الأم لزوجها .. ورد إسماعيل عبد الصبور فوراً :

- أعرف .. إنه مشروع مطعم .. اعطه ما يريد ولكن النصيحة أن يبقى

مشروع الشركة سراً بينه وبين شركائه الجريك ..

وسافرت الأم إلى الإسكندرية ، وذهب أشرف للقائها في البيت ، ولم

يتم كثيراً عندما أدى له العسكري الواقف على الباب تحية تعظيم سلام ..

واقنع بما نصحته به أمه واتفق مع دينوس ووالده بابا دوبلو على أن تبقى

الشركة في اتفاق خاص بينهما ولا تسجل رسمياً ..

وتركوه حراً في أن يختار العمل الذي يريد أن يساهم به ، وقد اكتفى بأن

يكون كل عمله هو أن يتعلم ويفهم ، وبدأ يراجع أوراق المصروف والإيراد .

وعمليات استيراد ما يحتاج إليه المطعم ، وتكاليف العمالة .. بدأ يدرس

العملية كلها .. ووجد عقله يتفتح ويستوعب بسهولة كل ما يتعلمه ، حتى

أنه اكتشف أنه كان مخطئاً بالنسبة لنفسه عندما اختار يوماً ما أن يكون مهندساً

والتحق بكلية الهندسة ، ربما لو كان قد التحق بكلية التجارة لجذبت أكثر

ولاً فر منها ..

والعائلة كلها صاحبة المشروع تبدي إعجابها به دون نفاق ، وتستجيب

بسرعة لأغلب اقتراحاته .. ولكن .. هناك فكرة للتوسع في المشروع لم يستطع

أحد منهم أن يحققها .. ففوق المطعم الذي يقع على الشارع دور كامل من

العمارة يشمل ثلاث شقق كانت الحراسة قد أستولت عليه وأجرته للمحافظة

التي تستعملها كمكاتب لأرشفيف السجلات .. لو استطاعوا أن يأخذوا

هذه الشقق الثلاث ثم يصلون بينها وبين المطعم الأصلي الواقع إلى الشارع ، لأقاموا

أكبر مطعم في الإسكندرية بل واحداً من أكبر وأفخم مطاعم العالم .. وقد حاولوا

كثيراً ودفعوا كثيراً من مقدم العمولات أى من الرشاوى ، حتى يقنعوا مكتب الحراسة

بالغاء إيجار المحافظة لهذه الشقق ليستأجرها .. ولا أمل ..

وشغل أشرف كل فكره بهذا المشروع .. توسيع المطعم السياحي يعتبر

فعلاً خطوة وطنية أجدى على البلد من الاحتفاظ بهذه الشقق كمخازن للأرشفيف ..

لا يهم أن يتم هذا العمل الوطني على يد شركة جريكية أو فرنسية أو إنجليزية ..

ولأنهم أرباحه هو شخصياً .. إن أرباحه بمجرد أن يساهم في الشركة تصل إلى

مائة جنيه في الشهر .. وقد فوجئ بهذا الربح السهل عندما أعطاه بابا دوبلو نصيبه ..

خيل إليه أنهم يشترونه ، أو على الأصح يرشونه ، ولكنه عند مراجعة حسابات

المطعم اكتشف أنه يستحق فعلاً هذا المبلغ .. وهو ليس في حاجة إلى أكثر

منه . وتفكيره في التوسع ليست دوافعه زيادة الربح إنما هو إندفاع وطني لتحقيق

مصلحة وطنية ..

وارتدى في الصباح بدلة كاملة على غير عادته وذهب إلى الحلاق وقص شعره

إلى أن أعاده إلى حالته الطبيعية ثم حلق ذقنه .. هل تخلى عن شخصيته التي حاول

أن يخلقها .. وأجاب نفسه بلا .. إنه فقط وجد الطريق الذي يسير فيه ..

وسار إلى مكتب المحافظ ، ونظر إليه السكرتير في امتعاض :

- أفندم ..

وقال أشرف في هدوء :

- أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور ..

وقفز السكرتير واقفاً وهو يقول في تلجلج :

- تشرفتنا يا أفندم .. اتفضل ..

وقاطعه أشرف :

- هل أستطيع مقابلة السيد المحافظ . .

وقال السكرتير في رعدة :

- طبعاً يا أفندم . . طبعاً . . دقيقة واحدة . .

ودخل السكرتير إلى مكتب المحافظ . ثم عاد مهزولاً :

- اتفضل يا يا أفندم . .

وكان السيد المحافظ مجتمعاً ببعض موظفيه وقام من على مائدة الإجتماع يستقبل

أشرف مرحباً ثم التفت إلى الموظفين قائلاً :

- الاجتماع يعتبر مستمراً إلى أن أدعوكم . .

وخرج أعضاء الاجتماع وتفرغ المحافظ لأشرف . . وروى له أشرف كيف

اكتشف أن هناك مصالح وطنية معطلة وأنه يجب تحقيقها حتى مع تحدى اللوائح . .

البالية . . وعليه فيجب إخلاء الشقق الثلاث من موظفي الأرشيف ليقام مكانها

مطعم عالمي سيأحيى يفتح للبلد صنوبراً من العملة الصعبة . .

واقترح السيد المحافظ بسرعة ، ولكنه أمهل أشرف يومين حتى يراجع المسؤولين

في الوزارة . .

وكان أشرف يعلم أن أباه إسماعيل عبد الصبور لا بد سيعلم بهذا المشروع بل

وسيعلم أنه ذهب بنفسه للقاء المحافظ . . وقرر أشرف أن يثبت حسن نيته وأن يعترف

بأنه في حاجة دائماً إلى أبيه ، فاتفق بأمره وروى لها تفاصيل المشروع وهو واثق

أنها ستبلغ به والده . .

وعاد إسماعيل عبد الصبور يقول بعد أن استمع لزوجته :

- عارف . . وأنا موافق . . الولد ابتدى يشتغل جد . . .

ووافق المحافظ على المشروع بعد يومين . .

ولم تصدق عائلة بابا دوبلو الخبر وكادت تجن من الفرح عندما صدقته ،

وأقاموا حفلاً عائلياً حول بروميل كامل من النبيذ تحية لأشرف ، وقال بابا دوبلو كأنه

يلقى خطاباً رسمياً إنهم كانوا قد خصصوا ميزانية تبلغ قيمتها ثلاثين ألفاً من الجنيهات

للحصول على هذه الشقق وأصبح هذا المبلغ كله من حق أشرف . .

ورفض أشرف أن يتقاضى كل هذا المبلغ ، وقال إنه عضو مساهم في الشركة

وما يعود على الشركة يعود عليه ، ومع إصرار أشرف قررت العائلة أن تضيف الثلاثين

ألفاً إلى نصيب أشرف من الشركة . . وقام بابا دوبلو وهو ينظر إليه كأنه لم يكن

يصدق أن أشرف له مثل هذا الذكاء :

- هذا أفضل لك . . لقد أصبحت ابن سوق . . إن نصيبك الآن في الشركة

يساوي ضعف نصيب ابني دينوس . .

ولم تكن فرحة أشرف بما كسبه ولكنه كان فرحاً بأنه استطاع أن يثبت شخصيته

بعيداً عن أبيه . . لقد قال أبوه إنه وهو في العشرين من عمره استطاع أن يكون

شخصية منفصلة عن أبيه . . إنه هو الآخر استطاع أن يفصل وهو في الثانية

والعشرين . . لعله لم يفصل تماماً . . إن مشروع الشقق لم يمكن أن يتم إلا إذا

كان قد قص شعره وحلق ذقنه ليليد أنه ابن أبيه . . ولكن ليس أبوه هو الذي

فكر في المشروع . . وليس أبوه هو الذي قدمه إلى عائلة بابا دوبلو . . إنه الآن

شخصية تفكر لنفسها . .

وكانتا تنظر إليه من بعيد وهي تبتمس في صمت . . ابتسامة لا تعبر عن شيء . .

لا عن فرح ولا عن قلق . . وأخذها أشرف إلى خارج الحفل وقال وهو يرفع يدها

ويضع أصبعها بين شفتيه :

- كاتيا .. لنعلن خطبتنا الليلة .. وننزوج الأسبوع القادم .. لقد فكرت في كل شيء .. سأجد شقة لنا غداً .. من السهل أن آخذ شقة خالية .. وإلى أن يتم تأثيثها ناسفر إلى الخارج .. إلى الريفييرا في فرنسا .. بعيداً عن هنا .. ولم نتطلق كاتيا بالفرحة كما كان يتصور ، وقالت كأنها تهم بالبكاء :

- إلى خائفة ..

وقال أشرف في دهشة :

- خائفة من ماذا ..

قالت وهي لا تنظر إليه :

- لا أدري .. ولكنك منذ قصصت شعرك وحلقت ذقنك وأنا أحس أنك

ابتعدت عني ..

وقال مبتسماً :

- إنك دائماً تعيشين في شك من كل من حولك .. اسمعي ... سأقول لك كل شيء .. إن اسمي الكامل هو أشرف إسماعيل عبد الصبور .. ابن إسماعيل عبد الصبور .. طبعاً معروف .. وكنت قد هربت من البيت حتى أثبت شخصيتي بعيداً عن شخصية أبي .. وأعتقد أنني نجحت ..

وقاطعته كاتيا في صوت خفيض :

- إني أعرف ..

وقال في دهشة :

- تعرفين ماذا ؟

قالت :

- أعرف كل شيء عنك ..

قال والدهشة تستبد به كأنه تلقى صدمة :

- منذ متى ؟

قالت :

- منذ دخلت الشركة مع عمي بابا دوبلو .. كان مستحيلاً أن يقبلوك دون أن يعرفوك ..

قال :

- ولماذا لم يصارحوني بأنهم عرفوا ..

قالت :

- كانوا في انتظار أن تصارحهم أنت .. هذا حقا ..

وابتسم أشرف ابتسامة يسخر بها من نفسه .. لعلهم لم يقبلوه شريكاً إلا بعد أن عرفوا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور .. لا يهم .. يجب أن يتخلص من هذه العقدة .. المهم أنه حقق أرباحاً ويستطيع الآن أن يعتمد على نفسه .. وقال لكاتي كأنه يواسي نفسه :

- مهما كان فلنعلن خطبتنا الآن ..

وعادت تقول :

- إني خائفة ..

ثم فجأة انطلقت تتحدث باللغة اليونانية .. تكلمت كثيراً كأنها لسان إبرة جرامفون وقفت على أسطوانة مشروخة .. وأشرف يصرخ فيها .. ماذا تقولين .. ماذا جرى لك .. وهي مستمرة في الكلام باليونانية حتى رفع أشرف كفه وصفعها صفعة قوية ، وقالت ودموعها تفيض على خديها :

- إني أستطيع أن أتكلم بلغة لا تفهمها طول عمري ، فكيف ننزوج ..

وقال يحيطها بذراعه في حب :

- ولكنى أستطيع أن أتعلّمها .. بل تعلمت الكثير منها وأحببت كل شيء .
جريكى ... أحببت الريتسا والسوفلاكى والتارامو ، والموزاكا .. وأحببت البوزك
والسيرتاكى والكاسايو والكلامبانتوس .. أصبحت نصف جريكى ويمكن فى
أيام أن تجعلين كلى جريكياً .. تعالى ..

وأخذها ودخل بها إلى الحفل وهمس فى أذن دينوس ، وهمس دينوس فى
أذن بابادوبلو ، وهمس بابا دوبلو فى أذن مارينوس ، وساد الجميع صمت قلق ،
ثم صاح بابا دوبلو :

- سيداتى وسادقى أعلن لكم خطبة كاتيا إلى أشرف ..
وهلل الجميع وهم يرقصون حول برميل النبيذ ..

...

وقرر أشرف أن يبلغ أمه بالخبر حتى تبلغه لأبيه وذهب إليها فى بيت
الإسكندرية ، وما كادت تراه بعد أن حلق شعره وذقنه حتى احتضنته فى فرحة
وقالت وهى تمسح بيدها على خده :

- الآن أحس أنك عدت إلينا ..

وأخذ يحدثها عن مشروعاته وعن الأرباح التى حققها ، ثم قال :

- وقد نويت الزواج ..

وقالت أمه فى فرحة :

- عين العقل .. سأختار لك أحسن وأجمل بنت فى البلد ..

وقال ضاحكاً :

- اخترت ..

قالت فى دهشة !

- من ؟

قال :

- كاتيا .. أخت صديق دينوس ..

قالت :

- جريكية .. مستحيل .. يا بنى هوه من قلة بنات البلد .. وتعمل فينا
كده ليه .. تناسب جريك .. أدى اللى كان ناقص ..

اسمع يا أشرف و ..

وقاطعها مبتسماً :

- اعملى معروف يا ماما .. وافق حتى لا أجن وأهرب مرة ثانية ..

وسكتت وبدأ عليها أنها تبذل جهداً كبيراً حتى لا تفقد أعصابها ، ثم قالت
وهى تنتهد كأنها تستغيث بالله :

- لك الحق يا ابنى .. هذه حياتك وأنت حريفها .. موافقة ..

وقال فى فرح :

- سأصحبها معى فى المرة القادمة حتى تتعرفى بها وتباركينا ..

وقالت فى أسى :

- أهلاً وسهلاً بها ..

وبعد أن تركها أشرف أخذت سيارتها وانطلقت فوراً إلى القاهرة تبحث عن
زوجها إسماعيل عبد الصبور .. وعندما لاقته صرخت فى وجهه . كأنها تستدعى
بوليس النجدة :

- الحقنى يا إسماعيل .. أشرف سيتزوج جريكية ..

وصفت الأب كأنه واجه مشكلة ضخمة وقال ساخراً :

- وصلت إلى حد الزواج ..

ثم رفع صوته في حدة قائلاً لزوجته :

اسمعى ... اتركى هذا الموضوع لى .. لا تناقشى فيه أشرف .. خذيه

بعقله ..

وعندما بدأ أشرف يتحدث مع بابا دوبلو في تحديد موعد الزواج . قال له
إن الموضوع فى حاجة إلى وقت طويل فيجب أن يتصل بالعائلة فى أثينا ، ثم
إن اختلاف الدين يجعله مضطراً إلى اتخاذ إجراءات كثيرة حتى لا تشن الكنيسة
ثورة عليه .. أنت لا تعرف الجريك يا أشرف .. إنهم متعبون فى كل شئ ..
وكاتيا معك .. خطيتك .. وهى معك مهما طال الوقت حتى يتم الزواج ..
ولكنه بدأ يلاحظ أن العائلة كلها ليست متحمسة لهذا الزواج وإن كان
لم يسمع صوتاً يعارضه .. ثم بدأ يلاحظ انشغال الرجال بموضوع آخر غير موضوع
الطعم ولا يشركونه فيه .. إنه موضوع المدينة السياحية على شاطئ البحر الأحمر ..
لقد تقدمت شركة إيطالية تنافسهم فيه .. لا بهم .. إنه لا يريد هذا المشروع
ولن يتدخل فيه .. ولكن لماذا لا يهيمه .. إنه مشروع يدر الملايين .. إنه يستطيع
به أن يصل إلى درجة مليونير .. ولكن ليبدأ أولاً بالانتهاء من مشروع زواجه ..
وتخيل إليه أن كاتيا تتغير .. إنها تخفى عنه شيئاً .. وهى دائماً قلقة ..
ودموعها كثيرة إنها تبكى كلما قبلته وكأنها قبله الوداع .. وصرخ فى وجهها :
- ماذا تخفين .. ماذا يقلقك ..

ونظرت إليه طويلاً كأنها قررت أن تكشف له سرّاً وقالت :

- اسمعى يا أشرف .. لقد عرفنى طويلاً وأنت تخفى عنى سرى ، وأنا أيضاً
لى سر أخفيه عليك .. إنى قبل أن أنتقل إلى مصر كنت مخطوبة تقريباً لأحد
أقاربنا فى أثينا .. وقد أرسلنا إليهم أخيراً لإلغاء هذه الخطبة .. قلنا لهم كل
شئ .. ولكنهم لم يوافقوا .. إن إلغاء الخطبة قد يؤدى إلى نكبة على العائلة ..
وهم يريدوننى أن أعود إليهم .. ولم أقل لك شيئاً .. لأنى أقاوم .. ولا أدرى
إلى متى أستطيع أن أقاوم ..

ونار أشرف :

- لقد تغيرت .. إنك تكذبين .. لا أصدق شيئاً مما تقولين .. هناك سبب
آخر لكل هذا .. كونى أكثر صراحة .. ثم ماذا يهمنى من عائلتك أو عائلتى تعالى
الآن لن تزوج وحدنا ونهرب بعيداً وحدنا ..

وقالت كاتيا .. وهى تبكى :

- إنى أحبك .. ولكنى لا أستطيع ..

واشتدت ثورة أشرف ، وصرخت كاتيا :

- أشرف .. لم أعد أحتمل .. قبلنى .. قبلنى ..

وألقت نفسها بين ذراعيه ، واحتضنت شفتيه بشفتيها ولم تتركهما كعادتها قبل
أن يسرى إحساسهما إلى باقى جسديهما .. تركت هذه القبله تصل بها إلى
كل شئ .. أعطته كل ما يريد وأكثر ..

وفى اليوم التالى ذهب أشرف إليها وهو يحس بالزهو .. لقد أصبحت كلها
له .. وعندما دخل البيت استقبله بابا دوبلوس ودينوس فى وجوم ..

أين كاتيا ؟

سافرت صباح اليوم إلى أثينا ..

وهم أشرف أن يتوعد سيلحق بها .. سيحطم كل ما يعترضه ..

وقال له بابا دوبلوس في هدوء :

- إنها مشكلة أكبر منا ومنك .. تأكد أننا حاولنا كثيراً ..

ونظر إليهما أشرف ساخراً ، ثم جلس مدعياً الهدوء قائلاً :

- لنعتبر الموضوع متبهاً .. لم تعد هناك مشكلة .. إلى ماذا وصلتم في مشروع

مدينة البحر الأحمر ..

والثف حوله بابا دوبلوس ودينوس يشرحان له ما وصلوا إليه ، ولم يستمع

إليهما طويلاً وتركهما وركب سيارته واتجه بها إلى طريق القاهرة .. منذ عامين

وهو لم يفكر أبداً في العودة إلى القاهرة .. ولكن ليعد .. ليعترف بالواقع ..

إنه يستطيع أن يستفيد من الواقع بقدر ما يمكن أن يؤذيه خياله .. والواقع هو أنه

ابن إسماعيل عبد الصبور .. وإسماعيل عبد الصبور هو الأمر الواقع إنه يسيطر

على قدره سواء كان بجانبه أو بعيداً عنه .. إنه استطاع أن يطرد كاتيا من مصر

كلها .. ربما هدد عائلتها .. أو ربما أغراها بمساعدتهما في مشروع البحر الأحمر ..

ولكنه متأكد أن أباه هو الذى طرد كاتيا ..

ووقف أمام أبيه هادئاً ، وأبوه يستقبله بابتسامة الرجل القوي المنتصر حتى

على أولاده .. وقال أشرف ساخراً :

- أقدم لك نفسى .. أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور .. ابن إسماعيل

عبد الصبور ..

ومد أبوه ذراعيه وضمه إلى صدره وقال :

- أوحشتنى يا أشرف .. ورغم بعدك عنى كنت فخوراً بك .. لم أكن

أعتقد أن عنادك يمكن أن يقودك إلى كل هذا النجاح ..

وقال أشرف وكأنه يناقش :

- الفضل لك دائماً .. فأنا لست إلا ابن إسماعيل عبد الصبور ..

وقال الأب كأنه يرضيه :

- وأنا أبو أشرف ..

وقال أشرف وهو يحاول أن يحتفظ بشخصيته كاملة أمام أبيه :

- وقد جئت أطلب أبى بحقى فى التعويض ..

وقال الأب في دهشة :

- التعويض عن ماذا ؟

قال أشرف :

- لقد فقدت فتاة خطبتها .. وإنى مستسلم لما حدث وأعرف أنك السبب ..

ولا يمكن أن يلهينى عن استسلامى إلا أن أدخل فى مشروع جديد ..

وقاطعه الوالد :

- إن مشروع البحر الأحمر تمت الموافقة عليه .. ومن حقه أن تأخذه

وحبك لو أردت ..

وقال أشرف :

- إن أصحاب المشروع لم يحرمونى من خطيبتى .. ولن آخذ منهم المشروع

انتقاماً وعقاباً ولكن فقط سأساهم معهم ، وأردت فقط أن أتأكد منك أنه تمت

الموافقة عليه .. وأردت أيضاً أن أعلن لك أنى قد عدت إليك .. إلى البيت

وسأدعو بابا دوبلوس ودينوس إلى هنا .. إلى بيتك وبيتى .. للعشاء غداً ..

هل نكون معنا ..

وقال الأب :

- حتى نكون أكثر واقعية أفضل ألا أكون معكم وأفضل أن تدعوهم في الخارج .. هذا نوع من التغطية ..

وقال أشرف :

- لك حق .. إلى مازلت تلميذاً لك .. عن إذنك ..

وهم أشرف أن يخرج فناداه أبوه قائلاً :

- أشرف .. ما دمت مازلت تلميذاً فأني أنصحك بأن تحصل على

شهادتك الجامعية .. إنك تستطيع أن تكون مليونيراً بلا شهادة ، ولكنك لا تستطيع

أن تكون وزيراً سياسياً إلا بشهادة وأنا أريد لك أن تكون يوماً ما وزيراً ..

رئيس وزراء .. هذا يسعدني ويجعلني أزهو بك ..

وقال أشرف وهو ينظر إلى أبيه في عجب :

- الشهادة سهلة .. أستطيع أن أسافر وأعود بشهادة من لندن .. دكتوراه ..

وسأختار دكتوراه في الاقتصاد .. لم أعد أريد الهندسة ..

وقال الأب :

- اترك لي هذا الموضوع ..

(تمت)

❖ أسرار المهنة ❖

شدت قوامها الطويل المشوق وسلطت عليه عيتين غاضبتين وقالت في صوت
تطلق فيه رنة قاسية بجانب موسيقاه الرائعة كرنه آلة السيكون بين نغمات
الكمان :

- اسمع . . إني خبيرة في مهنتي . . وصاحب رأس المال يعتبر غيباً إذا
تدخل في أعمال الخبراء . .

ونظر إليها في قرف واحتقار وقال :

- ربما من كثرة ما تعاملت مع أمثالك من الخبراء كشفت أسرار المهنة . .

- قالت وهي تنظر إليه في تعال :

- لم أكن أتوقع أن ألتقي بكل هذا الغباء . . إنك لن تكشف أبداً سر
مهنتي . . الزبون لا يمكنه أبداً أن يصل إلى أسرار التاجر سواء قضى عمره يتعامل
مع تاجر واحد أو تنقل بين ألف تاجر ، وكنت أعتقد أنك تفهم ذلك دون حاجة
إلى أن ألقى عليك درساً ، فنحن الاثنان أبناء سوق واحدة . . أنت تاجر وأنا تاجرة . .
أنت رجل أعمال وأنا سيدة أعمال . . وإذا اعتبرت نفسك خبيراً اقتصادياً
فأنا أيضاً خبيرة في الاقتصاد . . والفرق بيننا هو في نوع البضاعة التي نتحمل مسئولية
تسويقها . . وهذا هو ما يفرض على كل منا أن يحترم خبرة الآخر في تخصصه . .

قال في حدة :

- إنى أقبل وقاحتك لأنه لم بعد هناك وقت لاستبدالك بغيرك . . و . .

وقاطعته ساخرة :

- إنها ليست وقاحة ، إنها مصارحة ، وأنت تقبلها لأننا وحدنا ولا أحد يسمعنا . لو كنت أقول هذا الكلام أمام الناس لقتلنى أو قتلت نفسك ولكننا الآن وحدنا . أنت ترفض أن تعرى أمام الناس ولكنك تقبل أن يعريك شركاؤك . وأنا شريكك هذه الليلة . ومن حتى أن أعريك ما دمنا في اجتماع مجلس إدارة . .

وقال في ثورة :

- إنك لا تعرينى ولكنك تسرقينى . مائتا جنيه فمن الثوب الذى ترتدينه في السهرة . . هل هذا معقول . . مائتا جنيه . . ولجرد أنى طلبت منك أن تظهرى في مظهر لائق . .

وقالت في هدوء :

- ليس لأنك طلبت المظهر اللائق . . ولكن لأنى درست كل شيء ، ولعلك تذكر أنى كنت أفرض عليك أسئلة كثيرة قبل أن تنفق على هذه العملية . . وقد علمت منك أن ضيفك شخصية كبيرة واسعة النفوذ وواسعة الثراء . . يملك ما لا حصر له من دولارات البترول . وعرفت منك أنك تحاول أن تصل معه إلى صفقة سيارات نقل تصل قيمتها إلى حوالى خمسين مليوناً . الزبون مليونير والصفقة بالملايين . . ومهنتى هى أن أضعف مقاومة هذا المليونير خلال السهرة حتى يستجيب . . كيف أضعف مثل هذا الرجل ؟ . .

وقاطعها ساخراً وهو يحاول أن يقلد لهجتها الجديدة التى تتحدث بها :

- وطبعاً الوسيلة الوحيدة لإضعافه هى أن تشتري ثوباً بمائتى جنيه . .

وقالت وهى تنظر إليه فى تأفف :

- لقد عرفت منك أنك بدأت حياتك تاجراً صغيراً وأعتقد أنك لا تزال تعيش بعقلية التاجر الصغير ، وسأحاول أن أقنع فيك هذه العقلية . . إن هذا الثوب هو الفترينة التى تعرض فيها البضاعة . . وكلما أراد التاجر أن يقنع الزبائن بأن البضاعة غالية وأراد أن يشدهم إليها وضعها داخل فترينة مغرية لها مؤثرات تشد أنواع الزبائن الذين يسعى إليهم . . إن فترينة الملابس الشعبية غير فترينة الملابس الراقية . . وفترينة لعب الأطفال غير فترينة المجوهرات . . وهذا الثوب هو الفترينة التى أعرض فيها بضاعتى . . وقد اخترته حسب تقديرى لشخصية الزبون ، ولعلك تلاحظ أنه ليس ثوباً عارياً . . لا يكشف عن شيء من جسد . . لماذا . . حتى أبدو أمامه كامراً غالية ، فهذا النوع من الرجال يقضى كل ليلة وأمامه امرأة معروضة عليه حتى أصبح يتعالى على النساء الرخيصات فى حين أنه من السهل أن تقتنعه المرأة بأنها غالية بمجرد أن تغطى جسدها حتى لو كان جسداً تعود على العرى . . إن الرجل يثيره ما يراه أكثر مما يراه . . يثيره خياله أكثر مما تثيره عيناه . . وهذا كله مع ثقى بأن بضاعتى مثيرة للخيال حتى لو عرضتها داخل بطانية . .

وقال ساخطاً :

- ولماذا لم تشتري بطانية بدلاً من أن تغتصبى منى مائتى جنيه . .

وقالت فى تأفف :

- إنك لا تزال مبتدئاً . . وعقلك لا يزال ضيقاً . . إنك تؤمن بأن المظهر أهم من الواقع ولكنه إيمان تطبقه على نفسك فقط . . إنك تركب سيارة بويك ٧٦ وتشتري

ثيابك من لندن والكرفانات من كريستيان ديور وأحذيتك من إيطاليا . . والدعوة
تقيمها الليلة في الهيلتون ، وبرغم هذا فعندما دخلت بيتك أشققت عليك . .
إنها شقة في الزمالك لأنك في حاجة أن تقول إنك تسكن الزمالك تغطية للمظهر ،
ولكنها في داخلها تجمع قطعاً من الأثاث المهلهل وفراشك يبدو أنك لم تبدله منذ عشرين
عاماً - والثلاجة التي رأيتها يبدو أنها من بقايا عصر التجارب التي سبقت اختراع
الثلاجات ، وحتى التلفزيون ، نصر . . وأنا أعرف أنك لا تدعو أحداً إلى البيت ،
كل حياتك خارج البيت ، . . الخارج هو المظهر والدخل هو الواقع . .
وقد أخذتني إلى الواقع لأنك اعتقدت أني أنا أيضاً أعيش في نفس الواقع المهلهل
المسكين . . لا . . أسفة . . إن بيتي أرقى مائة مرة من بيتك . . ورغم ذلك فأني
لم أدهش عندما رأيت واقعك . . إنه واقع كثير من رجال الأعمال خصوصاً
وهم يحتاجون مرحلة ما قبل المليون الأول . . ولكنك تحطى خطأ كبيراً إذا حاولت أن
تبخل على بمطال المظهر . . فأنا وأنت تقوم بعملية واحدة ويجب أن نكون في
مظهر واحد . .

ويخط على حافة المائدة بقبضة يده وصرخ :

- لا تقارنى نفسك بي . . أنت تعرفين من أنت . .

وقالت في برود :

- أنا أعرف من أنا فعلاً ، ولهذا فأني أعتبر نفسي متساهلة وفي منتهى التواضع
عندما أقارن نفسي بك . . أنا تاجرة وأنت تاجر ، ولكن مسئوليتي عن الزبون
أشرف من مسئوليتك . . أنت تبيع المجهول وأنا أبيع الواقع . . والمجهول يبقى
مجهولاً مهما جمعت من تفاصيله ، أما الواقع فكله واقع . . إن تاجر الفاكهة
يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة ، ويعرضها في دكانه

عرضاً مغرباً ، وقد يشقها لك حتى ترى احمرار باطنها وبرغم ذلك فعندما يأكلها
الزبون قد لا يجد لها طعماً ، والتاجر بعد ذلك ليس مسئولاً . . انتهى دوره . .
إنه مجرد سمسار بين البطيخة والزبون . . وكذلك أنت قد تحقق صفقة السيارات
وبهما ضمنتها من شروط فهي مجرد عقد ينتهي دورك فيه بمجرد توقيعه . . مجرد
سمسار بين الشركة والزبون . . وقد يكتشف الزبون وهو داخل السيارة أنها عاطلة
أو ناقصة وأنت لست مسئولاً . . أما أنا فشئ آخر . . أنا مسئولة أمام الزبون
حتى ينتهي من استهلاك البضاعة ، فإذا اكتشف فيها عيباً فقد لا يدفع الثمن
المتفق عليه أو قد يؤذي ، بل إنني أحياناً أعطي أكثر مما ينتظر الزبون حتى أطمئن إلى
أمانتي في البيع . . تجارتي ليس فيها مجال للغش أو الاختلاس أو الخداع . .
أما أنت . . أنت سمسار تقدمني وتتفق مع الزبون ، أما أنا . . أنا البطيخة التي
يأكلها الزبون ويجب أن تكون طبقاً للمواصفات وإلا ألقى بها من النافذة وماتت
أقصد ضاعت . . هل فهمتني . . إلى هذا أعتبر نفسي متواضعة عندما أقارن نفسي
بك . .

وزفر أنفاسه قائلاً :

- لا أدري لماذا أحتملك . .

وقالت ساخرة :

- لأنك في حاجة إليّ . .

قال :

- احذري فأني أستطيع أن أطردك في أي لحظة . .

قالت مبتسمة :

- إنى واثقة أنك لن تطردني الآن . . إن حاجتك إليّ تجعلني أنا الأقوى . .

هذا هو حكم الحاجة دائماً . . قانون العرض والطلب . . ربما بعد أن تنتهي العملية تطردني لأنك تنتهي من حاجتك إلى . . ولن أفاجأ . . إلى أحسب حساب كل شيء . .

ونظر إليها كأنه يحاول أن يكتشفها من جديد :

- لم أكن أتصور أنك بهذه المادية . . ليس فيك ذرة من العاطفة . .
خيريني . . هل عرفت الحب يوماً ؟
وابتسمت كأنها تحقّره وقالت :

- إن الحب هو امتياز للأغنياء ، وليس مهنة للعاطلين . . هكذا قال أوسكار وايلد . . وأنا لست غنية حتى أعيش في ملهاة الحب ، وإذا توقفت عن العمل وأصبحت عاطلة فالحب لا يصلح مهنة أعيش منها . . إن ما تمارسه شيء آخر غير الحب . .

قال :

- إنك تعرفين أيضاً أوسكار وايلد . .

قالت :

- قلت لك إنني تخرجت في كلية الآداب . .

قال :

- ولماذا لم تحاولي أن تكوني شيئاً آخر وأنت تحملين شهادة جامعية محترمة ؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت :

- إن شهادتي تؤهلني للفكر . . أن أفكر وأبيع أفكارى . . ولكنني اكتشفت أن الأفكار ليس لها سوق هنا أو في أي بلد آخر . . الأفكار بضاعة مرفوضة عندنا . .

وقال في استخفاف :

- لا أظن . . كل ما هنالك أنك اخترت الطريق السهل . .

قالت :

- بالعكس . . اخترت الطريق الصعب . . إن اعتمادك على الفكر هو الأسهل . . ولكن أين تبيع هذا الفكر . . إن الشعب العربي كله لا يزال يعيش في عصر الترجمة . . إنه يترجم كل ما تعيش فيه الدول المتحضرة من أفكار . . حتى عندما يحاول أن يتقدم في مأكولاته يترجم ما تأكله الشعوب المتحضرة . . انظر إلى آخر تطورات مجال الأطعمة . . الموت دوجز ، والويجي ، وكاتاكى . . كلها تقدم أطعمة مترجمة وبطريقة مترجمة . . لم يظهر فكر عربي يحاول أن يطور طعام العدس ، والفنة ، والفطير المشلتت بحيث يتأشى مع متطلبات الحياة الحديثة . . وحتى في السياسة . . إن أبرز رجال السياسة في البلاد العربية كلها لا يتميزون بشيء إلا أنهم مترجمون . . حتى النظم السياسية كلها نظم مترجمة . . تحالف قوى الشعب العامل نظام مترجم عن اليوغوسلافية . . والأحزاب والبرلمانات والرأسمالية والشيوعية كلها ترجمات . . حتى الكويت الدولة العربية الصغيرة لم تجد فكراً يكتشف لها نظاماً سياسياً خاصاً بها فترجمت النظام الغربي . . والسعودية ظلت متمسكة بالنظام القبلي ولكنها لم تجد فكرة تعينها على تطويره ، وبدأ الإلحاح عليها بأن تقتبس هي الأخرى النظام السياسي الأمريكي . . وانظر إلى لبنان ، لقد كان يقال إن الشعب اللبناني أكثر الشعوب العربية تقدماً . . وقد استطاعوا أن يكونوا فعلاً مركز السوق العربية . . ولكنها سوق لا تتعامل مع عمليات الخلق الفكري ولكنها تتعامل فقط مع الأفكار المترجمة أي مع البضاعة الأجنبية . . كل ما في السوق مترجم سواء في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد

أو في مجال الفن أو حتى في المظاهر الاجتماعية . . إلى أن وقع لبنان في مشكلة لم يجد لها حلاً مترجماً . . ولم يستطع الفكر اللبناني أو الفكر العربي كله أن يجد حلاً لهذه المشكلة لأن الفكر ليس له سوق عندنا ، فاستسلم لبنان للانهيار . . وأنت . . أنت رجل الأعمال المحترم . . هل تعتبر نفسك مفكراً ؟ للأسف . . أنت أيضاً مجرد مترجم . . إني أعرف عشرات من رجال الأعمال يتبعون نفس أسلوبك ونفس خطواتك . . أنت مترجم حتى وأنت تدخل في منافسات مع الآخرين . . إنك تنافس الآخرين كأنك في حلقة ملاكمة . . ولا شك أن الملاكمة في حاجة إلى ذكاء وحضور ذهن حتى تنتصر على خصمك ، ولكن اللعبة نفسها مترجمة . . لعبة منقولة عن الحضارة الأجنبية . . لم تستطع ولم تحاول أن تخلق أو تبتكر لعبة جديدة فأنت لست مفكراً . . أنت مترجم . .

وصرخ في وجهها :

— إني لم أدعك لتلقي على محاضرة فارغة . . وسواء كنت مفكراً أو مترجماً فأنا على الأقل متمسك بالشرف . . شرفي . . أما أنت . .

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

— الشرف . . أرجوك . . لا تضحكني . . إنك تدعوني لتبيع ليلة لأحد عملائك . . أنا البضاعة وأنت التاجر . . فمن منا الذي يبيع الشرف . . ما ذنب البطيخة إذا حقها تاجر الفاكهة لتبدو في داخلها حمراء . . من العناش البطيخة أم التاجر . . ثم ما هو الشرف . . لقد انتقلنا من عصر الترجمة إلى المعنى الجديد للشرف . . لم يعد الشرف يتركز في مكان واحد من الجسد . . الشرف هو الإنسان كله من رأسه إلى أخمص قدميه . . الشرف هو عدم الاعتداء ، وهو عدم الإيذاء ، وهو الترفع عن الغش . . الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت . . والحرية

الاجتماعية التي في الدول المتحضرة لا تعني الاعتداء على الشرف أو التضحية به بل تعني وضع الشرف في معناه الصحيح . . وصدقني . . هذا المعنى المترجم أصبح سائداً في كل الشعوب العربية حتى وإن بقي في بعض المجتمعات سرا لا يعلن عنه . .

وقال في تأفف :

— أن تكوني كل ليلة في فراش رجل . . فأنت لا تزالين شريفة . .

وقالت دون أن تغضب :

— هذا صحيح ، مادمت لا أعتدى ولا أغش . . وأنت تخلط بين معنى الشرف ومعنى الامتلاك . . الشرف هو إرادة فردية ، كل فرد يفسر الشرف كما يريد ، أما الامتلاك فهو تعاقد بين اثنين . . قد أتفق مع رجل على أن يمتلكني ليلة واحدة وقد أتفق معه على أن يمتلكني العمر كله . . كل شيء له ثمن . . ثمن مالي وثن اجتماعي . . والفرق بين امتلاك ليلة وامتلاك العمر كله أي الزواج ، هو الفرق في الثمن . . لا تتصور أن الزواج ليس عملية تجارية . . إنه مجرد عملية تجارية . . وجميع الأديان والقوانين تنظمه كعملية تجارية . . عملية يحكمها الثمن وتحكمها الحاجة إلى هذا الثمن . . هل تدري . . لقد قرأت أخيراً أن نسبة الطلاق بين العاملات والنساء اللاتي هن دخل خاص أكبر من نسبة الطلاق بين النساء اللاتي لا يعملن وليس هن دخل خاص . . أتدري لماذا . . لأن المرأة التي لها دخل خاص أقل احتياجاً للارتباط بعقد الزواج . . أقصد الاحتياج المالي والاجتماعي . . ولذلك سرعان ما تسعى إلى التحرر من الامتلاك . . أو على الأقل فإنها إذا اضطرت للاحتفاظ بهذا العقد فإنها قد تقم لنفسها علاقة خاصة مع رجل آخر بجانب زوجها . . إنهم يقولون إن النساء الفقيرات أشرف من النساء العاملات

أو الثريات .. لا .. لمن أشرف .. كل ما هناك أنهم لفقرهن أكثر استسلاماً
للملكية الرجل .. وهناك رجال كثيرون لا يمكن أن ينالوا امرأة إلا في حدود الشرع
والقانون .. شرف .. إن بينهم واحداً تزوج خمساً وأربعين امرأة .. شرف ..
يا صديقي صدقتي ليس للشرف دخل في كل هذا إنما هو مجرد تنظيم وضعته الأدباني
والقوانين لتنظيم عقود الامتلاك .. مجرد تنظيم تجارى ..

وقال ساخراً :

- معنى هذا بالنسبة لك أن ثمن الامتلاك ليلة واحدة يدر عليك دخلاً أكبر
من ثمن الامتلاك طول العمر .. أى ثمن الزواج ..

قالت في بساطة :

- لا .. إنه الفرق بين الأعمال الحرة والوظيفة .. وأنا إلى الآن أفضل الأعمال
الحرة .. لم ألتق بالرجل الذى يغربنى بالوظيفة .. وظيفة العمر ..

وقام من أمامها في زهق وأخذ يخطو داخل العرفة :

- تأخذين منى ماتتى جنبه ثمناً لثوب واحد ثم تلقين على درساً فلسفياً ..

وقالت وهى تقوم كأنها تجرى وراءه :

- عدنا إلى الماتى جنبه .. يا صديقي الجاهل صدقتي أن هذا في صالح
العملية .. لقد اشتريت ثوباً بماتتى جنبه ولكنى مثلاً لم أشتري حذاء .. انظر ..
إنى أضع في قدمى حذاء قديماً لا يساوى أكثر من خمسة جنيهات .. لماذا ..
لأن الحذاء لا يعتبر الليلة مؤثراً في المظهر ، فالثوب الذى اشتريته طويل سيغطيه
ثم إن صيفك من هذا النوع من الرجال الذى لا يهيمه أن ينظر إلى حذاء المرأة
لأنه يسلط كل عينيه على وجهها وجسدها ولا يصل بهما إلى حداثها ..
ثم إنى أعفيتك من شراء الحلى التى أعتمد عليها في تزيين هذا الثوب .. كنت

أستطيع أن أصر على شراء عقد أو سوار أو خاتم حتى لو كان فالصو .. فإن
صديقتك من الرجال الذين لا يفهمون في البترول ولا في المجوهرات برغم أنهم
يلكون بترول العالم ومجوهراته ، ولن يستطيع أن يميز بين الفالصو والحر ..
وقد اكتفيت بالحلى التى أملكها فعلاً ودفع ثمنها رجل غريك .. كل هذا لأوفر
عليك ، لأنى أعلم أنك لا تزال في بداية الطريق ولم تصل بعد إلى المليون الأول ..

المهم كيف ستقدمنى إلى صيفك ؟

وقال في سذاجة :

- ماذا تقصدين ؟

قالت كأنها ضاقت بغياحه :

- أقصد ماذا سأكون بالنسبة لك عندما نلقاه ؟

قال في زهق :

- كأنك تتصورين أننا في طريقنا إلى حفل دبلوماسى .. إنى لست
في حاجة إلى تقديمك .. إنه سيفهم كل شىء بمجرد أن يراك معى ..

وقالت كأنها تبصق في وجهه :

- أنت عبيط .. لم أكن أتصور أنك جاهل بكل شىء وإلى هذا الحد ..
إنى مضطرة أن ألقى عليك درساً آخر .. أرجوك استمع لى بانتباه فهو درس مهم ..
إن هناك أكثر من صورة نستطيع أن نبدو بها أنا وأنت .. فإذا كانت العملية
صغيرة تافهة أو كانت مجرد لقاء للدردشة فستطيع أن أقدمنى كصديقة ..
مجرد صديقة عابرة .. وهذا يعطى لصيفك الحق في أن يغازلنى من اللحظة الأولى
ويستأذنى أن يأخذنى منك .. وإن كانت العملية أكبر قليلاً .. أى صفقة
صغيرة .. فإنك أقدمنى في هذه الحالة على أنى صديقتك الخاصة أى عشيقتك ..

وتتظاهر بأنك في حالة حب معي . . هذا من شأنه أن يرفع ثمنى ويجعل صديقك يدفع أكثر لأني سأبدو أمامه امرأة أصعب في الوصول إليها . . أما إذا كانت العملية أكبر من ذلك واقتربت من ربع المليون دولار مثلاً فإنك تقدمني إلى صديقك على أني أختك أو ابنة خالك ، لأني أنقلب في هذه الحالة في خيال الضيف إلى امرأة شريفة لا تخرج من البيت إلا في حماية عائلية أو كما يقولون في حماية محرم . . وبذلك يصبح الثمن أكبر ويصبح التأثير على صيفك حتى يتم العملية أسهل على . . أما إذا كانت العملية تصل إلى المليون دولار كالعلمية التي تقوم بها اليوم فإن الطريق الصحيح هو أن تقدمني إليه على أني زوجتك . . وقاطعها صارخاً :

- هل جنت . . هل تتصورين أن يصل في الأمر إلى هذا الحد . . أن تكوني زوجتي . . والله ولا مائة مليون دولار . .

وقالت في هدوء :

- أزوجك . . استمع في هدوء ، إني لا أطلب منك شيئاً ولكني ألقى عليك درساً في مهنة رجال الأعمال . . إني عندما أكون زوجتك فإن الطرف الآخر يعتبرني جزءاً من الصفقة . . أي إذا كانت العملية تساوي مليوناً ونصف مليون دولار فهو مستعد أن يوقعها بليون فقط والباقي لزوجتك . . أي أنا . . إن الزوجة لها طعم آخر وقيمة أخرى لمجرد أنها زوجة . . ولكننا في هذه الحالة في حاجة إلى عدة إجراءات مكتملة . . فيجب مثلاً أن ندعو معنا إحدى صديقاتي حتى تبدو كأننا أرباب وأنك لم تأخذني إليه وإنما معنا امرأة أخرى لتجالسه وتهتم به . . ولا تخش شيئاً فإني مع وجود هذه المرأة الأخرى سأكون أكثر إغراء لصاحبتنا وسيضطر أن يبذل مجهوداً أكبر حتى يصل إلى ويرتفع ثمنى أكبر وأكبر . . وفي هذه الحالة

فإني يجب أن أضع على كتنى معطف فيزون حتى أبدو كأني فعلاً زوجتك . . لا تخش شيئاً . . لن تدفع ثمن الفيزون . . ولكننا . . سنستأجره . . إن لي صديقة تزجر معطفها الفيزون كما تزجر شقتها المفروشة . . وقال ساخراً :

- وطبعاً . . بما أنني قدمتك كزوجتي فإني مضطر بعد ذلك أن أتزوجك فعلاً حتى لا ينكشف أمرى أمام الرجل الذي يمكن أن يستمر تعامله مع سنوات . . هذا ما تسعين إليه . . هذا أبعد من كل أحلامك . . وقالت في تأفف :

- إنك رخيص . . إنك أغني من أن تفهم . . لماذا أتزوجك فعلاً . . ما مصلحتي . . لقد اشتركت في عملية منذ سنتين وكان صاحبها يقدمني في مجتمع الأعمال على أني زوجته . . وكان فعلاً رجلاً ممتازاً رائعاً . . واستطاع وهو معي أن يحقق ثلاث صفقات ضخمة ، وكان دائماً يعترف بفضلتي ويعطيني حق ، وبعد الصفقة الثالثة طلب مني أن يتزوجني فعلاً . . قال لي إن المجتمع العالمي أصبح يظن أننا أزواج فلنحقق ظن العالم . . ولكنني رفضت . . لماذا . . لأني أفضل الأعمال الحرة على الوظيفة وإذا تزوجته فإني سأصبح أقرب إلى موظفة عنده . . ثم إننا تعودنا على أن نكون معاً بلا زواج وربما بعد أن نتزوج يزهق ويضيق أحدنا بالآخر . . بل إنه بعد الصفقة الثالثة بدا كأنه أصبح أقل حاجة إلى ذلك تركته . . أصبحنا مجرد أصدقاء . . وعندما يسأله أحد عني فيجب بما يفهم منه أننا انفصلنا بالطلاق . . ولكنه كان نوعاً آخر من رجال الأعمال غيرك . . كانت كل أعماله في الخارج . . وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باريس أو نيويورك . . ومجتمع الخارج أكثر حرية وكان من السهل علينا أن ندعي أننا

زوج وزوجة . . أما أنت . . إنك لا تزال رجل أعمال محلياً والأعمال المحلية
تبقى دائماً في مستوى تافه ضئيل . .

ونظر إليها كأنه تلميذ بليد وقال في تردد :

— وكيف تريدني أن أقدمك إليه . .

وقالت في زهق :

— لقد شرحت لك كل أساليب العمل . . وعليك أن تختار الأسلوب

الذي تقتنع به . .

وصمت طويلاً وهو يفكر ثم قال :

— اسمع . . لن أقدمك إليه بأى صفة . . لا زوجتى ولا عشيقتى . .

ونتركة يفهم ما يريد . . ولكننا سنصحب صديقك معنا ونتركة يفهم أنها

له وأنك لى . .

وابتسمت قائلة :

— بدأت تثبت أنك لست غيباً كما تصورتك . .

° ° °

وبعد أن انتهت السهرة قالت له وهى بجانبه فى السيارة عائداً بها إلى بيتها :

— طلب منى أن أحادثه فى التليفون . .

وقال فى دهشة :

— منى طلب منك . . لم أسمع شيئاً . .

قالت ضاحكة :

— إنك عندما تأكل لا تسمع . . بطنك أقوى من رأسك . . وتصور . .

إنه لم يطلب من صديقتى أى موعد . . اسمع . . إن حديثى معه فى التليفون

قد يستمر ثلاثة أو أربعة أيام . . وبعدها سأطلب منه استئجار شقة لأنى لا أستطيع
أن أقابله فى جناحه بالفندق . . ولن أقابله وأعطيه شيئاً إلا قبل أسبوعين وفى خلال
الأسبوعين يجب أن تكون قد انتهت من الصفقة . . هناك خوف على الصفقة
له أعطيته نفسى قبل أن تم يجب أن يدفع مقدماً . . ويجب أن تدعوه معنا كل
ليلة أو نتركة يدعونا وستكون صديقتى معنا دائماً . .

وقال :

— كيف ندعو صديقك وأنت تقولين إنها لم تعجبه ؟

وقالت :

— لا تكن غيباً . . اترك هذا الموضوع لى . . سأقول له إنى أتعهد دعوة

صديقتى لأنى أعرف أنها لا تعجبه فلا أغار منها عليه . . هذا يجعله أكثر سعادة

وأشدّ انجذاباً . .

° ° °

وبعد أيام اتصل بها فى التليفون وهو يصبح مهللاً فى فرح :

— تمت الصفقة . . وقعنا العقد . .

وقامت فى برود كأنها انتهت من عملية عادية :

— مبروك . . وسألقاه غداً فى الشقة التى استأجرها . .

قال كأنه يزغرد :

— سأفلك الليلة وحدنا وسنقيم احتفالاً خاصاً بالنجاح . .

وقالت :

— لا . . الليلة سأسهر مع صديقتى ميمى . . إنها ثائرة على وأنت تعرف

ميمى . . إذا ثارت فربما يستر . . اذهب أنت إليه وحده . . لا يصح أن

تهمله بعد توقيع العقد . . وقل له إني في زيارة أُمي لأنها مريضة وسأكون قد حدثته بالتليفون . .

° ° °

وكان جالساً في الصباح يملأ عينيه بصفحة كاملة من الجريدة اليومية ، تحمل إعلاناً عن العقد الذي وقعه باستيراد سيارات النقل . . وصورته وهو يوقع العقد وبجانبه الضيف الكبير ومعه المسئولون من كبار الموظفين . . وكلهم يتسمون . . لقد وصل . .

حقق المليون الأول . .

عقبال المليون الثاني . .

وأخذ يقلب في صفحات الجريدة وكل نبضاته تخفق بالسعادة . . وفجأة اتسعت عيناه في دهشة . . إنها هي . . صورتها . . وهذه صورة صديقها . . ثم هذه صورة السيدة ميمى . . إن بوليس الآداب هاجم منزل ميمى وقبض على من فيه من النساء

وطوى الصفحة بسرعة كأنه يدارى فضيحة . . وهمس كأنه يواسى نفسه :

- البلد لم يعد فيها أخلاق ولا حياء . .

❖ تائه بين السماء والأرض ❖

كلمة

هذه قصة أخرى من قصص الأدب السينائي ، وقد سبق أن طالبت بأن نعرف بأدب السينما كما اعترفنا بأدب المسرح ، وكتبت أكثر من تفسير وتحليل لهذا اللون من الأدب . .

وقد حدث أن اتصل بي الأستاذ عبد الحليم حافظ باحثاً عن قصة ينتجها سينائياً ويمثلها . . وقلت له :

- لماذا لا نستلهم قصة حياتك ؟

وبدأت أكتب من وحي قصة حياة عبد الحليم حافظ دون أن أكون مؤرخاً له ، إنما أطلقت لخيالي حرية تصور الحياة التي اختارها عبد الحليم ، وعلى قدر ما ابتعدت عن الواقع فقد تأثرت به حتى أني جعلت البطل يغني باللغة الإنجليزية والفرنسية معبراً بذلك عن العقدة التي يعانى منها كل الفنانين والتي يمكن أن تسمى عقدة « عمر الشريف » فكل منهم يريد أن يكون عالمياً ويمثل أو يغني باللغة الأجنبية كعمر الشريف . .

وكما سبق أن كتبت فإن الأدب السينائي يبدأ بقصة ثم تتحول القصة إلى سيناريو ثم يتحول السيناريو إلى حركة ، وهو في الأصل عمل جماعي يعتمد على مجموعة أشخاص تبدأ بالمنتج صاحب رأس المال ثم المخرج والمصور والممثل ، والممثلة . . و . . وكل هذا بعكس الأدب المجرد أو الأدب المقروء الذي يتم في مرحلة واحدة ويعتمد على الكاتب وحده . .

لذلك فهذه القصة السينائية التي يقرأها القارئ لن تكون أبداً هي نفس الفيلم الذي يشاهده المتفرج ، وذلك نتيجة اختلاف العمل الفردي عن العمل الجماعي . .

كل ما في كان مركزاً على صلاح .. وكان صلاح يغنى كمادته وكأنه يغنى لكل واحد من هذه المئات المتجمعة من أمامه .. فيحرك عينيه ويديه وطبقات صوته .. ويحرك نفسه كأنه يريد أن يصل بنفسه إلى آخر فرد يجلس في آخر صف من الصالة العريضة .. إنه ينسى وهو يغنى .. ينسى كل شيء .. إلا مسؤوليته عن فنه .. ينسى مسؤوليته عن نفسه ..



واستدار صلاح مواجهاً الفرقة الموسيقية وظهرو للجمهور .. إن صلاح يستدير أحياناً ويتولى بنفسه قيادة الفرقة خلال الفقرة الموسيقية .. ولكنه غالباً ما يستدير لينتقط أنفاسه وظهرو للجمهور .. إنه إنسان عادي من حقه أن يريح أنفاسه ويبعد التقاطها ويريح ابتسامته ، ويريح نظرات عينيه من الأضواء المطلقة عليها ومن افتعال القوة والجمال والأمل الذي يبدو دائماً في الصور الفوتوغرافية التي تلتقطه .. أو هو واقف أمام الجمهور الذي يغنى له ..

وأنا جالس في الصف الأول من الفرقة الموسيقية ، وعندما يستدير صلاح يواجهني مباشرة .. وجلسني في منتصف الصف الأول ليست فقط لأن هذا هو المكان الطبيعي الذي يتطلبه التوزيع الموسيقي لآلة الناي ، ولكن أيضاً لأنني أصر على أن أكون دائماً بجانب صلاح .. وتطلعت بكل عيني في وجه صلاح .. لا أحد يستطيع أن يرى في وجه صلاح ما أستطيع أن أراه أنا .. وهمست إليه همسة أقرب إلى الأمر :
- اشرب قليلاً من الماء ..

ومددت يدي تحت مقعدي حيث أتعمد دائماً أن أحفظ بكوب من الماء .. ولكن صلاح ابتعد عني بسرعة واتجه إلى ناحية بعيدة من الفرقة حيث الجيتار

كنت جالساً على مقعدي بين أعضاء الفرقة الموسيقية والناي بين أصابعي وقد أسندته فوق ركبتي وكل عيني مركّزان على صلاح وهو يغنى .. لم أكن أنطلع إلى الجمهور الكبير الذي يستمع ، رغم أنه جمهور يضم كل الشخصيات الكبيرة في البلد .. ونحن الموسيقيين .. نتبادل مع الجمهور نفس درجة الاهتمام أثناء الحفلات الغنائية .. الجمهور ينظر إلينا نظرة سريعة ثم يركز اهتمامه على المطرب .. ونحن أيضاً ننظر إلى الجمهور نظرة سريعة ثم نركز كل اهتمامنا على المطرب من فوق آلاتنا الموسيقية .. إلا إذا قام واحد منا ليعزف « سولو » بمفرده .. فنركز نحن والجمهور اهتمامنا عليه .. ولم أكن أيضاً أركز اهتمامي على الناي الذي أحمله بين أصابعي .. إن هذا الناي .. عود البوص الهزيل المتواضع .. هو كل حياتي .. ورغم ذلك ففي هذه الليلة لم يأخذ من اهتمامي كثيراً .. فالفترات التي سأشارك فيها بالناي خلال اللحن .. متباعدة .. وحفظها غيباً إلى حد أن أذني أصبحتا تستطيعان أن ترفعا يدي بالناي إلى شفتي بمجرد أن يأتي دوره .. دون أن أحتاج إلى تركيز ذهني عليه .. وحتى الفقرات التي وضعت لأعزفها « سولو » كانت متمكنة مني إلى حد أنني أقف من تلقاء نفسي وأعزف دون أن أحتاج إلى التركيز على الترتيب والانتظار ..

والأورج وأخذ يقودهما بتأثيرات ذراعيه . . لعله لم يسمع همسنى . . أو الأرجح أنه سمعها وهرب منها .

وعاد صلاح يواجه الجمهور وعلى شفثيه الابتسامة الواسعة وفى عينيه بريق القوة والجمال والأمل .

وانتهى صلاح الفقرة التالية من الأغنية وعاد يدير ظهوره للجمهور ويواجه الفرقة الموسيقية ، أى يواجهنى . . وجهه يملأ عني . . وذعرت . . استولى على نوع من الخوف أقرب إلى الفرع ، إن ما أراه لا يستطيع أحد آخر أن يراه حتى من بين أفراد الفرقة . . وقلت وأنا لا أتعمد الهمس ولكنى أكنم الصراخ . .

— لا تكرر الكوبليه . . ادخل فى الكوبليه الثانى وبسرعة . . اختم بسرعة . .

وكان مفروضاً فى هذه الفقرة أن أقف لأعزف على الناي سولو . . وكنت قد تعودت أن أطيل عزف هذه الفقرة . . وأن أكررها بناء على طلب وإلحاح الجماهير . . ولكنى فى هذه الليلة وقفت وأديت الفقرة كأنى تلميذ بليد يحفظ دروسه صم دون أن يفهمها . . وانتهتها بسرعة وجلست ، وقد تعجب الجمهور إلى حد أنه لم يلبح على طويلا كعادته فى إعادة الفقرة ، والتصفيق لى تصفيق بارد . .

وعاد صلاح إلى الجمهور وحاول أن يبدأ الكوبليه التالى . . ولكن الجمهور اشتد صراخه وتصفيقه مطالباً بالعودة إلى الكوبليه السابق من الأغنية . . وإذا بصلاح يستسلم للجمهور . . للناس . . الناس الذين لا يستطيعون أن يروا فى خطوط وجهه ما أراه أنا . . ويشير صلاح إلى الفرقة الموسيقية ويبدأ فى إعادة غناء الكوبليه السابق . .

وعندما استدار إلى الفرقة الموسيقية بعد الانتهاء من الكوبليه وواجهنى . . مد يده إلىّ وهو لا يزال محتفظاً بابتسامته رغم أنها أصبحت ابتسامة ضعيفة لأن ظهروه للجمهور . . وفهمت أنه يريد كوب الماء . . ولكنى ما كدت أمد يدى إلى تحت المقعد حتى ابتعد صلاح عني . . لقد غير رأيه . . لن يشرب جرعة الماء . . وابتعد عني إلى الناحية الأخرى من الفرقة . . وانتهت الأغنية . . إن الفقرة الأخيرة أيضاً كررها صلاح ثلاث مرات . . . والتصفيق . .

وأسدلت الستار وفتحت الستار أكثر من مرة ليرد على تحية الجمهور . . ووقف صلاح أمامنا وقد أسدلت الستار لآخر مرة . . وبين شفثيه ابتسامة ضعيفة . . يقاوم كثيراً ليحتفظ بها كأنه يهديها لنا . . وجفناه يتأرجحان فوق عينيه . . وهو يميل إلى وقفته كأنه يبحث عن شيء يستند عليه ، ثم مرة واحدة سقط . . سقط على الأرض . .

وانطلقت دماؤه ثقيلة غامقة تسيل من بين شفثيه . . وركعت بجانيه . . لم أبلك . . ولم أكن أنتظر دموعى . . فإنى كنت أعرف أن كل هذا ممكن أن يحدث . . وكنا كلنا نعرف تعليقات صلاح فى مثل هذه الحالة . . الصمت . . لا أحد يتكلم . . لا يجب أن يعرف غريب وخصوصاً من الصحفيين ما حدث . . وتلكاً أعضاء الفرقة الموسيقية . . إلى أن دخل يس سكرتير صلاح ومعه الطبيب الذى يصاحب صلاح دائماً . . وأعطاه حقنة فى فخذيه أوقفت التزيف بسرعة . . ثم استطاع أن يقوم واقفاً واستند علىّ حتى أوصلناه إلى حجرة داخل المسرح ، وتركناه للطبيب . . وأفراد كثيرون من

الجمهور دخلوا إلى صالة المسرح يريدون أن يروا صلاح . . وكنا نعتذر لهم بأنه يستريح ويترك للذكاء الضاحكة أن تنطلق :

ومرت ساعة . .

وخرج صلاح من الغرفة ومعه الطبيب الذى لا يعلم أحد أنه طبيب . . وكان الجمهور قد خف من طول الانتظار . . ورغم ذلك فقد خرج صلاح وكأنه على استعداد ليواجه جمهوره كله بابتسامة تملأ وجهه . . وخطواته مرحة . . ونظراته تحمل القوة والجمال والأمل . .

وركب سيارته . . وصمم أن يسوقها بنفسه . . وحاول الطبيب أن يقنعه بأن يعدل عن السواعة :

- دعنى أسوق أنا يا صلاح . . طول عمري وأنا أتمنى قيادة هذه السيارة . . إنها سيارة متعة مثلك وأنا متخصص فى المتعنين . .

ولكن صلاح صمم أن يقود السيارة بنفسه . . ويشير للجمهور الواقف محييا بذراعه . . ونحن معه صامتون إلى أن وصلنا إلى البيت . .

وما كاد يرى فراشه حتى انهار . .

إنه هنا فقط يعترف بما هو فيه . .

وأنا واقف أرى استسلامه الكامل لقدرة . . ودمعتان ضعيفتان تنزلقان من عينيه كأنهما تواسيانه فى آلامه . .

وكانت فاطمة قد سبقتنا إلى البيت . .

إن فاطمة مثلى . . إنها تستطيع أن بما سيحدث لصلاح قبل أن يحدث . .

إنها تحس به دون أن تحتاج إلى أن ترى خطوط وجهه . . إنها تعتمد على هاتف إحساسها ، هاتف الحب . . إنها تحب إلى حد إنها ترى داخله حتى وهى

بعيدة عنه . . وهى دائماً بعيدة . . إن صلاح لا يريد لها أبداً أن توجد بين الناس فى حفلاته . . يريد أن يحتفظ بها فوق الناس . . يريد لها وحده . . أناية الفنان . . والطبيب يلم صلاح كله بين ذراعيه . . وأنواع متعددة من الدواء . . الإبر . . والحجوب . . وما يذوب . . وما لا يذوب . . ثم انتهى بعد وقت طويل . . وهو يقول له فى حدة . . كأنه يهيم أن يصفه :

- قلت لك إنه كان يجب أن تؤجل حفل هذه الليلة . . ولكنك لم تسمع الكلام . . اسمع . . أمامك ثلاثة أسابيع ترقدوها فى الفراش . . سامع . . ثلاثة أسابيع . . بلا حركة وإذا تحركت فلن أكون مسئولاً عنك بعد اليوم . . وأمرنا الطبيب أن نخرج كلنا من الغرفة حتى فاطمة بعد أن أعطى صلاح دواء مثوماً لينام رغم أنه . .

وعدت إلى بيتي وكل ما فى رأسى هو هذه الأسابيع الثلاثة التى فرض على صلاح أن يقضيها راقداً فى فراشه . . إني أعلم أن صلاح مرتبط بأكثر من حفلة خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، أقرها حفلة زفاف ابنة رئيس الوزراء بعد يومين . . ولكن لا شك أنه سيعتذر . . إنه لا يستطيع أن يعرض نفسه لما حدث له . . لقد كان ما حدث هو أول مرة يصاب فيها صلاح بأزمته وهو فوق خشبة المسرح . . لقد كان يصاب بها قبل الحفل بأيام أو بعد الحفل بأيام . . أما أن يصاب بها وهو على المسرح . . فهذه هى المرة الأولى . . ولعلها تكون درساً له . . فإني أعلم أن أكثر ما يكرهه هو أن يبدو أمام الناس مريضاً . . ولن يعرض نفسه لمرضه مرة أخرى وهو أمام الناس . .

واعتذر صلاح فعلاً عن حفل زفاف ابنة رئيس الوزراء . .

إلى أن صدمت . .

كان قد مر أسبوع واحد على قرار الطبيب . . . وكان صلاح قد بدأ يبدو أحسن حالا ، وكان مطيعاً فعلاً لكل التعليمات . . . لا يتحرك من فراشه ويسأل نفسه عن الدواء . . . مرتاحاً هادئاً . . .

كان أحياناً عندما أكون معه يكلفني عيهاً تافهة . . . حتى كان يخيل إلى أنه يعتمد أن يبعدني عنه . . . وكان يفعل نفس الشيء مع فاطمة . . . ومع أصدقائه . . . إلى أن كان صباح يوم الخميس . . .

وذهبت إليه في الساعة الواحدة بعد الظهر كعادتي . . . إنه ليس في البيت . . . وفاطمة جالسة تبكي . . . إنها لا تعرف أين هو ؟

ولأحد في البيت يعرف . لقد خرج كأنه هرب . . . لم يره أحد وهو يخرج . . . وكنت أنا أعرف . . . واكتشفت أنه خلال وقاده في فراشه كان يتخلص مني أنا وفاطمة ليتحدث في التليفون . . . وليس هناك إلا جهة واحدة يهيم أن يتحدث معها في التليفون ، الجهة التي يحتاج إليها . . .

وذهبت إلى نادى الفرقة الموسيقية . . . ورأيت أمامي واقفاً بين أفراد الفرقة الموسيقية يجرى بروفات على أغاني الحفلة التي كان مقرراً أن يقيمها الليلة لصالح مشروع بيت الطلبة . . .

وابتسمت في يأس . . . لا أمل . . . وفتحت حقيبتي . . . وأخرجت أعواد الناي . . . وأخذت مكانى بين أفراد الفرقة . . . ولم يقل لي صلاح شيئاً كأنه لم يفعل شيئاً . . . إنها قصة طويلة . . .

قصة بدأت منذ كنا أطفالاً . . .

• • •



. . . لقد ولدت مع صلاح في قرية واحدة . . . كفر ممونة . . . وأنا أكبر من صلاح بأربع سنوات ولكنه منذ كنا في عمر الصبا وهو يحاول أن يفرض شخصيته على كل أولاد القرية . . . ربما لم يكن يحاول . . . ولكن حيويته التي لا تنهدأ ، وشقاوته الجريئة التي كانت تثير الغيظ أحياناً والضحك أحياناً . . . كانت تدفع كل أولاد القرية إلى التجمع حوله ، أحياناً لمشاركته اللعب وأحياناً للانتقام منه بعد أن يكون قد لعب لعبة بايخة . . . وأنا شخصياً كنت أحس بارتباطي بصلاح دائماً . . . كنت أحب شقاوته . . . وأحب جنونه وجرأته . . . وأحب ذكائه . . . وداثماً معه نلعب الكرة الشراب أو تنسلل إلى حقول الذرة لنسرق ونأكل أو تنسلل إلى الجاموس والبقرة المنتشر بين الحقول بعيداً عن أصحابه لنتمسك اللبن بشفاهنا من ألدائها . . .

وكان أكثر ما يهواه صلاح بعد أن كبرنا قليلاً هو العوم . . . العوم في التربة . . . والعوم في القناة . . . وأحياناً لا يعوم ولكنه يلقي بنفسه في قناة صغيرة بعد أن يخلع ثيابه وينام في الماء وكنا نعلم أن هناك شيئاً اسمه بلهارسيا . . . كل أهل القرية يعرفون البلهارسيا . . . ويعرفون أن سمومها ترقد في مياه الترع والقنوات . . . ورغم ذلك فكل أهل القرية يعيشون في مياه الترع والقنوات . . . وأنا مع صلاح دائماً في الترع وفي القنوات . . . مع البلهارسيا . . .

ولم يكن كل ذلك هو أقوى ما جمعتي بصلاح . . .
كان هناك ما هو أقوى . . .

كان والد صلاح الحاج عبد الله مرعى معروفاً في القرية بأنه يهوى الأصوات الجميلة . . ولم يكن يغنى . . كان شخصية محترمة في القرية يمتلك عشرة أفدنة . . وأحياناً يستأجر عشرين فدناً عندما يكون على وفاق مع ناظر عزبة الباشا . . وربما لهذا واحتفاظاً باحترامه بين أهل القرية لم يكن يغنى . . إنما كانت كلما مزت بالقرية فرقة من الفرق الفنية الجواله تضم مطرباً يدعوهما الحاج عبد الله إلى دواره ويقم ليلة يستمع فيها إلى هذا المطرب . . وكان أهل القرية - كلهم - يجتمعون وهم في انتظار حكم الحاج عبد الله على هذا المطرب . . فإذا استمع منه إلى موال أو أغنية واعتذر بعدها في أدب واتجه إلى داخل الدوار وترك المطرب إلى أهل القرية عرفوا أنه مطرب لا يستحق ولا يساوي آذان الحاج عبد الله . . أما إذا أتى الحاج عبد الله إلى نهاية السهرة فمعنى هذا أن المطرب يستحق . .

ولكن أعجوبة الحاج عبد الله في أنه يتولى بنفسه أداء آذان الفجر . . في كل فجر تصحو القرية كلها على صوت الحاج عبد الله يؤذن للصلاة . . وكان صوته أعجوبة . . إنه لا يؤذن كمجرد أداء واجب ديني ، فهو ليس مؤذناً ولا إماماً للمسجد . . ولكنه فتان . . إنه مطرب . . إنه صوت غال نادر . . ولو أنه استطاع أن يحرر نفسه من شخصية المزارع وتقاليده مجتمع القرية لاستطاع أن يحترف الغناء ويصبح مطرباً مشهوراً في مصر كلها . . ولكنه كان مصمماً على أن يحتفظ بشخصيته في القرية وبكل التقاليد القديمة المفروضة على هذه الشخصية . . وربما كان يغنى أغاني عادية بينه وبين نفسه . . ولكن لا أحد يسمعه ولا أحد سمعه إلا وهو يؤذن آذان الفجر كأنه قرر أن لا يعطى فنه إلا الله حتى لو حرم منه الناس . . وفي مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله

أن يلقي أذاناً آخر . . وكان عندما تكون هناك مناسبة مفرحة . . كنتجاح محصول القطن ، أو انفراج أزمة . . يقبل أن يلقي آذان العشاء بجانب آذان الفجر . . مرة واحدة في عمره كله ألقى آذان الصلوات الخمس . . ألقاها كما لم يسمعها مسلم من قبل . . ألقاها ودموعه بين عينيه . . وكان هذا يوم توفيت أم صلاح . .

وكان صلاح عندما نكون معاً وحدنا يقف ويقلد والده في الأذان . . وكنت أيامها أضحك عليه وأقول له إن صوته أشبه بصوت صراصير الليل بجانب صوت أبيه . . ولكن صلاح كان يبدو متمتعاً منفعلًا فعلا وهو يقلد أباه . . وكان يقلده دائماً في الخفاء خوفاً من أن يصل الخبر إلى أبيه فيفسره بأن ابنه يستهزئ به . . ومع السنوات بدأ صلاح لا يكتفي في خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين ويردد مواويل وأغاني الريف ، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه في جلساتنا مع أولاد القرية أثناء الليل . . وبدأنا نحبه وهو يغنى . . لم يخطر على بالنا أيامها أن نقدره كفتان . . ولكننا كنا نتركه يغنى أن نطلب منه أن يغنى . . لنغنى معه . . وغالباً ما يرتفع صوته على صوته . .

ولم يجرؤ صلاح أبداً على أن يغنى أمام أبيه أو أن يعترف أمامه بأنه يحب أن يغنى . . رغم أنه قطعاً ورث صوته وورث كل فنه عن أبيه ، ربما لأن تقاليد القرية كانت تجعل من الفنانين والمطربين مجموعة أقرب إلى الشحاذين ، وهي التقاليد التي حرمت على والد صلاح نفسه أن يغنى وأجبرته على الاكتفاء بأداء آذان الفجر ، وهي نفسها التقاليد التي كانت تجعله يتمنى أن يكون ابنه أي شيء إلا أن يكون مطرباً . . وربما كان كبقية آباء الريف يصل غاية ما يتمناه لابنه أن يكون ضابط بوليس لأهمية وقوة ضباط البوليس بين قرى الريف . . وأنا . . أنا ليس في عائلتي أي تراث ولا أي ظاهرة موسيقية . . ولكني وجدت

نفسى منذ صباى أمد يدى إلى أعواد البوص وأحاول أن أنفخ فيها أنفاسى لتصبح
نعما . ثم بدأت أقلد الذين يصحبون الفرق الريفية من عازقى الأرغول والنأى .
أبجلق فى أصابعهم وهى تتحرك فوق ثقبوب عود البوص بل إن أول نأى حاولت
أن أعزف عليه صنعتته يبدى تقليدا لما كنت أراه فى أيدي العازفين . ورغم
ذلك فلولا ارتباطى بصلاح منذ صباى لما أصبحت الآن عازقا محترما للنأى .
إلى أن دخلنا المدرسة الابتدائية .

وانقلنا . . صلاح وأنا . . لتقيم فى المركز ، ورغم أنى أكبر منه سنأ فقد كنا
معا فى سنة دراسية واحدة . . ربما لأنى أصلا لم أكن من هواة دخول المدارس . .
كان حلم صباى أن أزرع وأجلس على حافة الساقية أعزف النأى وصلاح يغنى
لى . .

وفى المركز انطلقت هويتنا . . وانطلق بنا الفن إلى آخره . .

كان صلاح يغنى ليل نهار ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، وأنا أعزف النأى كلما
استطاعت أصابعى أن تصل إلى ثقبوبه . . بل إننا ، صلاح وأنا ، بدأنا نحاول
أن نعزف ونغنى أى شئ نصل إليه . . صلاح حاول أن يغنى باليونانى تقليداً
ليقال جريكى كنا نتردد عليه ، وحاول أن يعزف الأكورديون والبيانو ، والكمان ،
والأرغول . . و . . و . .

كل ذلك دون أن يخطر على بال أحدنا أنه يرسم لنفسه مستقبلا فنياً . .

وأذكر أننا كنا فى زحام مولد سيدى البرانى ، وانفصلنا مع بقية الطلبة إلى
مكان بعيد وبدأ صلاح يغنى والطلبة تصفق وأنا أعزف النأى . . وكلنا نضحك . .
ونقطع الأغانى لتبادل الشتائم التى كنا نعتبرها نكات . . وتجمع بعض الناس
حولنا يستمعون . . إلى صلاح ويغنون معنا . . ويضحكون معنا . . وكان من

بين من تجمع طالبات المدرسة الابتدائية للبنات ، كن متباعدات فى خجل
يتضحكن الضحكات الخجولة المثيرة . . وغنى صلاح إحدى الأغانى الريفية
المعروفة وإذا بصوت يبدو من بين الطالبات يغنى معه . . صوت خجول . .
يغنى كلمتين ويسكت . . ثم يعود يغنى . . ولكن الطالبات ابتدأن فى
الإلحاح على الفتاة أن تغنى مع صلاح . . كأن البنات قررن أن يتحدثن فى الفن
الأولاد . .

ونحن أيضاً بدأنا نلح عليها أن ترفع صوتها لنسمعه . .

وغنت الفتاة . .

بل اشتركت مع صلاح فى أغنية واحدة كانت أيامها أغنية شعبية معروفة
كل منهما يرد على الآخر بقطع منها . .

وكانت هذه الفتاة هى فاطمة . .

ولم نعرفها يومها . .

وسأل صلاح بعدها عنها كثيراً . . ربما كانت ابنة موظف من موظفى المركز
أو ابنة مزارع أو ابنة المأمور . .

بل إن صلاح بدأ يذهب ويقف أمام مدرسة البنات بحثاً عن هذه الفتاة
التى لم تكن تعرف أن اسمها فاطمة . .

ولكن صلاح لم يعثر عليها أبداً . .

وفى هذا العام . . ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية . . توفى الحاج عبد الله
والد صلاح وفى صباح يوم الوفاة . . ودون أن يبلغ صلاح أحداً ، أو يستأذن
خاله الذى أصبح مسئولاً عن العائلة . . أو أخاه الأكبر . . وحتى دون أن يقول

لى . . صعد فى الفجر إلى مئذنة جامع الكفر . . وأذن للصلاة . . كما كانت عادة أبيه . . كأنه يريد أن يقول لأهل القرية إن أباه لم يمُت ، أو كأنه يريد أن يعلن أنه يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه أبوه ، أو كأنه كان يريد أن يرسل تحية لأبيه فى قبره . . وذهل أهل القرية وهم يستمعون إلى صلاح وهو يؤدى الأذان . . واعترفوا لأول مرة أنه ورث عن أبيه صوتاً أقوى وأحلى وأداء لم تسمعه القرية من قبل . . وبدأوا يلتفون حوله فى ليالى المأتم . . ويطلبونه بأن يقرأ القرآن . . أو أن يعود ويؤذن لبقية الصلوات . . ولكن صلاح كان يرفض . . إلى أن عدنا إلى المركز . . إلى المدرسة . .

وبدأ صلاح يبدو فى شخصية جديدة . . لقد كان والده هو الشخصية الوحيدة التى تقيده . . ويحسب حسابها . . ويخفى عنها حقيقة ميوله ومطعم أحلامه . . وقد تحرر بعد وفاة والده . . وأصبح يجاهر بفنه المتمكن منه ، ويركز كل ذكائه وكل جرائه وأحياناً كل جنونه على ممارسة هوايته . .

ولكنه لم يكد يبدأ فى انطلاقه حتى أصيب بالضربة الأولى . .

البلهارسيا . .

والبلهارسيا كانت قد أصبحت فى الريف مرضاً عادياً كالزكام أو الصداع . . ولكن صلاح لم يكن ينتظرها . . لم يعتبر نفسه مشغولاً عنها رغم السنوات الطويلة التى قضاها فى مياه الترع والقنوات وهو يعلم أنها مياه مسمومة بالبلهارسيا . . لقد كان غروره بنفسه يرفض أن يدعه يعترف بأنه السبب فى أى مصيبة تحدث له . . لذلك مرت شهور وصلاح منزو ، منهار ، ساخط على كل شيء ، يعالج نفسه من البلهارسيا . . وشفى . .

لا . . إني بعد سنوات طويلة أصبحت مقتنعا بأنه لم يشف . . وأن اندفاعه نحو هوايته الفنية أيامها جعلته يتسرع ويهمل فى علاج نفسه ، وبمجرد أن انقطع الدم الذى كانت تنزفه البلهارسيا اعتبر نفسه وكأنه شفى تماماً ولم يعد فى حاجة إلى طبيب ولا إلى علاج . .

وكان الانطلاق الذى اندفع فيه صلاح بعد وفاة والده يجعله لا يكتفى بالاشتراك فى الفرقة الموسيقية التى تجمع بين هواة من طلبة المدرسة ، والتى أصبح بها مطرب المدرسة ، ولا يكتفى بالغناء بين أصدقائه بل أصبح يبحث عن المناسبات التى يستطيع أن يغنى فيها . . ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى شيء إلا إشباع هوايته . . لم يكن بين الناس أكثر من طالب يستطيع أن يغنى ويستطيع أن يلعب بكثير من الآلات الموسيقية . . مجرد لعب . . ودائماً كان يسأل عن فاطمة . .

ولم يعلم عنها شيئاً أبداً . . حتى من صديقاتها اللاتي كن معها يوم رآها . . ربما كانت أيامها مجرد زائرة لإحدى عائلات المركز ، أو ربما جاءت إلى البلدة مع أهلها مصادفة لحضور الاحتفال بالمولد . . إلى أن انتهينا - هو وأنا - من المدرسة الابتدائية . .

وفى فترة الصيف قضينا أيامنا فى القرية نحاول أن نرسم مستقبلنا . . وكان المفروض أن المستقبل كله ينحصر فى التحاقنا بمدرسة دمنهور الثانوية . .

ولكن لا صلاح ولا أنا ، نريد أن ننزع أنفسنا بين حواطم المدارس . . نريد أن ننطلق . . أن نجري . . أن نحجب . . وتركزت كل أحلامنا فى الالتحاق بالمعهد الموسيقى الذى كنا نسمع عنه . . أى أن نهاجر إلى القاهرة . . ولولا أننا كنا مجبرين على أن ندخل المدارس . . أى مدرسة . . لما فكرنا حتى فى الالتحاق

بالمعهد الموسيقى ، ولانطلقنا نغنى ونعزف فى كل البلاد كأتى فرقة من الفرق
الريفية .. إلى هذا الحد كان صلاح يريد أن يمارس فنه ، ويمتج به نفسه قبل
أن يمتج به الناس .. وإلى هذا الحد كنت متأثراً ومقتنعاً بكل ما يخطر على
بال صلاح ..

ولكن لأننا كان يجب أن ندخل مدرسة ، فقد دخلنا المعهد الموسيقى ،
ولم يعارض خال صلاح .. فقد كان كل ما يشغل باله هو نفقات التعليم ..
وربما كان مقتنعاً بأن صلاح ورث عن أبيه ميوله الفنية ، فتركه لجنونه .. وأنا
أيضاً لم يكن بهم عائلتى إلا كم تدفع ..
وذهبنا نعيش فى القاهرة ..



ولم يلتحق صلاح بقسم الأصوات .. ولكنه التحق بقسم الآلات ..
معى .. ربما لأن الدراسة فى قسم الآلات أوسع ، وربما لأنه هو نفسه لم يكن يدرى
حتى هذه الأيام هل يستطيع أن ينجح كمطرب أم يستطيع أن ينجح كعازف ..
أنا شخصياً كنت أتمنى له ما أتمناه لنفسى رغم الفرق الكبير بين قيمة صوته
وصوقى .. كنت أريده أن يكون عازفاً .. لأن امتلاك الآلة الموسيقية أطوع
من امتلاك صوتك .. إن الآلة لا تستطيع أن تخالف أمرك .. ليست معرضة
للمرض .. ولا للضعف ولا للهزال ولا لسرعة التطور .. الآلة إذا أصيبت بخدش
تستطيع أن تلقىها بعيداً وتستبدلها بأخرى جديدة .. ولكن صوتك إذا خدش
لا تستطيع أن تبدله .. والآلة تعيش التاريخ كله ..

البيانو الذى كان يعزف عليه شيللى هو نفسه البيانو الذى تعزف عليه اليوم ..
مهما تطورت الألحان .. ولكن صوت صالح عبد الحى لا يمكن أن يطرب الآن ،
لأن الصوت مرتبط بالقدرة على التجديد ، والتجديد يعتمد على الطبقات
الصوتية .. والطبقات الصوتية هى قدرات فردية لا يستطيع أى فرد أن يصل إلى
ما يشاء من الطبقات ..

وأريد أن أروى كيف كنا نعيش فى القاهرة .. ليست أعجوبة أن نبدأ فى
القاهرة وأن نعيش بقرشين صاغ فى اليوم .. وتستطيع أيضاً أن تصل إلى مائة
جنيه فى اليوم ..

وكنا منذ وصلنا إلى القاهرة نعيش - صلاح وأنا - فى حجرة واحدة مؤجرة

داخل بيت في إحدى حواري الجزيرة من البيوت التي تؤجر للطلبة .

و كنت أصحو كل يوم وأنا في انتظار معجزة من معجزات صلاح ، قد تكون معجزة ترتفع بنا ، وقد تكون معجزة تنهار على رؤوسنا . . ولم تكن معجزة صلاح أنه استطاع بسرعة أن يجيد العزف على الكمان الذي اختار أن يتخصص فيه عندما التحقنا بالمعهد ، ولا معجزة تقدمه بصوته الذي يغني به تقدما كان يدهشني أنا شخصياً رغم أني عشت العمر كله مع هذا الصوت . . ولكن معجزته الكبرى هي قدرته على الاتصال بالناس . . واكتساب صداقتهم ثم استغلال هذه الصداقة . . لقد كان يعرف بذكائه أن الفن لا يساوي شيئاً إلا إذا استطاع صاحبه أن يصل به إلى الناس . . إلى الجمهور . . ولكي تصل إلى الجمهور يجب أن تصل أولاً إلى مراكز القوى التي تسيطر على حركة المرور إلى الجمهور . . مراكز القوى الفنية . . إنها مراكز تضم أفراداً أقرب إلى عساكر المرور . . تشير ، فتمر إلى الجمهور . . تشير فتقف مكانك دون أن تتقدم إلى الجمهور . . وأحياناً كثيرة تسحب منك رخصة القيادة الفنية فتجد نفسك قد انتهت كفنان . . وكان صلاح له قدرة عجيبة وذكاء خارق في اكتساب أفراد مراكز القوى الفنية . . إنه يعرف مقدماً ماذا يريد كل منهم . . ومنهم من لا تستطيع أن تكسبه إلا إذا بدوت أمامه ضعيفاً غلبان ، محتاجاً ، تثير شفقتة ، وتثير فيه عقدة السيادة وتشتع فيه شهوة العظمة . . ومنهم من يحتاج لإقناعه لنوع من القوة أقرب إلى التهديد . . ومنهم من ينتظر رشوة . . والرشوة ليست دائماً مبلغاً من المال . . إن هناك أنواعاً كثيرة من الرشاوى وصلاح يستطيع دائماً بذكائه وجديته وحيويته أن يكتشف الإنسان الذي يحتاج إليه ، ويكتشف وسيلة الوصول إليه . .

وكان أول ما حاول صلاح أن يستغل فيه معجزاته هو حاجتنا إلى أن نعمل

ونكسب حتى ترتفع من مستوى سندويتش الفول إلى مستوى طبق الكباب . . ومن مستوى البطولون الواحد إلى مستوى ثلاثة أو أربعة بطولونات . . ولم يكن هناك طريق أمامنا لتعمل ونكسب ونحن لا نستطيع شيئاً إلا الفن . . ولا نقبل أن نتعرف عن إصرارنا بأن نعطي كل حياتنا لهذا الفن ، ولا أحد يعرفنا كفتانين في هذا البلد الكبير ولا نزاع طلبة في المعهد مفروض أننا لم نتم تعليمنا بعد . . ولكن صلاح استطاع في عام واحد أن يعرف كثيرين من أفراد الفرق الموسيقية ، وأن يكسبهم بذكائه وخفة دمه ، ولا أقول القدرة الفنية ، بل كان صلاح يعتمد إخفاء قدرته الفنية حتى لا يثير بين أصدقائه الجدد الغيرة والخوف على أنفسهم من فنه ، كما يحدث دائماً بين أفراد المهنة أو الفن الواحد . .

ولم يكد العام الأول يمر ونحن في فقر نعيش على ثلاثة جنيهات في الشهر بتلقاها صلاح من بلده وجنيه واحد أتلقيه أنا ، حتى استطاع صلاح أن يضع نفسه في إحدى الفرق الموسيقية كعازف للكمان ، ويضحي معه كعازف ناي . . وكسبتنا . . ارتفعنا إلى مستوى الكباب ومستوى شراء القمصان والبطولونات وتفصيل البدل . . وارتفعنا أيضاً إلى مستوى السكن في شقة إيجار . . شقة وحدنا . . صلاح وأنا . . وكل ذلك كان ارتفاعاً إلى مستوى متواضع ، أي إلى مستوى عشرة في المائة من المستوى الذي نعيشه الآن . . ولكننا - أيامها - كنا نحس أننا ارتفعنا مليوناً في المائة من المستوى الذي نلحم أن نعيش فيه . .

وكان أصدقائنا الجدد قد بدأوا يعرفون أن صلاح يغني . . وكان يغني لهم ، والكثيرون منهم يهللون له ويلحون عليه أن يبدأ في محاولة الظهور كمطرب . . وكثيرون أيضاً استهزأوا به ورفضوا الاعتراف به كمطرب . . كفاية عليك الكمنجة ما تطلعش فيها .

وصلاح لا يريد أن يقدم نفسه علانية كمضطرب إلا في الجلسات الخاصة الضيقة . . إنه عندما يغنى يردد أغاني محمد عبد الوهاب أو سيد درويش وأحياناً محمد عبد المطلب أو يردد الأغاني الريفية والشعبية . . وهو لا يريد لنفسه كل هذا . . إنه مقتنع بأن صوته يمكن أن تكون له شخصية منفصلة . . شخصية قائمة بذاتها . . شخصية تخلق الجديد ولا تكتفى بترديد القديم . . إنه لا يريد أن يقدم نفسه للجمهور إلا كشخصية فنية جديدة ، شخصية الصوت . . وشخصية اللحن . . وشخصية الأداء . . يجب أن يبدأ بشخصية جديدة بأغنية لم يسمع الناس مثلها من قبل . .

ولكن الجديد ، يتطلب ملحناً جديداً . . وشاعراً جديداً . . إنه لا يستطيع أن يذهب إلى أى ملحن ويطلب منه أن يلحن له . . فهو غير معروف ، ولا يستطيع أن يدفع ثمن اللحن ، وصوته قد لا يكفي ليدفع أى ملحن إلى أن يقدم له لحناً مجانياً . . وعبد الوهاب إنه حلم صلاح . . إن عبد الوهاب بالنسبة له هو القمة التى لا يستطيع أن يصل إليها أو على الأقل لا يستطيع أن يصل إليها وهو لا يزال واقفاً فى القاع . . إنه يخشى وهو فى القاع ألا يصل صوته إلى القمة . . يرتعش ويخاف أن يرفضه عبد الوهاب . .

وبدأ ذكاء صلاح يعمل . . إنه جديد . . جيل جديد مجهول من الناس ومن محطات الإذاعة وشركات الأسطوانات وزعماء التلفزيون . . فإذا أراد أن يبدأ فيجب أن يبدأ معه كل الجيل الفنى الجديد . . إنه يقدم نفسه وهو مجهول . . ويجب أن يكون الملحن أيضاً مجهولاً . . وكاتب الأغنية . . وموزع الموسيقى . . والموسيقيين . . يجب أن يكونوا كلهم مجهولين يجب أن يقدم نفسه من داخل الجيل الجديد . . وبدأ صلاح وأنا معه نعيش بين مجموعة من الفنانين الشباب المجهولين . .

بعضهم من طلبة المعهد . . وبعضهم من هواة . . وبدأنا كلنا نعمل لنضع أغنية جديدة . . فناً جديداً . . كل ما فيه جديد ، قد ننجح كلنا أو نفشل كلنا . . قد ينجح الجيل الجديد أو يفشل الجيل الجديد . . كنا نعيش أيامها كأننا نخطط لانقلاب للاستيلاء على مقاليد الحكم الفنى . .

واتبيننا من وضع أول أغنية تمثل الجيل الفنى الجديد . . كلنا كنا فيها نشترك فى التلحين وفى الأداء وفى الغناء . . كنا نعيش كأننا فى مظاهرة فنية . . ولكن كيف نقدم هذه الأغنية للناس . . لا طريق إلا الإذاعة . . ولكن . .

مستحيل أن تقبلنا الإذاعة . .

وبدأنا كلنا نعيش اعتماداً على ذكاء صلاح . . وقد استغرق ذكاء صلاح عاماً كاملاً استطاع خلاله أن يكتسب صداقة الأستاذ عباس حمدي الذى يعتبر إحدى الشخصيات القوية فى مركز قيادة الإذاعة . . وأعجب عباس بصلاح كفنان . . أعجب به فعلاً . . وأعجب بالأغنية الجديدة واللحن الجديد إلى حد أن أعلن الثورة على الروتين المتجمد للإذاعة الذى يحرم دخول الجيل الجديد . .

وأذيعت الأغنية . . لأول مرة . .

وسمعا الجمهور فى عشر دقائق . . وكنا قد قضينا فى إعدادها عامين ، آخرهما أسبوعان لم نتم خلالها أبداً . . قضيناهما كليهما نعيد ونراجع . . ونعيد ونراجع إلى أن تم التسجيل فى الإذاعة . .

فرحتنا الكبرى . . نجحت الأغنية . .

وكل الأسماء التى أذيعت معها ، كانت أسماء جديدة . . صلاح . . والملحن

رأفت التوتى . . والشاعر أحمد حلمى . . أما اسمى فهو لا يذاع . .

ولكن النجاح الأول لا يمكن الاعتماد عليه . . إنه أشبه بصدمة لا أحد ينتظرها . .
ولا يمكن أن تخلق جمهوراً ثابتاً . . خصوصاً إذا كانت الأغنية قد أذيعت فجأة
وبلا دعابة تجذب الناس لها . .

ترى كم واحدا سمعها . .

وأذكر أنى عدت ليلتها مع صلاح إلى البيت ، وقال لى وهو منطلق فى
خيااله كأنه يبحث به عن المستقبل :

- لسه بدرى يا عمر . .

وليلتها دخل صلاح الحمام ، وكنت فى غرقى واعتقدت أنه دخل يغسل
وجهه . . ثم ذهبت إليه داخل الحمام . . وفوجئت به وقد أمسك القوطة وهو
يمسح بها حوض الحمام والقوطة ملطخة بالدم . . وخطوط من الدم لا تزال
معلقة داخل الحوض . . وذعرت :

- ما هذا الدم يا صلاح . .

وأجابنى صلاح وهو يحاول أن يعلق ابتسامة بين شفتيه :

- لا شيء . . بسيطة . . إن دى ثقيل وأحاول أن أخففه . .

وصرخت :

- هل هى المرة الأولى التى تنزف فيها دمك من فمك . .

وأجاب وهو لا يزال يحاول أن يبتسم :

- المرة الأولى . . وبإذن الله الأخيرة . .

وأخذته إلى فراشه ، وأنا ساخط أصرخ فى وجهه وأصمم على استدعاء
طبيب . . ولكنه يرفض . . إنه يهدد بالكذب على الطبيب لو استدعيته . .

وهو مؤمن بأن لا شيء قد حدث له . . إنه لم ينم طوال أسبوعين ، وقد أسرف فى وضع
الشطة داخل الساندويتش . . وهذا هو كل السبب . .

ونام . .

وبدأت ألاحظ لأول مرة الخطوط التى ترسم على وجهه عندما تنتابه

الأزمة . .

خطوط تظل عالقة تحت عينيه حتى وهو نائم . .



وفي صباح اليوم التالى دق جرس الباب . . . وفتحت . .
إنها فاطمة . .

وفرحت بها كأنى وجدت الدواء الوحيد الذى يمكن أن ينقذ صلاح .
وأجلستها فى الصلاة ، وجريت إلى صلاح وهو لا يزال راقداً متعباً من أثر
الأزمة . . وما كاد يعرف أنها فاطمة . . الفتاة التى يبحث عنها منذ خمس سنوات . .
حتى قفز من الفراش وألقى على وجهه قطرات من الماء . . وأدخل نفسه فى قميصه
وبنطلونه . . وجرى إليها . . إلى فاطمة وهو يهمس كأنه يهتئ نفسه :

— الأغنية نجحت . . مادامت قد جاءت لى فاطمة فقد نجحت . .

وكان هذا صحيحاً ، لقد سمعت فاطمة الأغنية فى الإذاعة . . وقالت له إنها
عرفته من صوته لا من اسمه رغم أنها لم تسمعه إلا مرة واحدة فى سوق سبیدی برافى
ومنذ خمس سنوات . . واتصلت بالإذاعة وعرفت عنوانه وجاءت . . وقد حاولت
من قبل أن تتصل به فلم تستطع . . مرت سنوات حتى استطاعت أن تعود مرة
أخرى إلى دمنهور ، وسألت عنه هناك ، ولم تجده . .

ورأيت صلاح يومها كما لم أره منذ زمان طويل . . إن ضحكته منطلقة صادقة
ليس فيها هذا التعمد الذى يضعه دائماً كأنه واقف دائماً أمام آلة تصوير . .
والخطوط التى تركتها الأزمة تحت عينيه اختفت بسرعة . . وهما يتذكران الأغنية
التي غنياها معاً فى المولد . . ثم يغنى لها أغنيته الجديدة وتغنيها معه . . إن صوتها
فيه شيء . . إنها يمكن أن تصبح شيئاً جديداً . . كبيراً . .

وأصبحت فاطمة فى حياة صلاح . . لا . . أقصد إن صلاح أصبح فى حياة
فاطمة . . أما حياته فإنى لم أكن أعتقد أنه يمكن أن تكون فيها فاطمة
أو أى إنسان آخر . . لقد أعطته فاطمة قوة جديدة . . قوة الزهو بالنفس . .
قوة الغرور . . ولكن كل هذه القوة لم يكن يعطيها لأحد إلا لفته . . أنانية الفنان . .
وقد بدأ صلاح فى إعداد الأغنية التالية . . . ويقضى كل أيامه مع فنه ، وفاطمة
لا تجد طريقاً إليه إلا أن تجرى وراءه . . وهى لا تغضب . . إنه يعطى نفسه لشيء
تحبه . . لفته . . وهى راضية ، فرحة به . . ويتحملها كأنها هى التى تغنى . .
وكانت تغنى فعلاً . . كانت فى الأوقات التى يبق فيها صلاح فى البيت وتأتى
إليه ، تغنى معه . . وتعيد كل ألحان البروفات التى كان يؤديها وهى جالسة
تسمعه . . وفى يوم قلت لصلاح :

— إن فاطمة صوت جديد . . إنها تستحق أن تكون مطربة . . لنحاول
أن نقدمها لأصدقائنا . . ونظر إلى صلاح فى دهشة كأنى قد نسيت . . وقال :

— أنتظر إلى أن أنتهى من بناء نفسى أولاً . .

ورفض صلاح أن يقدم فاطمة إلى عالم الغناء . . أنانية الفنان . . ربما لم
يكن يريد أن يكرر طبيعة الصراع الفنى الذى كان قائماً بين عبد الوهاب وأم كلثوم .
كان يخاف أن يعانى هذا الصراع ويخلق أم كلثوم أخرى . . من يدرى ربما كانت
فاطمة تستطيع أن تكون شيئاً جديداً بالنسبة لأم كلثوم ، كما أصبح صلاح
شيئاً جديداً بالنسبة لعبد الوهاب . . ولكن المهم أن فاطمة نفسها لا تريد أن
تكون أم كلثوم . . لا تريد أن تحترف الفن وتعلن نفسها أمام الجمهور كمطربة . .
يكفيها صلاح . . إنها تجد فيه كل ما تحلم به لنفسها . .

وكان صلاح قد اكتشف بعد الأغنية الأولى أن النجاح لا يتم إلا بجذب الناس

إلى العمل الفنى . . إن كل شيء يحتاج إلى قوة جذب حتى الأغنية الناجحة . .
 وقوة الجذب الكبرى هي الصحافة . . إن الزعماء السياسيين يعتمدون على الصحافة
 كقوة لجذب الناس . . لا يكفى أن الزعم يلقى خطاباً ويجذب الجمهور دون
 أن تقوم الصحافة بمهمة وضع الجمهور أمامه . . والشيكولاتة لا يأكلها الناس
 إلا إذا جذبهم إعلانات الصحف إلى شرائها وأكلها . . وكذلك الفنان الذى يواجه
 الجمهور . . وبدأ صلاح يركز ذكاه على الاتصال بالصحفيين حتى يجذبوا
 الناس إلى أغانيه الجديدة . . صغار الصحفيين وكبار الصحفيين . . وأذكر
 أن صلاح أقتنع أحد صغار الصحفيين بأن يقدمه إلى أحد كبار الصحفيين . .
 وصحب الصحفي الصغير صلاح إلى الصحفي الكبير وطلب منه أن يستمع إليه
 ولم يكن قد سمعه فى أغنيته الأولى ، وقال الصحفي الكبير :

- اعمل معروف . . لا تجربه فى . . دعه يجرب نفسه فى غيرى . .

ولم تنقضى شهور حتى أصبح هذا الصحفي الكبير من أقرب أصدقاء
 صلاح . . إن صلاح لا يئأس أبداً من الاستيلاء على صداقة من يريد صداقتهم . .
 وبدأ اسم صلاح يلمع فى الصحف . . ولم يكن يكفى حتى يلمع اسمه أن
 يكون صديقاً للصحفيين بل يجب أن يكون قد نجح فى اجتذاب الجمهور ،
 حتى تضطر الصحف إلى ترديد اسمه . . أى يصبح نجاحه أقوى من أن تتجاهله
 الصحف . . ولكن الصحف بدأت تعرف قصة الحب بينه وبين فاطمة . .
 وبدأ صلاح يخفى قصة حبه . . لقد طلب من فاطمة ألا تكون معه أثناء البروفات
 وطلب منها ألا تظهر معه فى مكان عام . . وكان عندما يدعى إلى حفل خاص
 ويجدها هناك يتعمد أن يبدو أقل اهتماماً بها . . بل يتعمد تجاهلها . . وقلت
 له يوماً :

- إنك تقسو عليها بهذا التجاهل . .

وقال وهو يشهد بحسرة :

- إنى أقسو على نفسى . . إن مسئوليتى عن فنى تأخذ منى أكثر مما أطيع . .

إن المغنى الذى يغنى للحب يرسم أمام المستمع صورة من الخيال وهذا المستمع
 يتصور أن الفنان نفسه هو هذه الصورة . . كالفارئ الذى يقرأ قصة حب ،
 إنه يتخيل أن الكاتب نفسه هو بطل هذه القصة ويعيش معه فيها ، وقد تكون
 القارئة فتاة يأخذها خيالها إلى أن تتصور نفسها بطله وأنها هي التى يحبها كاتب
 القصة . . وكذلك المطرب . . إنى عندما أغنى الحب أرفع المستمع إلى الحب . .
 إلى الخيال . . ولو عرف الناس قصة فاطمة فكل مستمع سيتصور أنى أغنى
 لفاطمة وحدها فينهار خيال المستمع . . يفقد الخيال متعته لأنه ينقلب إلى
 واقع قصتى مع فاطمة . . أنا محكوم على حتى أحفظ بخيال المستمع والمستمعات
 بأن أشعر كل فتاة بأنى أغنى لها حتى ولو كنت فى الواقع أغنى لفاطمة . .
 محكوم على أن أخفى حبي داخل قلبي وتحت ثيابي حتى لا يراه الناس . .

وربما لم أقتنع بهذا الكلام . . ولكن فاطمة نفسها كانت مقتنعة به . . كانت
 مقتنعة بأن الفنان ملك لكل الناس وليس ملكاً لنفسه . . فإذا ابتسم يجب أن
 يتسم لكل الناس . . وإذا أحب يجب أن يبدو كأنه يحب كل الناس . .
 ويجب أن تبقى حياة الفنان الخاصة بعيدة عن الناس . . إنها تفكر كما يفكر
 صلاح . . وتحس كما يحس صلاح . . بل خيل إلى أنها أصبحت تتكلم بنفس
 أسلوب وصوت صلاح بل إنها أيضاً تقلده فى حركاته دون أن تتعمد التقليد . .
 ربما لأنها أحبته حتى جعلته قطعة منها من عقلها ومن شخصيتها . . وربما لأن
 النجاح السريع الذى حققه صلاح يجعل كل من يطمع فى النجاح يتأثر به . .

وفاطمة لا شك تطمع في النجاح . . وإن كانت لم تحدد بعد ماذا تريد أن تنجح فيه . .

ولكن الحدث الأكبر في حياة فاطمة وصلاح كان يوم عرفت بمرضه . . كان قد مضى أكثر من عام وهو يحقق عنها الأزمات التي تتابى وتفتقر بدمه من بين شفتيه ، ويسقط بعدها وكأنه لم يعد فيه قطرة دم ، كان يعتبرها هي أيضاً واحدة من الجمهور الذي يحقق عنه مرضه . . حتى لا تنهار صورته الفنية . . صورة الشاب المرح القوى المليء بالحياة الذي يغني للحب . . كانت شخصيته الفنية تغلب شخصيته الآدمية ، حتى لا يريد أن يعترف بأن فاطمة يمكن أن تحبه كبنى آدم . . إنها تحبه فقط كفنان . . والفنان لا يمكن أن يكون مريضاً . . وكانت فاطمة أحياناً تلمح الهزال والضعف الذي يبدو على وجه صلاح . . ولكن - لأنها لم تكن تعرف أنه مريض - كانت تعتقد أن كل ما يبدو عليه هو نتيجة إتهالك نفسه في عمله الفني . . وأحياناً كانت تعتقد أن هذه هي طبيعة تكوينه الجسماني . . ولد هكذا . . ترسم فوق وجهه خطوط الضعف والهزال . . وينحصر قوامه في جسد رفيع قصير . . وكانت تقول له ضاحكة - :
- صلاح . . طول عمرك ستبقى سنك سبعة عشر عاماً . . إنك تستطيع أن تمثل في السينما أدوار الشباب المراهقين دون أن تحتاج إلى مكياج . . يابختك . .
أحمد ربنا . .

إلى أن كانت يوماً معنا في البيت . . وكان صلاح قد استيقظ من النوم منهكاً عصبياً وجلس معها وهو لا يستطيع أن يستمر في حديث . . ولا يستطيع أن يغني لها أو يدعها تغني له . . وفجأة تقلصت عضلات وجهه ، واتسعت عيناه كأنه يحتنق ، ويضع يده على صدره كأنه يحس في داخله بطلقات مدفع

مترليوز تنفجر واحدة بعد الأخرى وفمه مفتوح إلى آخره دون أن يصرخ . . وصرخت فاطمة :

- صلاح . . ماذا حدث لك . . أجبتني . . تكلم . .
ولم يتكلم صلاح . . إنه لا يستطيع . . وقام يجرى مترنحا ناحية الحمام ، وقبل أن يصل إليه سقط على الأرض وانفجر شلال الدم من بين شفتيه . .
إنها الأزمة . .

ولأول مرة تراه فاطمة في أزمته . .
وساعدتني فاطمة في حمله إلى فراشه ، وهي ترتعش وتصرخ :
- الدكتور . . اطلب الدكتور . . أين الدكتور ؟ . .
ولم تكن تعرف أن صلاح كان حتى ذلك اليوم يحرم علينا استدعاء الطبيب حتى لا يعرف الناس خبر مرضه :

وكان شلال الدم قد توقف قبل أن نصل بصلاح إلى فراشه . . إنه شلال لا يستغرق سوى ثوان كطلقات مدفع المترليوز ، ونظر إليها صلاح وهو ممدد يلتقط أنفاسه كأنه يسترد بها الحياة ، وقال في ضعف :
- لست في حاجة إلى دكتور يا فاطمة . . أنا بخير . . الدم توقف . .

ثم اغتصب ابتسامة من بين شفتيه وعاد يقول :
- أمس وضعت على عشائي نصف كيلو شطة على الأقل . . وهذا هو السبب . . إنها ليست القوطية هي المجنونة كما يقول الناس . . إنها الشطة . .
الشطة مجنونة وأنا مجنون بالشطة . .

وفاطمة تنظر إليه في تعجب ، ثم انقلبت نظرتها إلى نظرة غاضبة ناثرة كأنها أم أخرجا أبناء عن هدوئها ، وصرخت في وجهه :

- اسمع . . أنا أفهمك جيداً . . ليس هناك عاقل يرفض استدعاء الطبيب بعد أن يتقياً دمه . . إننا نستدعى الطبيب عندما نصاب بصداع أو زكام . . وأنت أفرغت دمك ، ربما كان فيك شيء تمزق ، ولكنك لا تريد الطبيب لأنك لا تريد أن تعترف بالمرض . . لا تريد أن يعرف الناس أنك مريض . . حتى أنا أخفيت عني كل هذه الأيام أنك مريض . . اعتبرتي واحدة من جمهورك . . إنك لا تحبني . . وأنا مجرد إحدى المعجبات بفنك الرفيع . .
ورأيت صلاح يرفع رأسه كأنه يستجمع كل شبايه مدافعاً عن نفسه ،
ولأول مرة أسمع به يعترف :

- فاطمة . . أنا أحبك . . عمري ما اعتبرتك واحدة من الجمهور . .
ولكني أخفيت عنك لأنني كنت أخاف على حبك من مرضي . . إني أريد حبك كاملاً ولا أريده إشفاقاً على من مرضي . .
وقالت فاطمة وقد استردت هدوءها :

- أثبت لي حبك . .

قال :

- كيف . . ما هو أكثر من أتركك ترينني في ضمعي . . في مرضي . .
قالت في هدوء :

- الأكثر أن تركنا نستدعى الطبيب . .

والفتفت إلى فاطمة تطلب مني أن أستدعي الطبيب في التليفون ، واحتارنا ،
هي وأنا ، في تحديد اسم الطبيب الذي نستدعيه ، ولكن صلاح هو الذي حدد اسم الطبيب . . من يدري ربما كان قد تردد على هذا الطبيب من قبل سراً ودون أن يبلغني أو ربما كان يراجع بينه وبين نفسه أسماء الأطباء ويختار المتخصص

في مثل حالته استعداداً لمثل هذا اليوم . . إن ذكائه يتسع لكل شيء . .
وجاء الطبيب . .

وقبل أن يصل كانت فاطمة قد أخذتني خارج الغرفة وجلست معي بحجة أن تترك صلاح ليسترخ وجعلتني أعترف لها بكل حالات مرض صلاح . .
وكان الطبيب قد وصل بأسرع مما نتصور ، ربما لأنه اندفع وراء فرحته باستدعائه للعلاج المطرب المشهور صلاح ، وربما لأنه أحس بإرضاء غروره بنفسه واكتساب شهرة طيبة عندما يعرف الناس أنه طبيب المطرب المشهور ، وربما لأن هذه هي طبيعته في تلبية حاجة المرضى . . الله أعلم . . ولكنه جاء بسرعة . . والاهتمام يشمل كل ملامح وجهه ، ودخل إلى صلاح وأنا وفاطمة معه . . وبدأ يسأله . . وصلاح يجيب إجابات مائعة ، وهو لا يزال مصراً على الاحتفاظ بابتسامته ، كأن الطبيب ليس سوى واحد من الجمهور . .
وتدخلت فاطمة قائلة في حزم :

- قل كل شيء بصراحة يا صلاح . . وإذا لم تقبل فسأقول أنا . . إني الآن أعرف كل شيء . .

ونظر إليها صلاح غاضباً ، كأنه ليس من حقها أن تتحداه بهذه الجرأة أمام غريب . . أمام واحد من الجمهور . . ولكنه بدأ يكون أكثر صراحة في حديثه مع الطبيب . .

. . واستغرق الطبيب وقتاً طويلاً في الكشف على صلاح ثم كتب له مجموعة كبيرة من الأدوية تشرب وتبلع وتحقن ، ثم قال وهو يجمع أدواته :
- بسيطة . . ولكن أرجوك . . لا تتحرك من الفراش إلا بعد أن أقول لك . .
إن الكشف لم يتم بعد . . يجب أن نأخذ أشعة على كل جسمك . . خصوصاً الكبد . .



ثم قال لنا الطبيب ونحن نسير به إلى باب الخروج :

- المسألة ليست سهلة . . أعتقد أنه نوع من تليف في الكبد نتيجة البلهارسيا . . نتج عنه فقاعات في المرئ يتجمع فيها الدم ، وتتضخم إلى أن يتقبأ دمه . . كل ذلك مجرد استنتاج ، في انتظار الأشعة . .

وما كاد الطبيب يخرج ونعود إلى صلاح . . حتى قال :

- العود . . هاتوا العود . .

وقالت فاطمة :

- عود إيه يا صلاح . . الدكتور كتب لك حقنة منومة . . ويجب أن

تنام . . تستريح . .

وصرخ صلاح :

- العود . . مش ممكن أناام وأنا عايز العود . . ونخلص . . اعتبرى الزيارة

انتهت . . فين العود . .

ودون أن أسمع رأى فاطمة . . حملت العود ووضعت بين يدي صلاح . .

إني أطمئن على صلاح والعود في أحضانه أكثر مما أطمئن عليه وهو بين يدي الطبيب . .

وانصرفت فاطمة خارجة وهى غاضبة .

ونغم العود يملأ البيت بلحن الأغنية الجديدة . . وصرخت من بعيد :

- مش كده يا صلاح . . غلط . . راجع الفقرة دى تانى . .



. . وهكذا عشت مع صلاح . . عشت معه والأزمات التى تستنزف دمه لا تنتهى ولا تتوقف وتكاد فى كل مرة تقضى عليه ، ولا ينقذه منها إلا أن يمارس فنه ويستمد منه قوة تعيده إلى الحياة . . حتى أصبحت أؤمن أن قوة الفن أعظم من قوة العلم . . أقوى من علم الطب والأطباء ، إن العلم يأمره بأن يبقى فى فراشه ويهدده بالموت . . والفن يأمره أن يعيش فنه ، أن يعيش بين الناس . . أن يغنى ويضحك ويعمل . . ويتنصر الفن على العلم . . ولكن تعدد الأزمات على صلاح جعله يعيش وهو فى حالة خوف دائم ونقله الخوف إلى حالة عجيبة ، فهو لا ينام الليل أبداً وينام النهار ، وعندما حاولت فى بداية هذه الحالة أن أجعله كبقية الناس ينام الليل ويعيش النهار . . قال لى فى يأس :

- لا أستطيع . . إني أخاف الليل . . أخافه لأن كل الناس من حولى نيام . . وقد تتناهى الأزمة فلا أجد من حولى أحداً ليساعدنى عليها . . ولذلك يجب أن أبقى صاحباً حتى أساعد نفسى أو أستطيع أن أوقف من يساعدنى . . أما فى النهار فكل من حولى فى يقظة فأناام أنا مطمئناً على نفسى . . إني أخاف الليل رغم أنى أغنى الليل للناس . .

وأنا مع صلاح فى خوف دائم . . أخاف عليه وهو فى أزمته . . وأخاف عليه وهو يتحدى الأزمة ويستسلم لفنه ويهرب من فراشه ليعمل . . ليعنى . . وهكذا فاطمة . . أصبحت تعيش مثلى مع صلاح . . صلاح المريض المنهار الذى ينزوف الدم ، صلاح الفنان الجبار الذكى الأناى الذى يستطيع أن يحصل دائماً

على كل ما يريده فنه . .

ولكن فاطمة بدأت تعيش حالة جديدة . . فإن نجاح صلاح جذب إليه مئات المعجبات بنات ونساء يجذبن إليه فنه وتجاحه . . وكل منهن تحاول الاستيلاء عليه ، أو على الأقل تحاول تذوقه . . إن النجاح يجعل من الرجل الناجح شيئاً أشبه بقطعة الفاكهة النادرة التي تقطع كل امرأة في الاستيلاء عليها أو على الأقل تذوقها . . وكان صلاح يفرح بأنه قطعة من الفاكهة النادرة ، ويفرح بؤلاء المعجبات ، ويفرح بالتليفونات والخطابات والدعوات الخاصة . . ويفرح أكثر عندما تكون المعجبة من عائلة كبيرة معروفة إنه يحس معها أنه استولى على العالم كله من القمة إلى السفح . . وكنت أرى صلاح وهو مع هؤلاء المعجبات أو وهو يحادثهن في التليفون كأنه يمثل دوراً في فيلم سينائي . . إنه يبدو كأنه كله حب ، وكله فن ، وكله رقة ، وحديثه الذكي يستطيع به دائماً أن يكمل الصورة التي رسمها ، حتى لا يترك واحدة إلا وقد استسلمت لكل ما يريده . . يتركها وهي تعيش الحب . . حبه . . وكان خبر مرض صلاح قد أذيع وانتشر . . وعلى عكس ما يتصور صلاح فإن الجمهور يزداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض . . وازداد عدد المعجبات الجريشات أن الجمهور يزداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض . . وأصبحت صورة صلاح أمام الناس هي صورة الرجل المريض الذي لا يمكن أن تكسبه له شهوة في إحدى النساء . . إنه مريض . . ولا يستطيع أن يستسلم لشهوة . . واطمأن إليه الرجال . . فلا يشك أحد منهم في أنه يمكن أن تكون له علاقة بامرأة . . بـ زوجة أو ابنة أو أخت . . والبنات اطمأن أكثر إلى الاتصال به . . لأن لا أحد يمكن أن يشك في أنه يمكن أن تقوم علاقة كاملة بين أى فتاة وبينه . . اكتسب سمعة البراءة كأنه راهب . . ولا يمكن أن يكون إعجاب امرأة به أكثر

من إعجاب بالفن . .

وبدأت فاطمة تحتاز مرحلة حائرة . . إنها تحبه . . تحبه . . تحبه قبل أن يكون قطعة من الفاكهة النادرة . . وهي تخاف على حبا من هاتيك المعجبات . . وهي تعلم أن صلاح ليس مجرد فنان . . إنه رجل كبقية الرجال . . ومرضه ليس له علاقة برجلته . . وأحياناً كانت تشدد بها الغيرة وتبدأ في نقاشه والصراخ في وجهه ، فيرد عليها وهو يحتضنها بين ذراعيه .

— لا تكوفي مجنونة يا فاطمة . . هذا شغل . . الشغل عايز كده . . أنا مضطر . . وكما أني لست ملك نفسي . . لا أستطيع أن أكون ملكك لوحدي . . أنا ملك الناس . . وإذا كنت بتحبيني صحيح لا تحرمي الناس مني ، ولا تحرميني من الناس . .

وكانت تقول ودموعها تلمع في عينيها :

— أنا خايفة عليك يا صلاح . . وخايفة على نفسي . . خايفة أن تضيع مني . . ماذا يطمئني . .

ويقول وصوته ينبض بحبه :

— يطمئنك أن ليس بينهن واحدة تعرفني . . كلهن يعرفن صوتي بس . . ليس بينهن واحدة تعرف شكلني عندما تنتابني الأزمة . . ولما باتنرفز وباتحلقن باقول إيه . . ولما باكل على راحتي باكل إيه وبأكل إزاي . . ليس بينهن واحدة تعرف صلاح الإنسان وكلهن لا يعرفن إلا صلاح الفنان . . وإنتي عارفة إني فنان وانت لوحديك اللي بتشوفيني كإنسان . .

وكانت فاطمة تقتنع ، وتحمل المعجبات ، بل إنها أحياناً وهي معنا في البيت كانت ترد على التليفون وتلتقي مكالمات المعجبات . . ثم تعطى السماعه

لصلاح ويجلس بجانبه وفي سمعه يمثل دور راهب الحب . . وعندما كانت تسألها المعجبة التي تلتقي بكلماتها عن من هي كانت ترد . . أنا أخته . . وأحياناً ترد . . أنا الشغالة يا ستي . .

وربما كان أكثر ما يطمئن فاطمة في حيرتها أنها كانت مقتنعة بأنها وحدها التي لها الحق في زيارة صلاح في بيته . . كل البنات يحادثنه في التليفون ويقابلنه في الحفلات الخاصة أو العامة . . هي وحدها التي تدخل البيت . .

وكانت فاطمة تحب دائماً . . تحب في شخصيتها . . وتحب في كل حياتها فهي - كصلاح أيضاً - لا تتحدث كثيراً عن نفسها ولا تتكلم إلا بقوة ذكائها . . كنا لا نعرف شيئاً كثيراً عن عائلتها ولا عن حياتها العائلية . . كل ما كنا نعرفه أنها تعيش مع أبيها الموظف بوزارة الداخلية ، ومع زوجة أبيها ، بعد أن توفيت أمها . . وطبعاً كنا نعرف عنوان بيتها ونمرة التليفون ولا أكثر . . وكنا نعرف أنها طالبة في الجامعة . . كلية الاقتصاد والسياسة . . ولكنها كانت أغلب الأيام معنا . . وكنا نسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة ، فتقول ضاحكة . . زوجت . . أو تقول في قرف ،

— ما ليش نفس للجامعة . . أنا دخلت الجامعة بس علشان أخرج من البيت . .

وكان الشيء الوحيد الذي تتمسك به هو أن تعود إلى بيتها في الساعة السادسة حتى تنفادي ثورة زوجها أبيها . . لم ترها أبداً بالليل . . إلى أن دخلت نهال في حياة صلاح . .



. . كانت نهال من أجمل فتيات المجتمع الراقي . . كانت ابنة رجل حفيد عائلة السلاطون ، واستطاع أن يستمر في الاحتفاظ بمستوى ثرائه ومكانته الاجتماعية . . وربما كان في حياة نهال ما جعلها دائماً هادئة هدوءاً أقرب إلى الحزن ، صامته دائماً كأنها مكتفية بأن تعيش في خيالها . . والهدوء والصمت يلفانها بالطبيعة الحلوة . . ويحفظان لجمالها ببهر . . ليست مثيرة أقرب إلى صورة من صور الملائكة أو صورة مريم العذراء . . وربما كان ما في حياتها هو ما أدى بها إلى التعلق بصوت صلاح وأغاني صلاح ، هو ما جعلها تتعلق به منذ اليوم الأول الذي التقت به فيه خلال حفلة عائلية خاصة . .

وبهر صلاح بها كما لم يبهر من قبل . . بهر بجمالها . . وبهر باسم عائلتها الكبير . . وبهر بهدونها ، وبهر بصمتها . . هل أحبها . . ؟ لا أدري . .

ولكن كل أيامه أصبحت « نهال » . . إنه يفتح عينيه ليحدثها في التليفون ويحدد مصير يومه كله بعد أن يحدد مصيره معها في هذا اليوم . . متى يلقاها . . ومتى تحدثه في التليفون وبعد ذلك كل شيء ، حتى أنه أصبح يأتي بعد تحديد مصيره مع نهال . . وهي . . نهال . .

قطعا أحبه . .

إنها تعطيه من اهتمامها ومن اللهفة إليه أكثر ما تعطى فتاة لا يدفعها سوى الإعجاب بفنه . . وبدأت قصة نهال وصلاح تنتشر في المجتمع ، ثم . . نشرت في الصحف . . ولم يعترض صلاح على نشر القصة في الصحف وقد كان يستطيع بصداقته لكل رجال الصحافة أن يمنع نشرها ولكنه لم يفعل . . ربما لأنها قصة يتباهى بها وترضى غروره ، أو ربما لأنه قدر أنها قصة ترفعه في أعين المعجبات لأن نهال يبين شيء عال ثمين . .

ولم تكن فاطمة قد عرفت شيئا عن قصة نهال . . وكان صلاح لا يزال مرتبطا بها . . وإن كان قد أصبح يحتج بأعماله ومواعيده حتى يقلل من زيارتها له واتصاله بها . . إلى أن قرأت ما نشر في الصحف . .

وجاءت إلى البيت وأنفاسها مبهورة . . وبلا موعد . . ولم يكن صلاح في البيت فانتظرتة وتأخر إلى ما بعد الساعة السادسة فبقيت في انتظاره . . إلى أن جاء في الساعة التاسعة بيدل ثيابه استعدادا لحفل كان يقيم في تلك الليلة ، وفوجئ بها . . إنه لم يتعود أبدا أن يرى فاطمة بعد الساعة السادسة . .

وقالت له في هدوء :

- إيه الحكاية الجديدة دى يا صلاح . .

قال وجفونه ترتعش فوق عينيه :

- حكاية إيه ؟

قالت وهي لا تزال تبسم :

- حكاية اللي اسمها نهال . .

وقال وهو يلوى شفتيه ساخرا :

- زى بقية الحكايات . .

قالت :

- بس أنت بتقول لى على كل الحكايات ، ودى ما قتلش عليها . .

قال :

- ما افتكترش . . وماجتش مناسبة . .

قالت :

- واشمعى الحكاية دى اللي انتشرت في الصحف . .

قال :

- أنا عارف . . يمكن علشان من عيلة معروفة . .

قالت :

- بس أنت كنت تقدر تقول لهم ما يتشروهاش . .

قال وقد بدأ يفقد أعصابه :

- أنت فاكراى عايش في الجرايد علشان أعرف إيه اللي بتنتشر وإيه اللي ما يتنتشرش . . ما احنا حكايتنا اتنشرت ، قبل ما أطلب أنها ما تتنتشرش .

قالت :

- وحكايتها زى حكايتي . .

وصرخ صلاح :

- فاطمة ما تجنننش . . إذا كنت بتقولو بتحبنى ببقى حبيبي زى ما أنا . .

ما فيش فائدة انك تغيرينى . . وما فيش فائدة انك تحاسبينى . .

قالت وهي تكاد تبكى :

- الحب يعنى أطعش على حبك . . وأنا مش مطمشة . .

قال كأنه قرفان :

- أطمئنتك إزاي ؟

ونظر إليها طويلاً إلى أن هدأت ثورته ، ثم ارتفعت إلى شفتيه ابتسامة هادئة كأنه استرد كل حبه لفاطمة ، وقال وهو يقرب إليها ليأخذها بين ذراعيه :

- عايزه تطننى .. بوسينى ..

وتركتهما ليكملتا بقية قبلتهما ..

وفى اليوم التالى كنت أنا الذى اتصلت بفاطمة بالتليفون لأطمئن عليها بعد أن تأخرت فى العودة إلى بيتها إلى ما بعد التاسعة .. ولم ترد على التليفون .. رد صوت عنيف كلماته كقطع الحجارة تلقى فى وجهى .. لعلها زوجة أبيها .. واتصلت مرة ثانية ، ولم ترد فاطمة أيضاً وفى آخر النهار .. هى التى اتصلت لتقول لى إنها تشاجرت مع زوجة أبيها بسبب تأخرها وتركت البيت ، وهى تقيم الآن عند إحدى صديقاتها ، وعندما أحست بانزعاجى عليها ، قالت ضاحكة :

- ما يهمش .. مش دى أول مرة .. كلها كام يوم وأرجع البيت تانى ..

وصلاح مستمر فى علاقته مع نهال .. وأصبح يبلو معها فى المجتمعات ، بل ربما كان يعتمد الظهور معها ، إلى أن بدأت صورتها تظهر بجانب صورته فى الصحف ..

وفاطمة تحتمل .. بل تحتمل أيضاً تهرب صلاح منها ، وتباعدت الأيام التى أصبحت تلقاه فيها .. إلى أن أصابته الأزمة يوماً ، وما كاد نزعيف الدم يتوقف حتى صرخ :

- فبين فاطمة .. دور على فاطمة ..

وفى هذا اليوم ، وهو لا يزال راقداً فى فراشه عقب الأزمة ، اتصلت نهال

بالتليفون وأشار إلى من بعيد لأقول لها إنه خرج ، بينما كانت فاطمة قد جاءت لتجلس بجانب فراشه .. فراشه المريض ..

ومرت الأزمة ..

وعاد صلاح يغنى .. ويثير ضجة حول حكايته مع نهال .. ويخفى حبه لفاطمة ..

ولم أكن أعرف أن نهال مخطوبة إلا بعد أن قرأت خبر فسخ خطبتها فى الصحف ..

وأعقب نشر خبر فسخ الخطبة إشاعات ملأت البلد كلها حول قرب زواج صلاح ، وكنت أنا أول من سأل صلاح :

هل ستزوجها ؟

وأجاب ضاحكاً :

- مش ممكن .. ما فيش واحدة ترضى بيئنا احنا الاثنين انا واثت .. كل حاجة عملناها من يوم ما تولدنا عملناها احنا الاثنين .. فاكز .. اللعب اللى لعبناه فى البلد .. والكتاب والمدرسة .. والنأى .. والكمنجة .. والمزينة .. والفن .. والجوع .. والشبع .. والضحك .. والبكاء .. كله احنا الاثنين إلا الجواز أهو ده اللى ما نقدرش عليه احنا الاثنين ..

وضحكت دون أن أفهم شيئاً من نيات صلاح ونهال ..

وجاءت فاطمة ..

جاءت نائرة على غير عادتها .. لا تحاول أن تعتمد على ذكائها .. ولا تحاول أن تقتل الهدوء ولا النفاق .. وجاءت فى الساعة الثامنة صباحاً حتى تتأكد من أن صلاح لن يهرب منها بعد أن يقوم من النوم .. وما إن فتح عينيه حتى ألقت

عليه صراخها وربما قبل أن تقول له صباح الخير :

— أنت حاتجوز الى اسمها نهال .

وانتفض من فوق وسادته كأنه يتلقى كارثة وقال :

— لا . .

وقالت له في سرعة . .

— خلاص . . ما دام مش حاتجوزها . . الجوزى .

وصرخ :

— إيه الكلام اللي بتقوله ده . . من إمى بتكلمى عن الجواز .

وارتفع صراخها على صراخه :

— من يوم ما شفتك وأنا باتكلم عن الجواز . . وأنت سامعنى كويس

وما بتدش . . وكنت ناوية أعيش وأنا بالحلم بالجواز . . حلم . . أحلم وبس . .

واستحملت كل حاجة علشان أفضل عايشه فى حلمى . . استحملت يوم

ما خبئنى عن الناس . . وفضلت تحببى لغاية دلوقت مش عايز حد يعرف بيتى

وبينك إيه . . واستحملت أنك معتنى عن أنى أتعلم الفن ، كنت عارفة إنك

بتفكر فى نفسك أكثر ما بتفكر فى . . استحملت اللي بتقول عليهم معجبات . .

ودلوقت حضرتك رايح جاي مع واحدة تانية وساب الناس والجرايد تتكلم وأنت

ساكت ومبسط وآخر حاجة إنهم يقولوا أنك حاتجوز . . حتى لو كانت إشاعة . .

ليه الإشاعة ما تكونش على أنا . . تعرف ليه . . لأنك مستعز منى . . مش مالة

عنيك . . بتحبنى فى السر وبس . . ومين عارف بتحبنى ولا ما بتحنيش

وصرخ صلاح :

— أنت المجننى . . أنت مش فاطمة . . مش فاطمة اللي بحبها . . فاطمة

قدردت تفهم إنى فنان . . وقدردت تعرف إنى ما المجوزتش إلا غنوة جديدة وإلا لحنا

جديداً و . . .

وقاطعته صارخة :

— كفاية حكاية الفن بأه . . الفنان مش هو الإنسان اللي يودى غيره فى

داهية . .

وصرخ صلاح :

— أنا ما وديش غيرى فى داهية . . أنا بودى نفسى . . وأنا ما طلبتش منك

حاجة . . ما كذبتش عليك . . وما وعدتش وما عملتش بوعدى . . أنت اللي

راضية فى . . مش أنا اللي غاصب عليك . .

وقالت :

— وأنا دلوقتى مش راضية . . حاتعمل إيه ؟

قال :

— أنت عايزه إيه ؟

قالت :

— عايزه أنك تتجوزنى . . وإذا ما المجوزتنيش خللى الناس تتكلم عنى . .

أنا . .

وقاطعها :

— ما اقدرش . . مش ممكن . . وإذا ما كانش عاجبك سيبنى . . ابعدى

عنى . .

وصرخت :

— للدرجة دى . . للدرجة دى يا صلاح . .

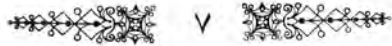
ثم رفعت أبا جورة الإضاءة من جانب فراشه وألقته على الأرض ، ثم أخذت تحطم كل ما تصل إليه يداها في الغرفة وهي تصرخ :

- أنا أحسن منك ومنها ميت مرة .. أنا الى عملته لك ما فيش واحدة تعمله لواحد أنا مجنونة .. أنا مجنونة ..

وأمسكت بها حتى لا تحطم باقى الغرفة .. وأنا أحاول أن أهدئها ، ولكنها تخلصت من بين يدي ، وانطلقت تجري خارج البيت ..

وقفز صلاح من فوق فراشه يحاول أن يلحق بها .. ولكنها كانت قد خرجت وصفتت الباب وراءها بعنف كأنها تصفق البيت كله .. وعاد صلاح إلى فراشه صامتاً وعلى وجهه آثار معاناة عاطفية عنيفة .. إنه يحبها .. إني إلى اليوم مقتنع بأن الحب الوحيد في حياة صلاح هو فاطمة .. كل البنات اللاتي مررن به كن أشبه بالحنان الاجتماعي يواجه بها المجتمع .. حتى نهال .. ولكن فاطمة كانت حياته الخاصة .. حبه الذي يضعه بعيداً عن عمله وعن مظهر الفنان وعن المظاهر والإشاعات الاجتماعية .. وقد بقي في فراشه صامتاً ثم مد يده إلى التليفون وطلب فاطمة .. ليست هي التي ترد .. وبعد قليل حاولت أنا أن أتصل بها في التليفون .. ولم ترد .. ثم عاد صلاح وحاول الاتصال بها بالتليفون .. ولم ترد وقال لي وكلماته ترتعش بين شفتيه :

- أنا لازم أطمئن عليها .. لتكون عملت في نفسها حاجة .. قوم نروح لها في البيت ..



٧

كان من المستحيل أن نذهب أنا وصلاح لزيارة فاطمة في بيتها ان أهلها سيطردونا قطعاً بمجرد أن يروا صلاح وقد يعتدون علينا بالضرب فهم يعتقدون أن صلاح هو الذى جنى على مستقبل فاطمة ذلك فصلاح يصبر ، ثم رضى أخيراً أن أذهب أنا وحدى إلى هناك

وقلت له :

- ولكنى لا أعرف أحداً من أهلها .

قال :

- ولو .. إعمل نفسك زميلها في الجامعة .. ولا أى حاجة ..

وقررت أن أذهب إلى بيتها بعد الساعة السادسة حتى أتأكد من أنها عادت إليه كعادتها إذا كانت قد قضت اليوم في الخارج ..

وضغطت على جرس الباب .. وفتح لي رجل مكفهر الوجه ، لاشك أنه والدها .. وقلت له إني زميل فاطمة في الجامعة وإني جئت إليها بكراسة المحاضرات كما طلبت منى .. وصرخ الأب في وجهي :

- ابعدوا عن فاطمة بأه .. كفاية الى عملته فيها .. غور من وشى ..

وصفق الباب في وجهي ..

وعدت إلى صلاح .. وكان يتحدث في التليفون .. يتحدث إلى نهال .. ولأول مرة أراه وهو يبذل جهداً كبيراً حتى يحتفظ بهدوئه وهو يتحدث إلى نهال .. وأنهى المكالمة بسرعة ، وهو يسألني بلهفة :

- لقيتها ؟

ورويت له كل ماحدث .. وصلاح يزداد عصبية ، وهو يردد .. دى مجنونة .. أنا عارف أنها مجنونة .. وبدأ يستعد للسهرة التى أقيمت يومها وهو فى عصبية .. بل إنه قبل رفع الستار بدقائق غير برنامج الحفل ، ووضع أغنية لم تكن فى البرنامج مكان أغنية أخرى مما أخر رفع الستار حوالى نصف ساعة حتى بعيد الموسيقيون جميع أوراق اللحن الآخر ويستعد كل منهم .. وغنى صلاح .. وأحسّت يومها لأول مرة أنه يغنى لفاطمة وحدها .. يناديه من بعيد .. ويرجوها ألا تتركه وحده ..

وانتهى الحفل فى حوالى الثالثة صباحا .. وذهبتا لتناول العشاء فى الكافيتريا وصلاح لا يتحدث عن الحفل ، ولا يحاسب نفسه أو يحاسب الموسيقيين كعادته .. ثم بعد ذلك فرجئت وأنا بجانبه فى السيارة بأنه يسألنى عن مكان بيت فاطمة ، ثم يقود السيارة إلى هناك ويوقفها بحيث يستطيع أن يراقب باب البيت وقال فى إصرار كأنه لا يقبل المناقشة :

- أنا متأكد أنها بإيتة فى بيتها .. والصبح حانتزل تروح الجامعة أو أى حته .. نستناها لغاية ماتنزل ..

وكانت الساعة الخامسة ..

ولم أناقش صلاح ، إلى أعرف جنونه ..

ونمت فى السيارة وهو لا ينام ..

وأصبحت الساعة الثامنة .. والتاسعة .. والعاشر .. والناس تمر وتنظر إلى صلاح فى دهشة .. وبعضهم يقف ويحييه .. وهو يدعى لكل من يسأله أنه فى انتظار أحد أصدقائه ولم تخرج فاطمة من باب البيت ..

وعاد صلاح إلى بيتنا وهو منهار ، أخاف عليه أن تدمره الأزمة .. ولكن الأزمة لم تدمره ، ويبدو أن الحب كالفن أقوى من المرض .. وقضى يومه وهو يحاول أن ينام ، ثم يقوم يطوف أنحاء البيت فى خطوات عصبية كأنه يبحث فيه عن فاطمة ، ثم يعود ويحاول أن ينام ..

وفى اليوم التالى دق جرس التليفون ، وكانت فتاة تريد أن تحدث صلاح وهمت أن اعتذر لأن صلاح لم يكن فى حالة يستطيع فيها الكلام ولكنها أسرعت وقالت إنها صديقة فاطمة .. فأعطيت التليفون لصلاح وقالت له الفتاة إنها رآته أمس فى سيارته فى انتظار فاطمة ، وكل سكان الحي رأوه ، وكلهم يعرفون حكايته مع فاطمة .. وهى تريد أن تبلغه أن فاطمة نقلت هذا الصباح إلى المستشفى .. مستشفى المقطم .. وأنها تبلغه دون أن تستأذن فاطمة فى إبلاغه وعندما سأله صلاح وهو يرتعش عن صحة فاطمة ، أجابت :

- دى تعبانة .. تعبانة قوى يا أستاذ .. كلنا بندعى لها ..

وأصبح صلاح كأنه مجنون ..

ويبحثنا عن مستشفى المقطم ..

إنه مستشفى للأمراض العصبية ..

وسألت عنها فى التليفون .. وقال لى عامل التليفون إنها ليست فى خطر ، وطلبت أن أتحدث إلى الطبيب المختص وقال لى أيضاً إنها ليست فى خطر ، ولكنها فى حاجة إلى علاج بعيد أعصابها إلى طبيعتها .. ومضى أكثر من أسبوع استطاع صلاح خلاله أن يتعرف بطبيب المستشفى ، وأن يتلقى منه كل يوم تقريراً عن صحة فاطمة ، إلى أن اتفق معه على أن يسهل له زيارتها فى وقت لا يكون أهلها معها .. لم يقل للطبيب عن قصة حب لها ، ولكنه قال إنها معجبة قديمة

تعودت أن تعبر عن إعجابها دائماً وهو لا يعرف أحداً من أهلها ، ولذلك يريد أن يراها وحدها ..

وذهبت معه إلى المستشفى ..

وكان لقاء عجبياً ..

إن فاطمة قد استعادت كل أعصابها تماماً .. ولكنها تغيرت .. إنها لا تحدث صلاح بنفس اللهجة ، ولا بنفس اللهجة .. وهي تبدو دائماً كأنها تفكر في شيء بعيد .. ورغم الكلام الكثير الذى قاله صلاح يؤكد لها حبه .. وارتباطه بها العمر كله ، حتى بلا زواج وحتى لو تزوجت غيره فإن حبه هو الذى يعينه على فنه وعلى مرضه .. ورغم كل هذا الكلام فإن فاطمة كانت تتلقاه بابتسامة شاكرة دون أن يبدو عليها أنها أصبحت تتأثر بهذا الكلام ..

وخرجنا من المستشفى وصلاح حائر مثلى فى الشخصية الجديدة التى رأى بها فاطمة ..

خرجنا وقد اطمأننا أن فاطمة ستترك المستشفى بعد أيام ..

كل ذلك وقصة صلاح ونهال مستمرة .. وإشاعة زواجهما تنبع .. وبدأت الصحف تشير إليها دون أن يحاول صلاح أن يتدخل لينفى الإشاعة أو يسكت الصحف .. لقد كان فى حاجة إلى نهال .. إنها أعطته مجتمعاً كان طول عمره يريد أن يصل إليه .. مجتمع القمم .. ومظاهر وتقاليده وفخامة حياة القمم .. وكانت نهال تبدو أحياناً كأنها تلقنه دروساً فى تقاليد حياة هذا المجتمع ، بل إنها بدأت تعلمه اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وقد تعمد أن يجيد اللغتين حتى أنه لم يكتفِ بنهال فاتفق مع أساتذته يعطونه دروساً خصوصية فى البيت .. والإشاعة أصبحت أكبر من أن تعيش العمر كله كإشاعة .. ونهال تعاني

ضغطاً من عائلتها ومن خطيبها السابق لتعود إليه .. وأصبح صلاح مضطراً أن يواجه نفس المشكلة ، مشكلة الزواج .. وهو يعرف عائلتها ويعرف أنها عائلة لا ترحب كثيراً بزواجه من ابنتها ولكنه يستطيع رغم ذلك أن يتزوجها حتى لو اضطر أن يهرب بها .. ولكن هل يتزوج صلاح ؟ لا .. إنه لا يريد .. لا يستطيع .. إنه ليس ملكاً لنفسه إنه ملك فنه .. ملك الناس كلهم .. ولا أدرى هل استطاع أن يقطع نهال بكلامه أو أنها اضطرت للاستسلام لما يريده حتى تحتفظ بكرامتها وتقاليدها وتعاليمها ..

وقبلت أن تعود إلى خطيبها الأول تحت ضغط عائلتها ، وقالت لصلاح :

- إننا لا نستطيع أن نتزوج ونحن نعيش الحب .. وأنا مضطرة أن أعيش الزواج بلا حب ..

وقال صلاح بذكائه الذى لا يعجز أبداً عن المنطق الذى يبرر به تصرفاته :

- إن الزواج هو الواقع ، والحب أقوى من الواقع .. وأنت وأنا مضطران أن نستسلم للواقع ، ونحتمله لأننا لا نفقد الحب أبداً ..

وقد عارضته أنا كثيراً .. كنت أريده أن يتزوج نهال مادام لن يتزوج فاطمة .. قلت له إن عبد الوهاب عاش عمرة الفنى ولا يزال يعيشه وهو متزوج ، دون أن يفقد الجمهور ولا لغة المعجبات ، وكان يقول لى :

- عبد الوهاب من جيل لم يكن فيه الزواج يستولى على الرجل كله .. وعبد الوهاب لا يعاني ما أعانيه من أزومات .. وعبد الوهاب أستاذى فى كل شيء حتى فى فن الحياة ولا أستطيع أن أرتفع إلى مستوى أستاذى وتزوجت نهال ..

وصلاح هو الذى أحيا حفل الزواج .. وكنت أحس به وهو يقنى كأنه هو الذى يملك نهال وهو الذى تنازل عنها فى سبيل إسعادها .. كان يتصرف كأنه صاحب البيت وكأنه صاحب الفضل .. وربما كان هذا هو الإحساس الذى كانت تحسه نهال نفسها .. فحتى بعد الزواج ظلت على علاقتها بصلاح تدور إلى بيتها وتسأل عنه ، وتطمئن عليه وتحيه ..

وخرجت فاطمة من المستشفى .. ولم تعلم بخروجها إلا عن طريق الطبيب .. ولم تتصل بصلاح بعد خروجه ، وفوجئنا بأحد أصدقائنا من أفراد الفرقة الموسيقية يبلغنا بأنها ذهبت إلى نادى الفرقة وكانت تعرف كل أفرادها عن طريق صلاح ، وأنها بقيت هناك وقتاً طويلاً .. وأنها غنت .. لم تغن كمحترفة ولكنها غنت وسط أفراد الفرقة وهي تتضحك معهم .. وقال صديقنا .. والله صوتها مش بطل .. وجدد صلاح لهذا التطور الذى حدث فى حياة فاطمة ، إنها لم تعد حريصة على أن ترضيه بانعزالها عن الجو الفنى وتخصصها عن أصدقائه .. بل إنها كل يوم أصبحت مع صديق من هؤلاء الأصدقاء .. واستطعت أخيراً أن أحدها .. ولتها لأنها لم تحاول لقاء صلاح .. وقالت فى بساطة :

— هو عايز يشوفنى .. خلاص أشوفه ..

وجاءت إلى البيت .. ولكنها جاءت إنسانة أخرى .. جلست تتكلم كأنها إحدى المعجبات وتهرب من أى حديث يبدؤه صلاح عن الحب والفن .. حتى عندما هم بتقبلها أعطته قلبها فى برود كأنها تحاول أن ترضيه أو كأنه زبون من زبائن القبل .. وعندما ثار صلاح وبدأ يصرخ فى وجهها ويستعمل لأول مرة ألفاظاً جارحة تخدشها .. ردت عليه بهدوء :

— اسمع يا صلاح .. أنا لسه بحبك ويمكن أفضل أحبك عمري كله .. أنا أنا قررت أنى أحبك زى ما انت بتحبنى تمام .. أنت بتحط فكك ومستقبلك الأول .. وبعدين الحب وأنا كنت بحط الحب الأول حتى لو ضحيت يقنى مستقبل .. إنما خلاص حتى زيك ، قنى ومستقبل الأول .. أنا فتانة يا صلاح .. وأنت عارف إنى كلنى فن .. وأحب أقولك إنى سبست الجامعة وبقيت فى معهد الباليه .. اخترت الباليه علشان أنا عارفة أنك مش عايزنى أغنى .. مش عايز أبى أنا وأنت فى فن واحد .. وأنا مش عايزاك تصحى بحاجة إنما عايزاك تعقبنى من التضحية .. خلاص .. أنا تعبت من التضحية ..

واستمر النقاش والجدال بينهما كأنه لن ينتهى أبداً ..

وأصبحت العلاقة بين صلاح وفاطمة علاقة غريبة .. لم نشهدها أى قصة حب .. إن كلا منهما يبدو كأنه يخاف الآخر ، ويعارب الآخر ، ويجادل الآخر .. ثم فجأة يلتقيان فى ساعات حب عنيفة ، يلتصق فيها كل منهما بالآخر كأنه لن يتركه أبداً .. ثم يعودان إلى الخوف والحرب والمجادلة .. وقد جد على صلاح أنه أصبح يغار على فاطمة .. إنها أصبحت تعيش فى الوسط الفنى كله .. وبدأت الإشاعات تلاحقها عن علاقات بينها وبين هذا أو ذاك ، ويجب صلاح إلى حد أن يتخذ مواقف قاسية من هذا أو ذاك .. قامت إشاعة قوية عن علاقة بين فاطمة وعازف الجيتار ، فما كان من صلاح إلا أن عزل عازف الجيتار من الفرقة واستبدل به آخر .. أما فاطمة فكانت قد تعودت على الغيرة منذ عرفت صلاح .. لم يعد يؤثر فيها استمرار صداقته بنهال ولا زيادة عدد المعجبات ..

ولكن حب فاطمة كان يعود كما كان تماماً إذا أصيب صلاح بالأمية التى تقذف بطلقات الدم من فمه .. كانت لا تسمع بالأمية حتى ترك كل ما هى

فيه وتجري إليه لتجلس بجانبه على حافة فراشه . . وتبقى معه إلى أن تطمئن عليه . .
تبقى معه مهما كلفها بقاؤها من تضحية بالفس والمستقبل اللذين تسعى إليهما . .
وربما كانت فاطمة هي أول من اكتشف أن أقوى علاج لصلاح في أزمته
هو فنيه . . كانت بعد أن يتوقف الزيف ويستريح في فراشه تطلب منه أن يغنى . .
وكانت أحياناً تثيره حتى يغنى قائلة :

- صلاح . . سمعنى الغنوة الجديدة . . فيها حته مش عجباى

أو أحياناً كانت تبدأ هي في الغناء ، حتى تأخذها إلى الإحساس بالتحدى
فيغنى معها أو يسكتها ليغنى وحده . . ولا يكاد صلاح يبدأ في الغناء حتى يبدو
كأنه يسترد حياته . .

ومرت شهور ، وأقام معهد الباليه حفلته السنوية ، وإذا بفاطمة تبدو في
العرض متميزة عن كل الطالبات بل إنها استطاعت خلال هذه الشهور أن
تكتسب ثقة وحج أساتذة المعهد بنفس أسلوب صلاح في اكتساب من يحتاج
إليهم ، فوضع أساتذة المعهد عرضاً في البرنامج تبدو فيه فاطمة وحدها وهي ترقص
وتغنى أيضاً . .

وأنارت فاطمة إعجاب من شاهدها وبدأت الصحف تتحدث عنها . .
بدأت فاطمة تعيش بين الأضواء . . وقبل أن تتم دراستها في المعهد التحقت بفرقة
الرقص الشعبي وأصبحت تقدم شيئاً جديداً . . رقصات باليه كلاسيك ، مع أغان
شعبية . . تغنى وهي ترقص . .
وأصبحت فاطمة نجمة . .

كل ما كان يضعفها في نظري أنها استمرت تقلد صلاح في كل شيء . .
في حركاته وفي أسلوبه . . وفي تصرفاته وتفكيره . . ربما لم تكن تتعمد تقليده

ولكنها كانت متأثرة به إلى حد أن سيطرت شخصيته عليها ، وأصبحت تؤمن
ألا طريق للنجاح إلا طريق هذه الشخصية . . حتى لو كانت تقدم فناً يختلف
عن فن صلاح . .

وكنت كثيراً ما ألح على صلاح أن يضم فاطمة إليه في عمل واحد . . حفلة
غنائية . . فيلم سينمائي . . مسرحية . . ولكنه كان يرفض . . وكان يقول في
سخريه مرة :

- عايزنى أنزل لمستواها . . ولا ترفعها لمستواى . . والناس بعد ما يشوفونا
حابتكلموا عنها ولا عنى . .

وكنت أقول له إن الناس لا تتكلم عن صلاح ولا عن فاطمة ، ولكن تتحدث
عن العمل الفني وإذا ضمها إليه في عمل واحد فإنه سيقدم عملاً فنياً ضخماً
يثير ضجة ويخلق مستوى فنياً جديداً ، وعبد الوهاب عمل مع أم كلثوم فقدما
قفزة فنية جديدة وارتفع عبد الوهاب وارتفعت أم كلثوم ولم يتأثر أحدهما بمستوى
الآخر . . وكان يرد على قائلاً :

- عبد الوهاب ما اشتغلش مع أم كلثوم إلا بعد ما بطل يغنى للناس . .
اشتغل معاها من غير ما يواجه الناس وهي جنبه . . ما ظهرش معاها على مسرح
ولا في فيلم ولا في أغنية واحدة . . مش ممكن اتنين يغنوا مع بعض حتى لو كانوا
راجل وست . . وما يقروش بيغنوا يقولوا يقولوا منولوجات . . وأنا مش عايز أبقي
منولوجست ياسى عمر . .

وفاطمة تنطلق في آفاق النجاح . . أصبحت شخصية فنية قائمة بذاتها . .
إنها ترقص رقصات الباليه وهي تغنى وبدأ الناس يقارنون بينها وبين صلاح ،
كما كانوا يقارنون بين عبد الوهاب وأم كلثوم . . وانقسم الشعب إلى حزب صلاح ،

وحزب فاطمة ، كما كان منقسماً إلى حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم . .
وقد بدأت فاطمة تحرص على إخفاء أى علاقة لها بصلاح ، كما كان يحرص
هو من زمان على إخفاء علاقته بها . . وترفض أن تظهر معه فى مكان عام ،
وترفض أن تلتقط لها صورة معه ، وأحاديثها عنه التى تنشرها الصحف أحاديث
باردة . . وأحاديثه عنها أبرد . . ورغم ذلك فالعلاقة بينهما مستمرة بأسلوب جديد . .
إنى فى فترات متباعدة أفاجأهما فى البيت يستردان كل حلاوة قصة الحب
الأولى ، وأحياناً أيضاً كنت أكتشف أن صلاح قضى الليل فى بيتها بعد أن انفصلت
عن عائلتها وأصبحت تقيم وحدها . . والناس لا تعرف شيئاً . .
ودائماً إذا ما أصيب صلاح بأزمته جاءت فاطمة بسرعة . . وعادت الفتاة
الصغيرة التى تضحى بكل شيء من أجل حبها وجلست بجانب فراشه . . حتى
لو عرف الناس وكنت أنظر إليهما وأنا اتساءل : كيف سنتهى هذه القصة . . قصة
أعجب حب بين رجل وامرأة . . لا . . إنها ليسا رجلاً وامرأة . . إنها فتان وفتانة .



هذه هى قصة حياة صلاح . . أو قصة ما عشته مع صلاح . . وقد عشت
معه العمر كله إلى أن حدثت إصابته بالأزمة قبل أن يغادر المسرح . . ثم حدثت
مرة أخرى وبعد أسبوع واحد عندما أقام حفل بناء بيت الطلبة . . ويومها قرر
الأطباء أنه يجب أن يسافر إلى لندن ليتم علاجه هناك . . وحدد له بسرعة موعد
مع الطبيب الإنجليزي . . وسافرت معه إلى هناك . . إلى لندن . .
ووضع الأطباء الإنجليزي مرض صلاح فى صورة أخطر مما وضعها أطباء مصر . .
وبعد أيام طويلة قضاهها صلاح وكل أدوات الكشف الطبى الحديثة مسلطة عليه
تقرر إجراء عملية جراحية عاجلة له . .
ولم أفهم تفاصيل العملية ، وربما لم أهتم بفهمها ، يكفى أنها عملية جراحية ،
وأول عملية يتعرض لها صلاح . . وقضى صلاح بعد إجراء العملية خمسة عشر
يوماً وهو غائب عن الوعي ، وكلما أفاق ، حققوه ليعود إلى غيبوبته . .
ودخلت إليه مرة وهو راقد على فراشه فى المستشفى وإذا بى أجده يغنى . .
صوت ضعيف منهار ، ولكنه يغنى به . .

وقلت له :

- ما تمجهدش نفسك يا صلاح . . مش وقت الغنا . .

وقال وكأنه ييكى :

- أنا حاسس أنى حاموت ، وعابز أموت وأنا باغنى . .

وكنت دموى حتى لا أبكى معه ، ولا أغنى معه . . أغنية الموت . .

والحمد لله . . بعد أيام بدأ صلاح يسترد حالته التي تعود عليها . . حالته بعد أن انتهى الأزمة . . يغنى ويعمل وهو في فراشه . . وفي مرة ذهبت إليه وفاجأني قائلا :

== طلع الناي .

وكان يعلم أنني أحفظ دائما في جيبي بصفارة صغيرة أتسلى بالعزف عليها عندما أجد نفسي وحيدا . . وأخرجت الناي من جيبي . . وبدأت أعزف عليه ، وصلاح يغنى . . وإذا بالمرضات يلففن حولنا معجبات ضاحكات ، بل كثير من المرضى الذين تسمح لهم حالتهم بمغادرة الفراش وبينهم كثير من العرب ، جاءوا إلى غرفة صلاح- ليستمعوا إليه . .

وبدأ صلاح يغنى مرات كثيرة في المستشفى خصوصا بعد أن سمح له الأطباء بمغادرة الفراش كان يطوف على المرضى ويغنى لهم ، وهو مريض بينهم . . وكان يمكن أن يفاخر صلاح كعادته ويغادر المستشفى قبل أن يسمح له الأطباء ، ولكنه كان لا يزال في خوف وحرج أمام الأطباء الإنجليزي . .

وفي يوم قال لي صلاح :

- إيه رأيك . . تعال نغنى لم بالإنجليزي . . علشان يفهمونا . .

وبدأ صلاح يغنى أغنية إنجليزية كانت شائعة . . ولكنه كعادته . . كان طموحا عبقرا ، فقام أن يغنى أغنية بالإنجليزية له وحده . . أغنية جديدة هو الذي يقدمها . . وبدأ يسأل عن أسماء وعناوين الموسيقيين الإنجليزي سعيا ليتفق معهم على تلحين أغنية له . .

ولكن قبل أن يبدأ في صناعة الأغنية الإنجليزية سمح له الأطباء بمغادرة المستشفى على أن يعود إليهم بعد ستة شهور ، لاستكمال العملية التي أجريت له . .

وفي الطريق إلى مصر قال لي صلاح :

- اسمع . . أنا وحدي . . وعازف أغنى بالإنجليزي . . طيب ليه كمان ما يكونش ملحن مصري بلحن للإنجليزي . .

ومنذ وصل صلاح إلى مصر وهو يعمل مع الملحنين على إخراج أغنية بالإنجليزية . والواقع أن صلاح كان بعد هذه العملية أقوى وأبعد وأتم صحة مما كان قبل العملية . . واستطاع أن يقدم ثلاث أغنيات جديدة في أقل من شهرين ، وأن يقيم عدداً من الحفلات لا يقل عن حفلة كل أسبوع ، كأنه كان يريد أن يطمئن الناس على صحته . .

وقاطمة فرحة به . . وتنفق فرحتها وحبا . . وتلقاه سراً ، هذه اللقاءات المتباعدة التي قد تتباعد أكثر من شهر وشهرين . .

.. إلى أن عدنا إلى لندن . .

ومرت الأيام الأولى بعد العملية . . والأطباء يجتازون به حافة الموت إلى أن استطاع أن يعود إلى حالة مقاومة الموت بالفن . . وبدأ يغنى . . ثم أرسل يستدعى ثلاثة من الموسيقيين . . عازف الجيتار ، وعازف الكمان ، وعازف الطبلية ، وقدم أغنيته الإنجليزية في المستشفى . .

ولا تتصور فرحة المرضى بالأغنية . .

لقد تمحنت داخل المستشفى إلى حد أن كتبت الصحف الإنجليزية عن صلاح وأغنيته . . بل تقدم أحد المتعهدين الإنجليزي بعرض إقامة حفل عام يغنى فيه صلاح بالعربي للمقيمين العرب في لندن ، ويغنى بالإنجليزية للشعب الإنجليزي . .

وكان صلاح قد تعود على الأطباء الإنجليزي ، فأصبح يتقاد لتهوره ، أو يتقاد

لفته دون أن يستأذنيهم . . فكان يخرج من المستشفى بلا إذن . . ويعود دون أن يقول متى يعود ، وفي مرة شكوه للطبيب ، وقال لي في اطمئنان :

— هناك شيء في الإنسان لم يصل إليه العلم بعد . . شيء أقوى من العلم . . إن صلاح يعرف مرضه جيداً ، وهو قطعاً لا يريد أن ينتحر . . فإذا كانت في داخله دوافع أقوى من المرض فيجب أن تتركه لها . . من يدري ربما كانت هذه الدوافع هي سر استمراره في الحياة . . ربما كان تمسكه بفته أقوى من كل ما تسلمه الحياة . . فلتستسلم للأقوى . . وأصبحت هذه هي حياتنا . .

نقضى نصف السنة في مصر . . ونصفها الآخر في لندن مع الأطباء الإنجليز . . وصلاح لا يريد أبداً أن يستسلم حتى يشفي تماماً . . بمجرد أن يتحرك يعود إلى فنه . . وأقام حفلات عامة في لندن نجحت نجاحاً ضخماً ، وأصبحت أغانيه بالإنجليزية تذاع في الإذاعة الإنجليزية كما تذاع أغانيه في القسم العربي . . وكان يتفق على إقامة هذه الحفلات وهو راقد في فراشه وفي المستشفى . . إنه دائماً مطمئن إلى أن فنه أقوى من مرضه . . وكان يخرج من المستشفى ليقيم الحفل رغم تحذير الأطباء . . بل كان أحياناً يخرج من المستشفى ويأخذني من يدي وأجد نفسي في طائرة تطير بنا إلى المغرب أو إلى لبنان أو إلى الكويت لنقم حفلاً هناك . . ثم يعود إلى المستشفى . .

وفي مرة ظهرت في صحة صلاح عناصر جديدة خطيرة ، وتقرر أن يذهب للعلاج في فرنسا بدلاً من لندن . . وانتشرت الإشاعة إلى أنه أصبح في حالة ميثوس منها . . كل الناس في انتظار الخبر المفزع . . وأنا منهم . . وكنا في مستشفى باريس عندما فوجئت بفاطمة تدخل علينا . .

كانت قد تعودت أن لا تجلس بجانب فراش صلاح وهو يعالج في الخارج ولكن هذه المرة لم تستطع أن تقاوم الإشاعات ، وجاءت لتجلس بجانبه . .

أصبح الحب بجانبه . . وساعده الحب حتى خرج من مرحلة الموت ، وبدأ يستعين بقوة الفن للتغلب على الموت . . وانتصر الفن . . وعاد يقني . . وأقام حفلاً غنائياً في مسرح باريس لأول مرة تشترك فاطمة معه . . لقد ظهرت أمام الجمهور في باريس ورقصت وغنت . . ثم ظهر صلاح وغنى وحده . . غنى بالعربية . . وبالفرنسية أيضاً . . ثم ظهر الاثنان معا وألقيا أغنية مشتركة . .

كان هذا هو أكبر تطور في قصة صلاح وفاطمة . . انتصر الحب حتى جمعهما في عمل واحد وإن كان لم يجمعهما في زواج . . ولا أعتقد أنه سيجمعهما في زواج أبداً . . وحتى في باريس رأيت نهال تجلس بين جمهور المتفرجين . . وهكذا نعيش . .

نعيش في فرحة نجاح فني . . وفي خوف دائم من الموت . . والنجاح والموت يتصارعان داخل جسد يعيش على الألم . .

كيف تنتهي . . لا أدري . . لا أحد يدري . . الله وحده . . رب الفن ورب العلم . .

تمت